ALTERNATIVE SCENARIOS

مسارات بديلة

فراشات التاريخ

مجموعة من المؤلفين

فكرة وتحرير : أيمن حويرة

فريق متميزون

E-BOOK

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

كلوبيا للنشر والتوزيع

رواية

مكتبة فريق "متميزون"

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق "متميزون"

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

مسَارات بديلة

مجموعة من المؤلفين

فكرة وتحرير: أيمن حويرة

نبذة عن الكتاب..

ماذا لو لم يذهب هتلر إلى ستالينجراد؟ ماذا لو ذهب وانتصر؟ ماذا لو لم يذهب اليابانيون إلى بيل هاربور؟

ماذا لو منح السلطان عبد الحميد تيودور هرتزل ما أراده؟ ماذا لو انتصر العرب في حرب فلسطين؟ لو انتصر جمال عبد الناصر في الخامس من يونيو؟ لو هُزِمَ الجيش المصري في أكتوبر 73؟ أو انتصر ولم يوقّع السادات اتفاقية السلام؟ ماذا لو لم يجتاح المغول بغداد في القرن الثالث عشر؟ لو لم يدخل العثمانيون القاهرة عام 1517؟ لو لم تحتل بريطانيا الهند، وفرنسا الجزائر، وأسبانيا شمال المغرب، وإيطاليا ليبيا؟

ماذا لو امتلكنا فرصة العودة بالزمن وتغيير مسار التاريخ؟ هل حقًّا سيتغير ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا حينها للأفضل؟ هل لو تحققت كل المسارات السابقة كان حالنا سيصبح كما نتمنى؟

إهداء

إلى من أرادوا صياغة تاريخ بلا زلات، تاريخ مثالي، وقادة لا يخطئون... نحن ندين لأخطائنا بالكثير... فلولاها ما كنا لنصل لهذه اللحظة...

مقدمة

دائمًا ما يقال أن فراشة لو عصفت جناحيها في البرازيل لتشكل إعصار في تكساس، تتحدث النظريات عما يسمى بأثر الفراشة للدلالة على أن تغيرًا طفيفًا في المعطيات قد يؤدي إلى نتائج مختلفة تمامًا. يقول العلماء أن هذه النظرية صالحة للتطبيق في كافة المجالات. بدأت في التنبؤ بالأرصاد الجوية، لكنها امتدت بعد ذلك لتشمل الإقتصاد والسياسة وغيرها من نواحي الحياة.

كل منا يصادف أثر الفراشة في حياته اليومية. ماذا لو تأخرت قليلًا في الاستيقاظ صباحًا؟ كنت لتستقل قطارًا مختلفًا، ترى أشخاصًا جديدة، ربما تنجو من حادث أو تصادف زوجتك المستقبلية. ربما لا تعرف أبدًا المسار البديل الذي كنت لتسلكه لو استيقظت مبكرًا لكنه بالتأكيد مسار مغاير لما مر بك اليوم، مسار قادك إلى نتيجة ما بعد عشرين عامًا من الآن حتمًا لم تكن لتصل إليها لو أنك فقط استيقظت مبكرًا بضع دقائق!

التاريخ يعج بملايين بل مليارات الأحداث التي كانت خفقة جناح فراشة كفيلة بتغييرها. ماذا لو لم يهزم هتلر في ستالينجراد؟ لو لم تدعم الولايات المتحدة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى؟ لو انتصر نابليون في واترلو؟ مئات الـ «ماذا لو» تراود الجميع؟ ملايين الفراشات التي لم تحرك جناحيها فوأدت بذلك الكثير من المسارات البديلة التي ربما كانت أفضل مما اختارته لنا فراشاتنا الصامتة الساكنة.

الثامن والعشرون من أغسطس عام ٢٠١٩

«إني لأرجو أن يكون رأي أخي رحمه الله في الموادعة، ورأيي في جهاد الظلمة رشدًا وسدادًا، فألصقوا بالأرض، وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأظاء ما دام ابن هند حيًا، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله».

الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المسار الأول

بقلم: عمرو يسري

«يا بُنيّ، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وإني لا أتخوّف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا ثلاثة نفر من قريش:

الحُسَين بن علي، وعبد الله بن عُمَر، وعبد الله بن الزبير، فأما عبد الله بن عمر فرجلٌ قد وقذته العبادة، وإذا لم يبقَ أحدٌ غيره بايعك، وأما الحُسَين بن عليّ فإن أهل العراق لن يَدعوه حتى يُخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسةً وحقًا عظيمًا، وأما الذي يجثِم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصةٌ وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إربًا إربًا».

بهذه الكلمات ودَّع معاوية الدنيا، وعَهِد بأمر الخلافة إلى ابنه يزيد على غير سنّة الرسول ﷺ في الشورى التي التزم بها الخلفاء الراشدون، والتي تعهد بها معاوية في صلحه مع الحَسَن بن علي، وكان أكبر همّ يزيد بعد أن تولى الخلافة أن يأخذ بيعة هؤلاء النفر الذين ذكرهم له أبوه؛ فقد رفضوا أن يبايعوه حينما أراد معاوية أن يأخذ له البيعة في حياته.

كان يزيد على العكس من أبيه، فبينما كان معاوية يميل إلى التأني والفطنة، كان يزيد يميل إلى الشدة، لذلك فقد قرر أن يأخذ البيعة من هؤلاء النفر بالقوة، فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - ابن عمّه ووالِيه على المدينة - خطابًا مختصرًا نعى فيه أباه ثم قال: «أما بعد، فَخُذ حُسَينًا، وعبد الله بن عُمَر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام. فلما وصلت رسالة يزيد إلى الوليد كَبُر عليه الأمر؛ فهو يعلم أن العاقبة ستكون وخيمة إذا تعامل مع هؤلاء النفر بعنفٍ كما طلب يزيد؛ لأنهم كبراءٌ في قومهم، فاستشار مروان بن الحكم في الأمر - وكان من كبار دهاة معاوية -، فنصحه مروان بأخذ البيعة من الحُسَين سرًا، فإن الحُسَين إن بايع، بايع الناس، فأرسل الوليد إلى الحُسَين وابن الزبير أن يأتيا إليه في داره. وصل استدعاء الوليد إليهما في المسجد، نظر الحُسَين وابن الزبير إلى بعضهما، فقال الحُسَين: ما هذه بالساعة التي يجلس فيها الوليد إلى الناس! وإني لأظن معاوية قد مات، وأنهم يريدون أخذ البيعة ليزيد، وإني لذاهب إلى الوليد؛ حتى أسمع ما عنده.

- لكنني أخشى عليك منه أن يغلبك على أمره.

- اطمئن، ما كنت لأذهب إليه إلا وأنا قادر على الامتناع عن البيعة.

قام الحُسَين من المسجد متوجًّها نحو داره، شعر أن هموم الدنيا قد ألقيت فوق رأسه، فحدَّث نفسه: «ها هي اللحظة التي كنت تخشاها قد أتت يا حُسَين، اللحظة التي

يتحوّل فيها المسلمون عن الشورى، وتصير الخلافة فيهم هِرقليّة، ولكنني لن أقبل بهذا، لن أرى سنّة جدي تُخالَف وأسكت، وليس السكوت في هذا الموقف خليقًا بمثلي، هم يعلمون أني لن أبايع يزيدًا، فلو أردت لبايعته في حياة معاوية، ولكن يجب أن أماطلهم؛ كي أعطي نفسي الفرصة لاتخاذ القرار الأصوب».

وصل الحُسَين إلى بيته، فأمر بجمع مواليه، وأمرهم بالتسلُّح ثم ذهب إلى بيت الوليد، وقف أمام بابه فقال لهم: قفوا هنا، فإني داخلٌ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا عليّ بأجمعكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج لكم. ثم دخل الحُسَين على الوليد، فوجد مروان عنده، فنعى إليه الوليد معاوية، ودعاه إلى بيعة يزيد.

قال الحُسَين: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله معاوية، وعظم لك الأجر، أما ما سألتني من البيعة، فإن مثلي لا يُعطي بيعته سرًا، فإذا خرجت للناس، ودعوتهم للبيعة، دعوتني معهم إليها».

فقال الوليد: «حسنًا، فانصرف على بركة الله حتى تأتينا مع الجماعة من الناس، فنرى أمرنا».

هبَّ مروان مُنفعلًا قائلًا للوليد: «لئن خرج من عندك الآن، فلن تقدر عليه أبدًا، احبسه حتى يُبايع وإلا قتلته».

فغضب الحُسَين قائلًا: أنت تقتلني!

وكاد يُكمل الحُسَين كلامه إلا أنه كظم غيظه قائلًا لنفسه: «اهدأ يا حُسَين، ولا تُفرِغ غضبك فيما لا يجدي من الكلام، وسنرى لمن تكون العاقبة»، ثم خرج من الدار مارًا بمواليه فساروا معه حتى بيته. بعد أن خرج الحُسَين، قال مروان للوليد غاضبًا: عصيتني، والله لا يمكّنك من نفسه أبدًا. فقال الوليد: إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني، أتريدني أن أقتل حُسينًا! والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت من مال الدنيا ثم ألقى الله بدم الحُسَين، إن من يلقَ الله بدم الحُسَين لخفيف الميزان يوم القيامة.

* * *

جلس الحُسَين إلى ابن الزبير في المساء، وأخبره بما جرى، فقال ابن الزبير: وماذا ترى يا أبا عبد الله؟

قال الحُسَين: إن الوليد رجلٌ حليمٌ لا يسعى في الدماء، وإني لا أراه يقتلنا، وإني لأرى يزيد عازله عن المدينة، وسيولي مكانه أحد الجبابرة فيُسرف في دمائنا.

- فإني قد عزمت على الرحيل مع أخي جعفر إلى مكة؛ فإن لي بها أنصارًا، وسأكون

بعيدًا عن أنظار بني أميّة، وماذا عنك؟

- إني قد أتتني كُتُب أهل العراق يُبايعونني، ويطلبون مني المجيء إليهم.

- لو أن لي شيعةً مثل شيعة أبيك لخرجت إليهم.

- ما زلت أفكر في الأمر، أريد أن أستوثق منهم أولًا، متى رحيلك؟

- الليلة، بعد أن يُسدِل الظلام رداءه على المدينة.

* * *

عاد الحُسَين إلى بيته، فأقام ليله، ثم أخذ يفكّر: هل أبقى في المدينة؟ أم أذهب إلى مكّة مثل ابن الزبير؟ أم ألبّي نداء أهل العراق؟ لكن كيف أستوثق منهم!

وبينما الحُسَين غارقٌ في أفكاره، سمع طرقاتٍ على الباب، فأمسك سيفه قائلًا: من الطارق؟

جاء الصوت: محمد بن الحنفية، وعبد الله بن العبَّاس، وعبد الله بن عمر. قام الحُسَين ففتح لهم وبعد أن تبادلوا السلام، قال ابن الحنفية للحُسَين: أنشدك الله ألا تخرج إلى العراق يا أخي.

تفاجأ الحُسَين، وقال له: لِمَ تقول هذا يا ابن أبي! هل أخبرك ابن الزبير بنبأ كتب أهل العراق؟

- إذًا فقد وصلتك كتبهم! لم يخبرني أحد، لكنني كنت متأكدًا أنهم سيرسلون إليك لتخرج إليهم كما فعلوا بعد وفاة أخينا الحَسَن "رحمه الله"، وطلبوا منك الخروج على معاوية.

- نعم، فإنهم قد أرسلوا إليّ، وإني قد عقدت العزم على الخروج إليهم.

فقال ابن العباس: أتخرج إلى قومٍ قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟

- إني قد وصلتني بيعة أربعين ألفًا منهم بالطلاق والعِتاق لينصرنني.

- يا ابن العم، لا تأمن إليهم إلا إذا طردوا أميرهم، ونفوا عدوهم ثم أقدِم عليهم، وإلا فَسِر لليمن فإن بها حصونًا وشعابًا، ولأبيك فيها شيعة، وتكون بها في مَعزِل، فأرسل كتبك إلى الأمصار، وبث

فيهم دعاتك.

- يا ابن العم، إنى لأعلم أنك ناصحٌ أمينٌ، لكن ما لي ولليمن! الرجال في العراق، والأموال في الشام، والبيت في الحجاز، إن خرجت إلى اليمن فسأكون بعيدًا عن مجريات الأمور.

قال ابن عُمَر: إني أرى أن تخرج غدًا مع الناس، وترى ما يفعلون، فإن بايع الناس يزيدًا، بايعته معهم، فلم تشذ عن الجماعة، وإن لم يبايعوه، فلك ما أردت.

قال الحُسَين: يا أبا عبد الرحمن، أرأيت لو أن الناس اجتمعوا على باطلٍ، أفأجتمع معهم! كيف يكون فينا أصحاب رسول الله ﷺ، ونترك الأمر لصبيان بني أمية، وإنكم لتعلمون ما أعلم عن يزيد، إني أعلم أنكم خير ناصحين لي، وأنكم تريدون الخير لهذه الأمة، لكنني لن أرى سنة جدي ﷺ تُخَالف، وأسكت.

- إن أخاك قد تنازل عن الحُكم لمعاوية حقنًا لدماء المسلمين، فاقتدِ به، وكفَّ عن الدماء.

- وإن معاوية قد خالف الصُلح، وعَهِد إلى يزيد من بعده، إذًا فقد انتقض الصُلح، وإني لأرجو أن يُعطي الله أخي على نيته في حبه للكف عن القتال، وأن يعطيني على نيتي في حبي لمجاهدة

الظالمين، وإني قد عقدت العزم على مجاهدتهم حتى ينصرني الله أو أهلك دونهم.

قال ابن الحنفية: فإن أبيت إلا مجاهدتهم فلا تخرج إلى العراق؛ فإنهم قد خذلوا أباك وأخاك، ولا تَمِل إلى مصر دون الأمصار، فيظن الناس أنك قد استغنيت بأهل هذا المصر عنهم فيوغِر ذلك صدورهم عليك، لكن ابقَ في مدينة جدك ﷺ، فإن فيها بني هاشم، وصحابة رسول الله؛ فإنهم أنصح الناس لك، وأوصلهم لرَحِمك، وأسرعهم لدين الله.

سكت الحُسَين هنيهةً ثم قال: فإني خارجٌ إلى الناس غدًا بعد فريضة الظهر، فخاطبٌ فيهم، فإن أقبلوا عليّ، فقد ثابوا إلى الشورى، وإن أبوا إلا مبايعة يزيد، فما أنا بمُفرِّق جماعتهم.

* * *

بعد أن انصرف ثلاثتهم، لم ينم الحُسَين، بل توضَّأ وصلى ركعاتٍ لله؛ كي يلهمه الصواب. سمع أذان الفجر، فأيقظ أهله، وأسرع إلى المسجد لا يُكلِّم أحدًا، شعر كان الناس ينظرون إليه. الجميع يعرف أن الحُسَين وابن الزبير هما أكبر معارضَين لولاية يزيد، أما ابن الزبير فتفقّده الناس في المدينة فلم يجدوه، ولم يبقَ إلا الحُسَين، وليس الحُسَين بمن يسكت على ما لا يرضى.

أنهى الحُسَين صلاته ثم قام من المسجد سريعًا عائدًا إلى بيته؛ حتى لا يكلمه أحدٌ، فقد كان رأسه مثقلًا بالأفكار، لم ينم الحُسَين بعد أن صلى الفجر، بل جلس يفكِّر في أمره. جاء ابنه عليّ الأكبر، وجلس بجواره دون أن يتكلم؛ فهو يعلم أباه حين يشغله أمرٌ هامٌ.

نظر الحُسَين لابنه بتمعُّنٍ ثم قال: "أي بُني، لو أن الناس اليوم اجتمعوا لمبايعة يزيد، فخرجت فيهم خطيبًا، فتفرَّقت جماعتهم، أيكون علي وزر؟". نظر علي إلى أبيه بإشفاق، ثم قال: "أي أَبَتِ، فيمَ ستقوم فيهم خطيبًا؟".

- أُذكِّرهم بأيام الله، وبسنة رسوله ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين.

- يا أبَتِ، لقد خرج رسول الله في قريش خطيبًا يُذكرهم بأيام الله وبالأمم من قبلهم، فتفرَّقت جماعتهم، أفترى عليه وزرًا؟

- لا.

- فامضِ على بركةِ الله، فإنما أنت بِضعةٌ منه، أنت حفيد محمد وخديجة، وابن علي وفاطمة، وإن مثلك ليس خليقًا أن يرى أمرَ الله وسنة رسوله تُخالَف فيسكت.

عانق الحُسَين ابنه، ثم نظر له وابتسم قائلًا: خليقٌ بك اسم علي.

* * *

بعد أن دبَّر الحُسَين أمره، جمع أهل بيته، وأرسل إلى إخوته وأبنائهم وبني هاشم أن يجتمعوا في المسجد عند فريضة الظهر، ولا يتخلَّف منهم أحدٌ. ومع اقتراب أذان الظهر، خرج الحُسَين من بيته متوجهًا نحو المسجد، يُحيط به أبناؤه ومواليه في مشهدٍ مهيبٍ. تأمَّل الناس هذا المشهد الذي يوحي باستئناف الصدام بين بني هاشم وبني أميّة من جديد. الصدام الذي بدأ منذ اللحظة التي وُلد فيه التوأم هاشم وعبد شمس، واستمر بين هاشم وابن أخيه أمية، ثم انتقل إلى صراع النبي محمد وأبي سفيان، ثم تجدد بين عليّ ومعاوية، وها هي المرحلة الجديدة في الصراع تلوح بين الحُسَين ويزيد.

رأى مروان بن الحكم هذا المشهد فاستشعر الخطر، فأمر بجمع كل بني أمية ومواليهم في المدينة. أقيمت الصلاة، فاستوت الصفوف، لكن لم تستوِ القلوب. بعد أن انتهت الصلاة، أسرع مروان بالوقوف وسط جماعته؛ ليقطع الطريق على الحُسَين قائلًا:

- هلمّوا أيها الناس لبيعة أميركم يزيد.

فوقف الحُسَين قائلًا: وكيف يكون أميرنا قبل أن نبايعه!

- لقد عَهِد إليه معاوية "رحمه الله" بالأمر قبل وفاته، وأخذ له البيعة من وجهاء الشام.

- لقد صالح معاوية أخي الحسن "رحمه الله" على ألا يعهد إلى أحدٍ بعده بالخلافة، فعهد معاوية إلى يزيد باطلٌ.

احتدَّ مروان قائلًا: إنما تريد أن تُثير الفتنة بين الناس لتستأثر بالأمر وحدك.

- ما كنت مثيرًا للفتنة، وما ينبغي هذا لمثلي، وما أريد من هذا الأمر شيئًا، لكنني لن أرى سنة جدي تُخالف، وعهد أخي يُنتَقض ولا أفعل شيئًا.

- فإن كان الأمر كما تقول يا حُسَين فخلِّ بين الناس وبيعتهم.

- ما كان ليزيد أن يتولى هذا الأمر وفينا صحابة رسول الله .

- وهل هناك ما يجعل هذا الأمر حِكرًا على صحابة رسول الله دون غيرهم!

- إنما يتولى أمور الناس مَن هو محمود السيرة، مأمون الجانب، خبير بالسياسة والحُكم، وإنك لتعلم أن يزيد ليس من هذا بشيء.

- لا تتحدث بسوء عن أمير المؤمنين.

قام عبد الله بن العبَّاس قائلًا: يا مروان، قد جادلت الرجل فأكثرت جداله، فدعه يُكلِّم الناس كما كلمتهم أنت، وليترك كل منكما الأمر للناس.

- إنما يريد أن يطعن في أمير المؤمنين يزيد، ويُعلي قدر نفسه، فيميل الناس إليه.

- لا تدَّعي محبة يزيد يا مروان، إنما تريد هذا الأمر لنفسك، وما عزلك معاوية عن المدينة إلا لعلمه بما يحيك في صدرك.

ارتبك مروان من كلام ابن العبَّاس، فاستغل الحُسَين هذه الفرصة، وصعد منبر الرسول ﷺ، وأحاط بنوه وإخوته بالمنبر. سكت الحُسَين دقيقةً بعد أن صعد المنبر، أخذ يُقلِّب النظر في هذه الوجوه الشاخصة إليه، إلى أن هدأ الجميع، وأنصتوا إليه، فأخذ نفسًا عميقًا ثم قال: "أيها الناس، إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور،

أما بعد، فإني لم أخرج من بيتي طامعًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي.

إن رسول الله لم يوصِ لأحدٍ من بعده، إنما ترك الأمر شورى بين المسلمين، "وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ"، وإن معاوية قد صالح أخي على ألا يستخلف أحدًا من بعده، وأن يترك الأمر شورى بين المسلمين، فبأي حقٍ يأخذون منّا البيعة ليزيد عنوةً! وبأي حقٍ يتوارثوننا أميرًا بعد أمير! أتّخذوا عهدًا عند الله وعند رسوله!

إنني لا أدعوكم لنفسي، فما أنا براغب في هذا الأمر الذي قُتِل فيه أبي وأخي، إنما أدعوكم إلى الشورى، وإن فيكم من صحابة رسول الله ﷺ مَن هو جدير بالأمر، فأجمعوا أمركم، واتّبعوا سنة نبيكم، والسلام".

أنهى الحُسَين خطبته، ثم نزل عن المنبر، ووقف بين إخوته وبنيه.

عمَّ الصمتُ المسجد بعد كلام الحُسَين، وأخذ الناس يتبادلون النظر لبعضهم البعض دون كلام.

قال مروان هازئًا: يبدو أن أحدًا لم يتأثر بكلامك يا حُسَين، ثم التفت إلى الناس قائلًا: هلمّوا إلى بيعة أميركم يزيد. لكن أحدًا لم يُجبه. ظهر الغضبُ على وجه مروان، وقال للحُسَين: فرَّقت جماعة الناس، وأفسدت عليهم أمرهم، لو أن الأمر بيدي لسجنتك أو قتلتك يا حُسَين.

هاج الناس بعد كلام مروان، ورفع العبَّاس بن علي بن أبي طالب سيفه هادرًا: أنت تقتل أخي! افعلها إن استطعت.

ارتفعت السيوف، وكاد الناس يقتتلون، لكن عبد الله بن عمر وقف بين الفريقين قائلًا: اتقوا الله، واحترموا حرمة مسجد رسولكم، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ".

ثم التفت إلى مروان قائلًا: إني كنت أكره الناس لهذا الموقف، لكن بأي حق تريد أن تسجن الرجل أو تقتله في مسجد جده!

التفت مروان إلى الوليد بن عتبة قائلًا: ألم يأمرك أمير المؤمنين بأخذ البيعة منهم أخذًا شديدًا لا رخصة فيه!

فتململ الوليد، ونظر إلى مروان بغضب.

فقال ابن العبَّاس: إنما تريد أن تسعى في دماء بني هاشم يا مروان، لو أن الناس يريدون مبايعة يزيد للبوا نداءك، وما أنت بغاصبٍ أهل المدينة على شيء لا يرضونه. ثم التفت إلى الوليد قائلًا: يا وليد، إنك رجلٌ حكيمٌ، أرسِل إلى يزيد، وأخبره أن أهل المدينة لا يعيبون عليه شيئًا إلا أنهم يريدون أن يحتكموا إلى سنة نبيهم في الشورى.

حاول مروان الاعتراض، لكن الوليد نهره قائلًا: كفى يا مروان، الحق ما قال ابن العبَّاس، وإني مُرسِل إلى يزيد، فناظرٌ ما يقول. ثم التفت الوليد إلى الناس قائلًا بحزم: أليس لديكم أعمالٌ تقومون بها! فليذهب كلٌ منكم إلى عمله إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

بدأ الناس في الانصراف، واقترب ابن العبَّاس من الحُسَين هامسًا: إني لأرى يزيد عازلًا الوليد، ومُرسلًا أحد جبابرة بني أمية، ولا أراه يولى مروان؛ لأنه يعلم ما في نفسه من تطلُّع للأمر، فإن استطعت أن تأخذ المدينة قبل أن يحدث هذا فافعل.

ثم أنهى كلامه قائلًا: لا تأمن على نفسك من الغرباء هذه الأيام، وانتبه لطعامك وشرابك، ولا تنسَ ما حدث لأخيك الحَسَن "رحمه الله" نظر الحُسَين لابن العبَّاس نظرةً شاكرةً، ثم التفت إلى بني هاشم قائلًا: ليعد كل منكم إلى داره، ولتنتبهوا إلى الغرباء والدخلاء. ثم نظر إلى أخويه العبَّاس ومحمد بن الحنفية، ففهما أنه يريد منهما اتِّباعه إلى بيته.

* * *

دخل الوليد داره غاضبًا يتبعه مروان صارخًا فيه: عصيتني ثانيةً، لتكونن نهاية حكم بني أمية على يديك.

- ماذا كنت تريدني أن أفعل! هل تريدني أن أقتل الرجل عند منبر جده! أم أحارب أصحاب رسول الله!

- نعم حاربهم! هؤلاء قد خرجوا على أمير المؤمنين، وشقوا عصا الجماعة، فيجب أن نحاربهم حتى يعودوا إليها.

- لكنني لن ألقى الله بدم أصحاب رسوله وحفيده يا مروان.

- إنك ضعيف، ولست جديرًا بمكانك هذا خاصةً في هذه الظروف الحرجة.

قالها مروان، ثم خرج صافعًا الباب خلفه، وقد عزم أن يتولى الأمر بنفسه.

* * *

دخل الحُسَين داره، وجلس معه أخواه، فقال لهما: أنتما أقرب إخوتي إليّ، فأما أنت يا محمد فلك حكمة أبي وفطنته، وأما أنت يا عبَّاس فلك شجاعته وإقدامه، وإني أحتاج كلاكما، فهل أنتما معي؟

قال محمد: أنت كبير آل عليّ وبني هاشم، وقد أوصاني أبي باتّباعك أنت وأخينا الحسن "رحمه الله".

وقال العبَّاس: لو خُضتَ البراري والبحار، وليس معك إلا رجلٌ واحدٌ لكنت أنا.

قال الحُسَين: فإني قد عزمت على مجاهدة الظالمين.

قال محمد: فإني أنشدك بالله ألا تبدأ بقتالهم إلا أن يبدأوك.

- بالتأكيد يا أخي، لكن يجب أن نكون على أتمِّ استعداد، وسأحتاجك في مراسلة الأمصار والقبائل. ثم التفت للعبَّاس قائلًا: أريدك أن تأخذ جماعة من أشد الشباب والموالي؛ لتكونوا عينًا لي على طُرُق المدينة، فلا يخرج أو يدخل أحدٌ إلا بعلمنا، استعدا جيدًا؛ الأيام القادمة صعبة.

* * *

مرَّ اليومان التاليان وسط حالة من الترقب، فكان الحُسَين لا يتحرك إلا في جماعة من مواليه، وكذلك كان يفعل مروان والوليد، وقد حاول ابن عمر وعبد الله بن جعفر التوسط بين الفريقين إلا أنهما فشلا؛ فقد خرج الأمر عن السيطرة "[1]".

كان الحُسَين يجلس في بيته بين بعض أهله بعد صلاة العشاء عندما سمع صوت طرقات على الباب، فقام ابنه علي الأكبر ليفتح الباب، فوجد عمه العبَّاس واقفًا ومعه عدد من الموالي، فأذن لهم بالدخول.

قام الحُسَين قائلًا: ما الأمر يا عبَّاس؟

- لقد أمسكنا بهذا الرجل وهو يتسلل خارجًا من المدينة، ووجدنا رسالة بين طيات ملابسه.

التفت الحُسَين للرجل قائلًا: من أنت؟ وما هذه الرسالة؟

قال الرجل مرتجفًا: أنا مولى سيدي مروان بن الحكم، ولا أعلم ما بهذه الرسالة؛ فأنا مكلف فقط بحملها.

- خذ الرسالة منه يا عبَّاس، واقرأها.

فتح العبَّاس الرسالة، وقرأها: "من مروان بن الحكم إلى أمير المؤمنين يزيد، أما بعد، فإن أهل المدينة قد أبوا بيعتك، وقد تزعَّمهم الحُسَين بن علي، وقد تراخى الوليد معهم، وإني لك ناصحٌ

أمينٌ كما كنت لأبيك، فإن أردت أرسلت جيشًا إلى المدينة فيقاتل أهلها حتى يبايعوا، والسلام".

غضب الجميع إلا أن الحُسَين أمرهم بالهدوء، ثم التفت لأحد مواليه قائلًا: احبس هذا الرجل عندك، وأحسِن إليه. ثم انزوى بالعبَّاس في أحد أركان البيت، وقال له: شدد الحراسة على مداخل المدينة، ولتكن على رأسهم. ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل، وقال له: اجمع مَن تقدر عليه من الرجال، ولتأخذوا أسلحتكم، وقسّمهم إلى فرق، تذهب كل فرقة إلى بيت من بيوت بني أمية وتحاصره دون أن تنتهك حرماته، ولتكن أنت على رأس المحاصرين لبيت مروان، وسأذهب لبيت الوليد، لم يعد لبني أمية مقام في المدينة.

خرج الحُسَين على رأس أحد الفرق ذاهبًا لبيت الوليد، أمرهم بالوقوف حول البيت بمسافةٍ، وألا يدخلوا إلا بإذنه، حاول ابنه علي الأكبر إقناعه بالدخول معه إلا أنه رفض، طرق الحُسَين باب البيت ففتح الوليد الذي أوجس خيفةً عندما رأى قوات الحُسَين، فأراد الحُسَين طمأنته قائلًا: لا تخف يا ابن العم، إنا لا ننقم شيئًا عليك، لكن جئنا إليك بشأن هذه. وأعطاه الحُسَين رسالة مروان. قرأها الوليد فاحمرَّ وجهه غضبًا ودهشةً، ثم قال للحُسَين: أقسم لك أنني لا أعرف شيئًا عن هذا، وأني لم أرَ مروان منذ ما حدث في المسجد.

- أعلم يا وليد، لكن وجود مروان وحلفائه من بني أمية في المدينة صار خطرًا.

- فهمت، تريدوننا إذًا أن نخرج.

- هذا أفضل للجميع؛ تجنبًا للصدامات.

- لا أظن أنه صار بإمكاننا تجنُّب الصدامات في هذه المرحلة.

- لو أنك تستطيع إقناع يزيد بالشورى فبإمكاننا تجنُّب الصدامات.

- لم يعد لي من الأمر شيء، وإني متأكدٌ أن يزيد لن يُبقيني في مكاني على أي حال، فهذا ابن عمي وأنا أعرف طباعه جيدًا.

- يا وليد، إنك رجلٌ صالح، ونحن لم نرَ منك إلا الخير، فلو أنك أردت البقاء معنا.

- بل سأعتزل الأمر برمته يا حُسَين، فليس بإمكاني أن أقاتل حفيد رسول الله وأصحابه، وليس بإمكاني أن أقاتل قومي، ليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا.

- فلتصحبك السلامة يا أخي.

كانت تلك الليلة مشهودة، فقد وقف أهل المدينة بعد صلاة العشاء يشاهدون خروج

بني أمية وأعوانهم منها، ورغم أن هذا يُحسَب نصرًا سياسيًا لفريق الحُسَين إلا أنه كان حزينًا وهو يشاهد خروج هذه الأفواج من المدينة التي جاهد جده كثيرًا كي تدخل الوفود إليها.

اقترب ابن العبَّاس من الحُسَين قائلًا: يا ابن العم، نحن ضيوفٌ هنا على أهل المدينة، وإني أرى أن ننطلق إلى إخوتنا من الأنصار؛ ليكون أمرنا واحدًا.

- صدقت، هيَّا بنا ننطلق إلى عبد الله بن حنظلة، فهو سيد قومه.

طرق الحُسَين وابن العبَّاس باب دار ابن حنظلة، ففتح لهما وتهلل وجهه قائلًا: كنت أتوقع هذه الزيارة.

قال الحُسَين: عُذرًا على مجيئنا في هذا الوقت المتأخر، لكن الأمر لا يحتمل التأجيل.

- مرحبًا بحفيد الرسول وابن عمه في أي وقتٍ، تفضلا بالدخول.

بعد أن دخلا قال ابن العبَّاس: يا عبد الله، يا سيد الأنصار، أنتم أنصار رسول الله ﷺ، آويتموه وعززتموه ونصرتموه، وما كان رسول الله يقطع أمرًا دونكم، وأنتم أهل هذا البلد الطيب، وما كان لنا أن نقطع أمرًا فيه دونكم، وإنكم قد رأيتم ما حلَّ بالأمة من بلاء، وقد جئنا ليكون أمرنا واحدًا، فيلتئم أمر الأمة ثانيةً كما كان على عهد رسول الله.

قال عبد الله: يا ابن العبَّاس، قد قلت فأحسنت القول، إن كان أباؤنا قد نصروا رسول الله بالأمس، فإنا ننصر حفيد رسولنا اليوم، وقد سمعت مقالته في المسجد فوجدته قد أنصف القول، وقد كان عهدنا مع الخلفاء الراشدين "رحمهم الله" أن يكون منكم الأمراء ومنا الوزراء، فإنا اليوم نجدد هذا العهد معكم على أن تسيروا بكتاب الله وسنة رسوله. تهلل وجه الحُسَين وقال: ما رأيت أكرم منكم معشر الأنصار، وإني لأرجو أن أُدفن في بلدكم كما دُفن جدي.

خرج الحُسَين وابن العبَّاس من دار عبد الله متهللين فرحين إلا أن الفرح ما كان ليُنسي ابن العبَّاس حذره فقال للحُسَين: لم يبقَ أمامنا الآن إلا العائذ بالبيت.

- تقصد ابن الزبير؟

- نعم، إن ابن الزبير رجلٌ ذو بأس شديد، وهمةٍ عاليةٍ فإما أن يكون قوةً لك أو نقمةً عليك، وإني أخشى أن يُوغر بنو أمية صدره عليك ليوقعوا بينكما، فأرى أن تُرسل إليه بكتابٍ مع أحد الوجهاء، وليكن ابن الحنفية، فيجلس إليه ويسمع منه، فيكون أمركما واحدًا، فإن كان هذا، دانت لكما باقي الأمصار.

أسرع كلاهما إلى بيت ابن الحنفية فوجدوه ما زال مستيقظًا، فقال الحُسَين: يا أخي، إنا نريدك أن تذهب برسالةٍ إلى ابن الزبير في مكة؛ كي نوحد أمرنا، فماذا ترى؟

سكت ابن الحنفية قليلًا ثم قال: نِعم الرأي يا أخي، إن اتفق رأيكما كان ذلك فتحًا لكما، فما الرسالة؟

تناقش الثلاثة حول أفضل صيغة للرسالة إلى أن اتفقوا عليها، ثم قال الحُسَين لأخيه: تجنَّب الخلاف معه، وأقنِعه بتأجيل أمر الخلافة إلى ما بعد الخلاص من يزيد.

خرج ابن الحنفية من فوره متوجهًا لمكة. بعد أن ودّعا ابن الحنفية، قال ابن العبَّاس للحُسَين: سيأخذ وصول الأخبار إلى يزيد بالشام وقتًا، فيجب أن نستغله في تدعيم قواتنا حول المدينة، وتجهيز رجالنا.

- صدقت يا ابن العبّاس، جزاك الله خيرًا، فنعم الناصح أنت.

***

كان عبد الله بن الزبير يجلس في داره يتناقش مع أخيه مصعب بخصوص الخطوة القادمة عندما دخل عليهما أخوهما جعفر قائلًا: محمد بن الحنفية يستأذن بالدخول.
نظر مصعب لأخيه بدهشةٍ قائلًا: ما جاء بابن الحنفية إلى هنا! أدخله يا جعفر.

دخل ابن الحنفية فسلم عليهما ثم قال: أحمل رسالةً من أخي الحُسَين.

سلم الرسالة لعبد الله الذي فتحها قارئًا إياها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من الحُسَين بن علي إلى عبد الله بن الزبير، أما بعد، فإن بني أمية قد أظهروا الغدر، وأبوا إلا قتالنا، فقمنا بنفيهم من المدينة، وإنا نريد أن نوحد كلمتنا ثم ندعو الأمصار إلينا، فيُظهرنا الله على بني أمية، وإني قد أرسلت إليك بأخي وثقتي محمد بن الحنفية، فناظرٌ ما تقول، والسلام".

سكت عبد الله، وأطرق يُفكر ثم قال لابن الحنفية: هي الحرب إذًا.

- نعم يا ابن الزبير، رغم أننا قد حاولنا تجنّبها بكل الطرق.

- وهل بايعتم أميرًا لكم؟

- لا، فنحن نريد أن ننهي الأمر مع بني أمية أولًا ثم تكون الخلافة شورى بين المسلمين.

- لكن ماذا سنقول للأمصار عندما نُرسل إليهم؟ هل سنطلب منهم فقط الخروج على يزيد دون أن نخبرهم بالبديل! الناس لا يحبون الغموض.

- ربما من الأفضل أن نخبرهم أن صحابة رسول الله وأهل بيته هم من يقودون هذا الأمر بدلًا من تعيين شخصٍ بعينه قد يُرضي البعض، ولا يُرضي البعض، نحن نحتاج لدعم كل فرد في هذا الوقت.

أطرق عبد الله ثم قال: حسنًا، ومن سيتولى قيادة الجيوش؟

- هل تريد أن تتولاها؟

- اسمع يا ابن الحنفية، إني لست طامعًا في هذا الأمر، لكني قد قضيت أكثر من نصف عمري في الحروب، وأعلم جيدًا أن الفريق الذي يكون بلا قائد يُهزَم، ولا يمكننا أن نعتمد فقط على حُسن النوايا، أليس كذلك؟

- بالطبع.

تدخَّل مصعب في الحوار قائلًا: إن لي رأيًا كدت أعرضه على أخي قبل أن تدخل يا ابن الحنفية.

- وما هو؟

- أرى ألا نوحِّد جيوشنا في جيشٍ واحدٍ يسهل تطويقه وهزيمته، بل يكون لنا جيشان أو أكثر بحيث نستطيع تطويق جيش بني أمية في حال قرروا الهجوم على الحجاز، ويكون هناك تنسيق بين قيادات الجيوش.

عمَّ الصمت لدقيقةٍ ثم قال عبد الله: رأي صائب يا أخي.

وقال ابن الحنفية: نِعم الرأي هو، إذًا فمن سيتولى قيادة جيشكم؟

قال عبد الله: سأتولى قيادته بنفسي، وسيحمل أخي مصعب الراية.

- وسيتولى الحُسَين قيادة جيش المدينة، وسيحمل أخي العبَّاس الراية.

- نِعم الاختيار، فالعبَّاس شابٌ شجاعٌ.

- هناك أمرٌ آخرٌ يجب أن ننتبه له، الخوارج.

- الخوارج! وما لهم! لقد هدأ نشاطهم كثيرًا، وأظنهم قد انتهوا.

- لم ينتهوا، أنا أعلمهم جيدًا، لقد قتلوا أبي، وطعنوا أخي الحسن، يجب أن ننتبه لهم، ونتأكد من خلو جيوشنا منهم؛ حتى لا يحدث مثلما حدث بين أبي وأبيك يوم الجمل، أليس كذلك؟

- صدقت يا محمد.

- إذًا فقد اتفقنا؟

- نعم، اتفقنا، ولنترك أمر اختيار الخليفة إلى أن ننتهي من بني أمية، ليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا.

***

كان يزيد جالسًا في قصره بدمشق غارقًا في أفكاره. لماذا تأخّر رد الوليد حتى الآن! هل هرب الثلاثة نفر منه، ولم يقدر عليهم! لعلهم لم يبايعوا فقتلهم أو سجنهم! لا، أنا أعرف ابن عمّي جيدًا، هو لا يحب سفك الدماء، لذلك أفكر في عزله؛ فهذه المرحلة تحتاج للشدة.

فجأة سمع صوت طرقات على الباب، فقال: ادخل.

دخل الخادم قائلًا: مولاي أمير المؤمنين، سيدي الوليد بن عتبة وسيدي مروان بن الحكم يستأذنان بالدخول، ومعهما جمعٌ من الناس. انتفض يزيد من مكانه... كيف يتركون المدينة، ويأتون إلى هنا!

صاح في الخادم: أدخلهم فورًا.

خرج الخادم مُسرعًا، ثم دخل الوفد.

بمجرد أن رآهم يزيد صاح فيهم: ماذا تفعلون هنا! وكيف تتركون المدينة!

قال مروان مندفعًا: لقد استولى الحُسَين ومن معه على المدينة، وأخرجوا من بها من بني أمية.

صاح يزيد: وكيف يفعلون هذا!

ثم التفت إلى الوليد صائحًا: ألم آمرك أن تأخذ البيعة منهم أخذًا شديدًا لا رخصة فيه!

تململ الوليد قائلًا: لقد أبوا البيعة، وكاد القوم يتقاتلون في مسجد رسول الله.

قال مروان: لقد نصحته أن يحبس الحُسَين حتى يبايع فعصاني.

كاد الوليد يرد عليه فصاح يزيد: كفى، لا مزيد من الشجار هنا، لولا حاجتي لكما لضربت أعناقكما.

صاح يزيد: أيها الخادم.

دخل الخادم مرعوبًا قائلًا: أمرك مولاي أمير المؤمنين.

- ابعث إلى عبيد الله بن زياد ومسلم بن عقبة والحصين بن نمير وعُمر بن سعد وعمرو الأشدق وابني معاوية أن يأتوا إلى هنا فورًا، هيّا.

قال الخادم: "أمرك مولاي" ، ثم خرج سريعًا.

نظر يزيد لمن حوله بغضبٍ ثم قال: يجب أن ننتهي من هذا الأمر سريعًا قبل أن يستفحل. ثم التفت مواجهًا للحائط، وقال لنفسه: لو أن لي أعوانًا كأعوان أبي مثل عمرو بن العاص وزياد بن أبيه ما كان هذا حالي.

***

جلس يزيد على كرسيه، وجلس أمامه رجاله المقربون.

قال يزيد: نحن الآن أمام حالة خروج على طاعة أمير المؤمنين، ولم يكتفِ المتمردون بعصيان الأمر بالبيعة، بل طردوا ممثلي أمير المؤمنين من مكة والمدينة، فلم يبقَ أمامنا الآن إلا الحرب. قاطعه ابنه معاوية قائلًا: عُذرًا يا أبي، لكن هؤلاء هم أصحاب رسول الله وأهل بيته، فكيف نحاربهم! وكيف تقتحم جيوشنا مكة والمدينة التي حرمهما الله!

- إنما الوزر عليهم يا بُنيّ، فهُم قد خرجوا على أمير المؤمنين، أم تريد مني أن أجلس في بيتي حتى يأتي المتمردون إلى داري ويقتلوني بين أهلي كما فعلوا بعثمان!

- يا أبي، إنما فعل الخوارج ذلك أما أصحاب رسول الله فما هذا لهم بخُلُق.

- أراك قد أخذت صفهم يا معاوية.

- يا أبي، إني لا أقدر أن أحارب أصحاب رسول الله، ولا أقدر أن أحارب أهلي، لو أنك أرسلتني إليهم فأفاوضهم.

- لا مزيد من النقاش يا معاوية، لقد اتخذت أمري، وإنما اجتمعنا اليوم لنضع خطة الحرب، نريد أن نختار لقتالهم أشد الناس عليهم.

قال عمرو الأشدق: أما عبد الله بن الزبير فلن تجد أحدًا أشد عليه من أخيه عمرو بن الزبير.

وقال عبيد الله بن زياد - والي الكوفة -: وأما الحُسَين فلن تجد أحدًا أشد عليه من شمر بن ذي الجوشن، فقد كان مع عليّ في صفين ثم انقلب عليه مع من انقلب في النهروان، وهو من أكره الناس لعليّ وآله.

قال يزيد: حسنًا، فليتوجه الجيش إلى منطقة تبوك، وهناك ينقسم إلى قسمين: جيش بقيادة عمرو بن الزبير ومسلم بن عقبة يتوجه إلى مكة لقتال ابن الزبير، وجيش بقيادة شمر بن ذي الجوشن وعُمَر بن سعد إلى المدينة لقتال الحُسَين.

ثم توجَّه بالكلام نحو ابن زياد قائلًا: وأنت يا ابن زياد، انتبه جيدًا لأهل الكوفة، فإن فيهم أنصارًا لعليّ والحُسَين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم،

"وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِما رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ" ، أيها الناس، إن ربكم قد أرسل إليكم نبيه ليخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وإن نبيكم قد مات دون أن يوصِ إلى أحدٍ بالأمر بعده، وإن أولى عُرى الإسلام نقضًا هي الحُكم ثم تتبعها باقي العُرى إلى أن يعود الإسلام غريبًا كما بدأ غريبًا.

أيها الناس، إن قومًا قد خالفوا سنة نبيكم، وأرادوا أن يتوارثوا الخلافة فيما بينهم، وإن صحابة رسول الله وأهل بيته يدعونكم إلى الشورى، فهلمّوا إليها، ولا تتركوا القوم يتوارثونكم كما يتوارثون الأنعام، فمن أراد منكم العودة إلى الشورى، فليُخرِج عامل يزيد مِن مدينته، والسلام.

بعد أن تمَّ الاتفاق بين الحُسَين وابن الزبير، انطلقت رسائل أهل مكة والمدينة تنتشر كالنار في الهشيم في كل الأمصار، وانطلق الدعاة من كل حدب وصوب وعلى منابر الجوامع يدعون الناس للوثوب إلى الشورى، ولرفض بيعة يزيد، وإخراج عامله من مدينتهم، وفي الوقت ذاته يدعون الجميع لضبط النفس، وعدم القتال إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. إلا أن التحذير الأخير لم يمنع حدوث بعض المناوشات بين الرافضين لبيعة يزيد والمؤيدين لها، وقد وصلت أخبار هذه المناوشات إلى الحُسَين وابن الزبير فاتفقا على التعجيل بالمواجهة مع يزيد لإنهاء الأمر.

وهكذا توالت أخبار خروج بعض الأمصار من طاعة يزيد، ومبايعتهم لأصحاب رسول الله وأهل بيته. كانت أول الأمصار خروجًا عن طاعة يزيد هي الكوفة، حيث استغل

أهلها ذهاب أميرها عبيد الله بن زياد إلى دمشق للاجتماع مع يزيد، فطردوا نائبه، ثم تبعتهم البصرة، وأرسلوا برسولٍ إلى المدينة؛ ليخبر الحُسَين برغبتهم في الانضمام إليه في المدينة إلا أنه أشار عليهم بالبقاء في بلادهم إلى أن يأتيهم الأمر بالتحرُّك. كما خرجت اليمن عن طاعة يزيد؛ لوجود الكثير من أتباع علي بن أبي طالب بها، وانضم أهلها إلى أهل مكة والمدينة. بينما احتقن الوضع في مصر، ولم يقدر أحد الفريقين على إقصاء الآخر. أما الشام فظلَّت على عهدها مع يزيد؛ لنفوذ بني أمية فيها.

وقد كان موقف الخوارج من الحُسَين ويزيد مثل موقفهم من عليّ ومعاوية، فقد رفضوا كليهما، واستغلوا الفوضى التي ضربت البلاد، واتَّجهوا نحو خراسان؛ ليحاولوا تأسيس دولتهم بها. حاول البعض مثل عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عُمَر ومعاوية بن يزيد إنهاء هذا الخلاف وديًا إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، فقد أصرَّ كل فريق على رأيه، وخرجت الأمور عن السيطرة في جميع الأمصار.

***

تسرَّبت أخبار تجهيز يزيد لجيشٍ كبيرٍ للتوجّه نحو مكة والمدينة، فأرسل بعض معارضي يزيد في دمشق إلى مكة والمدينة يُخبرون الحُسَين وابن الزبير بهذا الأمر ليأخذوا حذرهم. وقف الجيش الأموي بكامل جاهزيته أمام قصر الخلافة في دمشق، ووقف يزيد على رأس الجيش يودّعه. انزوى يزيد بشمر بن ذي الجوشن جانبًا ثم قال له: يا شمر، إني قد اخترتك لقيادة هذا الجيش لِما سمعت عنك من الشجاعة والقسوة والبُغض لآل عليّ، فإن أنت أتممت مهمتك على أكمل وجه وليّتك أية إمارة تختارها.

أحنى شمر رأسه أمام يزيد قائلًا: لن تندم على اختيارك لي يا أمير المؤمنين، ولن أعود لك إلا برؤوس المتمردين.

وهكذا انطلق الجيش الأموي بقيادة شمر بن ذي الجوشن الذي جعل على ميمنة الجيش عُمَر بن سعد ومسلم بن عقبة وعلى الميسرة عمرو بن الزبير والحصين بن نمير متجهًا نحو مدينة تبوك للاستراحة قليلًا قبل انقسام الجيش إلى فريقين، والانطلاق نحو مكة والمدينة. كان المشهد مهيبًا، آلاف الفرسان يمتطون أحصنتهم يتقدمهم حاملو الألوية وكتيبة الرماة، بينما تنتصب خلفهم المجانيق الشاهقة التي تنتظر الأمر لتُمطِر الأعداء بالحجارة. وفي الوقت نفسه انطلق جيشٌ من مكة بقيادة عبد الله ومصعب ابني الزبير، فقد اتفق رأي أهل مكة على الخروج لملاقاة الجيش الأموي خارج مكة؛ حتى لا تتحول المدينة المحرمة لساحةٍ للقتال، وأيضًا حتى لا يتعرضوا للحصار داخلها.

كان عبد الله بن الزبير على رأس جيشه، بينما أخوه مصعب يحمل اللواء، وجعل على الميمنة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وعلى الميسرة عبد الله بن صفوان بن أمية، بينما ترك على مكة المسور بن مخرمة أميرًا في حاميةٍ قليلةٍ. كان شمر يجلس في خيمته مع باقي القادة للاتفاق على خطة حصار المدينتين المقدستين عندما دخل

أحد الجنود مهرولًا قائلًا: أيها القائد، هناك جيشٌ يقترب منَّا، هم عند الجبل الآن. هبَّ شمر واقفًا، وقال لقادته: خذوا أماكنكم، وانتظروا الأمر بالهجوم.

وقف جيش أهل مكة أمام الجبل دون أن يحركوا ساكنًا، كان عددهم أقل بكثير من الجيش الأموي. وقف شمر على رأس جيشه ناظرًا لجيش مكة بارتياب، فاقترب منه مسلم بن عقبة قائلًا: هل نصدر أوامرنا للمجانيق بقذفهم بالحجارة أو للرماة برميهم بالسهام؟

- هم على مسافةٍ بعيدةٍ، ولن تصل إليهم الحجارة أو السهام، هناك شيءٌ غريبٌ، ما لي أراهم ساكنين كأن على رؤوسهم الطير!

- بالتأكيد خافوا من مشهد قواتنا، خاصة المجانيق.

- لا أظن، لم نعرف عن ابني الزبير خوفًا من قبل، الأمر لا يُطمئِن، ولماذا لا أرى الحُسَين معهم!

- ربما اختلف مع ابن الزبير.

- أو ربما هناك حيلة، من الأفضل ألا نُبادر بالهجوم.

- لكن عددنا أكبر بكثيرٍ من عددهم.

- فلننتظر قليلًا إلى أن نتبيَّن أمرهم، مُر القوات أن تكون على أتمِّ الاستعداد للهجوم في أي وقتٍ.

وهكذا مرَّ اليوم الأول بدون قتالٍ، وعندما جاء فجر اليوم التالي أمر شمر أن تقوم المجانيق بقذف بعض الحجارة باتجاه جيش مكة لإخافتهم حتى لو لم تصل الحجارة إليهم، إلا أن جيش مكة ظلَّ كما هو دون حراك، وهو ما أثار حنق قادة الجيش الأموي.

اقترب عُمَر بن سعد من شمر قائلًا: الوقت ليس في صالحنا، عمَّا قريب سيُرسل أمير المؤمنين مَن يستجلي الأخبار له، وسيغضب كثيرًا إذا علم أننا لم نتقدم خطوة واحدة حتى الآن، أيًّا كان سبب سكونهم هذا، فعددهم أقل بكثير من عددنا كما أنهم لا يملكون مجانيقًا على العكس منّا، ينبغي أن نتحرَّك. سكت شمر قليلًا ثم قال لعُمَر: حسنًا، فلننتظر عند بزوغ أول ضوء للفجر غدًا ثم نهجم عليهم بغتةً.

بمجرد أن بزغ الفجر، وقف شمر أمام جنوده قائلًا: اقتلوا قادة المتمردين في أسرع وقتٍ، ومن يأتِ برأس الحُسَين أو ابني الزبير فله مكافأةٌ ذهبية ضخمةٌ مني ومكافأة أخرى من أمير المؤمنين. ثم صرخ فيهم بأعلى صوتٍ: اقتلوهم. اندفع جنود الجيش الأموي بكل قوة باتجاه جيش أهل مكة الذي فرَّ للخلف نحو الجبل بأقصى سرعة.

عندما رأى شمر هذا المشهد شعر بالقلق؛ فأهل مكة ليس معروفًا عنهم الجُبن والفرار، ثم لَمَح شيئًا يتحرك من خلف الجبل، فصرخ في جنوده: توقفوا! توقفوا! إنه فخ. لكن ضاع صوته وسط جَلَبة الجنود والفرسان. فجأة انطلقت موجةٌ من السهام من خلف الجبل باتجاه الجيش الأموي، فسقط العشرات من الجنود بين قتيلٍ ومصابٍ. بعدها اندفعت قوات أهل المدينة ومَن معهم من أهل اليمن من خلف الجبل الذي كانوا يختبئون وراءه انتظارًا لهذه اللحظة، وأخذوا الجيش الأموي على حين غرة، فحصروهم بينهم وبين جيش أهل مكة. ارتفعت الصيحات والتكبيرات من كل مكان، وارتجَّت الأرض تحت أقدام الجنود، وملأ الغبار سماء المعركة.

كان الحُسَين على رأس الجيش، وبجانبه أخوه العبَّاس حاملًا اللواء، بينما كان على ميمنة الجيش مسلم بن عقيل، وعلى الميسرة علي الأكبر بن الحُسَين، وترك على المدينة عبد الله بن حنظلة أميرًا. كانت المعركة رهيبةً، آلاف الرجال بين راجلين وفرسان يتبادلون ضربات السيوف بكلِ سرعةٍ وقوةٍ، رماة قوات مكة والمدينة فوق الجبل يُمطرون جنود الجيش الأموي بوابلٍ من السهام، وهو ما تسبب في ميل كفة المعركة باتجاههم، وهو ما لاحظه شمر، فأصدر أمره لكتيبة المجانيق بقصف الجبل بمن فوقه من الرماة، فانطلقت الحجارة تدك الجبل، وسقط العشرات من الرماة قتلى، وهو ما أجبر الباقين على النزول من فوق الجبل، فعادت كفة المعركة للتوازن بين الفريقين مرةً أخرى.

كانت تعليمات شمر لجنوده قبل المعركة واضحةً بقتل الحُسَين وابني الزبير، لذلك فقد أخذ عُمر بن سعد وعمرو بن الزبير مجموعة من الفرسان للإحاطة بابني الزبير وقتلهما، بينما أخذ مسلم بن عقبة والحصين بن نمير مجموعة أخرى لقتل الحُسَين.

ارتفعت أصوات المعركة، وغطى الغبار سماءها، سقط العشرات ثم المئات على الأرض بين قتيل وجريح، هجم الجنود الأمويون على الحُسَين لقتله فاحتشدت قواته

حوله للدفاع عنه، وكذا حدث مع عبد الله ومصعب ابني الزبير، وتكوَّنت دائرتان كبيرتان إحداهما حول الحُسَين، والأخرى حول ابني الزبير.

اشتدت الهجمة على الحُسَين، وبدأ الجنود الأمويون يخترقون الحجاز البشري المحيط به، واستطاع أحدهم النفاذ إليه فضرب قوائم فرسه فسقط الحُسَين على الأرض، وكاد الجندي يقتله إلا أن القاسم بن الحسن ألقى بنفسه عليه، وضرب كل منهما الآخر ضربةً فقتله، هبَّ الحُسَين واقفًا على قدميه، وسيفه بيمينه، فنظر لابن أخيه القتيل فثار غضبه، والتقط سيف ابن أخيه بيسراه، وصار يقاتل على قدميه بسيفين، وصاح في الأمويين: قتلتم ابن الذي أحسن إليكم، ولولاه ما وُلِّيتم من الأمر شيئًا.

انتفض مَن حول الحُسَين مِن جيش المدينة على وقع صيحته، فاندفعوا بكل قوةٍ نحو الجنود الأمويين المحيطين بهم، والتقط بعضهم سيوف المقتولين فصاروا يقاتلون بسيفين، بينما يوجِّهون الأحصنة بأقدامهم. قال فارسٌ للحُسَين: يا ابن رسول الله، خذ فرسي، فداك أبي وأمي.

فردَّ الحُسَين: ما كنت لأفتدي نفسي بأحدكم، اثبت على فرسك، بارك الله فيك.

كان مسلم بن عقبة على فرسه يهدُّ الناس بسيفه يمينًا ويسارًا، ويختار الفرسان الشجعان من جيش المدينة ليقتلهم؛ ليرفع بذلك من الروح المعنوية لجنوده، لكنه لم يلحظ الفتى الصغير الذي كان يسير ببطء نحوه، كان ذلك أبو بكر بن الحسن يريد الانتقام لأخيه، ظلَّ يتبرَّص به إلى أن انقضَّ عليه فجأةً فأسقطه من فوق فرسه، وضرب عنقه بالسيف صارخًا: هذا حقُ أخي القاسم، ومَن قتلتهم من فرسان عمِّي. وفي الوقت نفسه اشتدت الهجمة على ابني الزبير، فقد كان أخوهما عمرو يثير الناس ضدهما بشكلٍ كبير، وهو ما أثار حفيظة عروة والزبير ابني عبد الله، فاتفقا على الفتك بعمهما، فتسللا بين أرجل الأحصنة بحذرٍ، وانقضَّا بشكلٍ مفاجئ على عمرو الذي باغتته المفاجأة، فأخذ يضرب بسيفه كالممسوس يمينًا ويسارًا، فضرب عنق عروة الذي سقط صريعًا، وانقض الزبير على عمّه فغرس سيفه في قلبه، وصاح: "قُتِل عمرو بن الزبير"، فجاء رجلٌ من الأمويين من خلفه فضربه بالسيف على رأسه فقتله.

انتشر نبأ مقتل عمرو ومسلم في أرض المعركة انتشار النار في الهشيم، وهو ما كان له أثر في اضطراب جيش الأمويين، لاحظ شمر الذي كان يقف بين حراسه على مقربةٍ من المعركة هذا،

فخشي أن يتراجع الجيش، ولاحظ تركُّز القتال في دائرتين، فأيقن أن الحُسَين وابني الزبير فيهما، فأسرع إلى قائد كتيبة المجانيق آمرًا إياه: اقذف هاتين الدائرتين بالحجارة.

فغر قائد الكتيبة فمه مندهشًا ثم قال: سيدي، سنقتل إخوتنا هكذا.

- سيكونون شهداءً إذًا، اضرب.

التفت القائد نحو جنوده؛ حتى يُعطيهم الأمر، إلا أن رمحًا اخترق عنقه، فسقط صريعًا. التفت شمر ومَن معه إلى مصدر الرمح، فوجدوا جيشًا قادمًا من جهة شمال الشرق، فارتد سريعًا بمن معه ليلتحموا بباقي الجيش الأموي الموجود بأرض المعركة. قامت قوات الجيش المُهاجِم بإشعال النيران في المجانيق المنتصبة، فصارت نارًا عظيمةً التفت إليها كل مَن في أرض المعركة، فصاحت قوات مكة والمدينة: "الله أكبر". اقترب عُمَر بن سعد من شمر سائلًا برعب: من هؤلاء! ومِن أين أتوا!

نظر شمر إلى الجيش المهاجم ثم قال: هذه راية أهل العراق.

وجد الجنود الأمويون أنفسهم محصورين بين ثلاثة جيوش، فبدأ الكثيرون منهم بالانسحاب من أرض المعركة باتجاه الشام، فصرخ فيهم شمر: "اثبتوا أيها الجبناء" ، إلا أنها صوته ضاع وسط ضجيج المعركة. أيقن شمر أنه لا مفر من الموت أو الفرار، إلا

أنه لم يكن يقبل بالفرار، فعزم على إسقاط لوائهم؛ لإذلالهم حتى إن كان في ذلك موته، فاندفع بكل قوةٍ مَن ثبت معه من جنوده نحو حملة اللواء، واشتد القتال بين الجميع، واشتدت معه حرارة الشمس فوق الرؤوس، رأى شمر في جيش العراق رجلًا يعرفه جيدًا، إنه الحر بن يزيد الرياحي. فاندفع بقوةٍ تجاهه، والتحم معه قائلًا بغضب: ما جاء بك يا ابن يزيد! لقد كنت فينا قبل ذلك مرجوًّا. فقال الحر: والله ما إن علمت أن أهل مكة والمدينة من المهاجرين والأنصار وآل بيت الرسول قد اجتمعوا على أمرٍ إلا عرفت أنه الحق. فحمل عليه شمر بسيفه بشدةٍ، واشتد القتال بين القائدين الصارمين، واستمر فرار الجنود الأمويين من أرض المعركة، وسقط مَن ثبت منهم بين قتيل وجريح، فبقي شمر وحيدًا في أرض المعركة، حاول أحد جنود أهل العراق مساعدة الحر في قتاله إلا أن الحر قال له: لا والله، لا تقولنَّ العرب أني عجزت عن قتله بمفردي.

استمر القتال بينهما بُرهةً إلى أن تمكَّن الحر من ضرب ذراع شمر فسقط سيفه، ثم أتبعها بضربةٍ أطاحت برأسه، فسقط على الأرض صريعًا. علت التكبيرات في أرض المعركة، وجاء العبَّاس إلى الحُسَين قائلًا: مُبارك النصر يا أبا عبد الله.

- لا وقت للاحتفال الآن يا عبَّاس، يجب أن نُكمل ما بدأناه أولًا، هيَّا بنا إلى ابني الزبير.

أسرعا إلى ابني الزبير، فقال الحُسَين: حمدًا لله على سلامتكما، يجب أن نتتبَّع الجنود قبل أن يُعيدوا تنظيم صفوفهم مرةً أخرى.

قال عبد الله: فلنجمع قواتنا في جيشٍ واحدٍ، ونتتبّعهم إلى الشام.

لكن مصعب تدخَّل قائلًا: بل تعودان معًا إلى مكة أو المدينة؛ لتنظروا أمر الخلافة بأسرع وقت، بينما ترسلان جيشًا إلى الشام.

قال عبد الله: صدقت يا مصعب، فلتجمع كل قواتنا القادرين على القتال، واذهب أنت والعبَّاس بنصف القوات إلى الشام، وأحكِما السيطرة على الأمور هناك، وليكن أمركما واحدًا، وإياكما والخلاف أمام الناس. والتفت الحُسَين إلى القوات قائلًا: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، ومَن ألقَ السلاح فخذوه أسيرًا، وأكرموا الأسرى؛ فإنما هم إخواننا قد بغوا علينا، واجمعوا بني أمية في قصرهم بدمشق إلى أن يأتي أمرنا فيهم، وارفقوا بالوليد بن عتبة ومعاوية بن يزيد خاصة، انطلقوا على بركة الله.

انطلق العبَّاس ومصعب بالقوات نحو الشام، بينما أخذ الحُسَين يدور بين جثث القتلى، وهو يبكيهم، يبكي الجميع، أنصاره وأعداءه، ويطمئن على أصحابه وجنود جيشه، اقترب منه مُسلم بن عقيل، وهو يستند على سيفه من شدة إصابته، فأسنده الحُسَين قائلًا: استرح يا ابن العمِّ.

- هناك أمرٌ يجب أن تراه.

سار الحُسَين مع مُسلم إلى أن رأى جثمانًا مُسجَّى الأرض غارقًا في دمه، اقترب منه ببطء، وهو يشعر أن الدنيا تموج به، لقد كان هذا ابنه علي الأكبر. جلس الحُسَين على الأرض بجانبه، وأمسك رأسه برفقٍ، ووضعها على فخذه، وأخذ يمسح التراب والدم عن وجهه، ودموعه تنهمر على وجنتيه، ثم قال باكيًا: عزيزٌ عليّ يا بُني أن أراك مُجندلًا في التراب، إنك كنت صوامًا قوامًا بارًا بوالديك، ولا يسعني أن أقول إلا مثلما قال رسول الله، إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ربَّت مسلم على كتف الحُسَين قائلًا: لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى، قُم واسترح يا أبا عبد الله.

- لا وقت للراحة يا مُسلم، إن كان ابني قد مات، فإن هناك الآلاف من أبناء المسلمين الذين يجب أن أهتم بأمرهم.

- زادك الله صبرًا وثباتًا يا أبا عبد الله، لقد مات أيضًا عروة والزبير ابنا عبد الله.

قام الحُسَين وسار مع مسلم يُثبّتان الجنود، ويثنون عليهم، ويعزونهم في قتلاهم إلى أن وصلا إلى ابن الزبير، وهو جاثٍ على ركبتيه فوق جثمانيّ ابنيه، ويبكي بحرقةٍ، فربَّت الحُسَين على كتفه

قائلًا: أدعو الله أن يتقبَّلهما في الشهداء.

- لله ما أخذ وله ما أعطى، جازى الله مَن أوصلنا لهذه الحال بما يستحق. ثم استعاد ابن الزبير رباطة جأشه قائلًا: يجب أن ننتهي من أمر الخلافة سريعًا قبل أن يقفز عليها مَن في قلبه مرض، يكفينا ما سقط من القتلى.

- صدقت يا أبا خبيب، أرى أن نجمع رؤساء القوم فنذهب بهم إلى مدينة رسول الله وخلفائه الراشدين، فنجتمع بمَن فيها من المهاجرين والأنصار، فيكون أمرنا واحدًا.

- حسنًا قلت يا أبا عبد الله.

بعد أن تم دفن القتلى، أمر الحُسَين وابن الزبير بجمع رؤساء أهل مكة والمدينة واليمن والعراق المجتمعين في أرض المعركة للذهاب إلى المدينة لاختيار الخليفة، بينما تعود باقي القوات إلى بلادهم؛ حتى ينشروا أخبار النصر فيها، ويسيطروا على الأوضاع إلى أن تأتيهم الأنباء بالخليفة الجديد.

ورأى الحُسَين أن يُرسل مع أهل العراق ابن عمّه مُسلم بن عقيل؛ كي يحكم بينهم إلى أن يأتي الأمر بالخليفة الجديد، والولاة الجدد أيضًا.

***

كان مشهد دخول الجيش للمدينة المنورة مهيبًا، فقد سار الحُسَين وابن الزبير على رأس الجيش بينما يسير حملة الألوية بين يديهما، وقوات الجيش تسير بالخطوات العسكرية من خلفهما، وقد اصطحب الجيش معه أحد المجانيق الأموية المُدمرة دلالةً على الانتصار الساحق. وقد خرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم لاستقبال الجيش المنتصر في مشهدٍ أعاد للأذهان مشهد استقبالهم للرسول ﷺ قبل ستين عامًا تقريبًا.

كان على رأس المُستقبلين عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن العبَّاس الذي ما إن رأى الحُسَين عانقه قائلًا: حمدًا لله على سلامتك يا أبا عبد الله.

- سلَّمك الله من كل سوء يا أبا علي، ما لي لا أرى ابن عُمَر؟

- لقد قرر اعتزال الأمر نهائيًا كما فعل في الفتنة بين أبيك ومعاوية.

- فلننطلق إليه الآن مع ابن الزبير، فليس كل اعتزالٍ محمودًا.

أسرع الحُسَين وابن الزبير وابن العبَّاس إلى بيت ابن عُمَر تاركين الناس خلفهم بين فرحٍ بانتصارهم، وحزنٍ على قتلاهم.

فتح ابن عُمَر الباب لهم دون أن يتكلم، فقال الحُسَين: أعزلتك تمنعك أن تسلِّم علينا يا أبا عبد الرحمن؟ فسلَّم عليهم ثم أدخلهم الدار، ظلَّ الصمت قائمًا إلى أن قال ابن العبَّاس: يا أبا عبد الرحمن، إن الله قد قضى أمرًا، وكلُ أمر الله خيرٌ، وإن الأمة الآن على مُفترق طرقٍ، والناس في أمرهم متحيرون، وهم ينتظَرون من أصحاب رسول الله أن يكونوا نبراسًا لهم في هذا الليل المظلم، أفنعتزلهم ونتركهم لذئاب الطريق!

- يا ابن العبَّاس، إني لم أعتزل الناس لضعفٍ اعتراني، ولكني لم أُرِد أن يُراق دم مسلم بسببي.

- فإن الدماء قد أُريقت بالفعل، ولدينا الآن فرصة لحقنها، ومنع إراقة المزيد منها، لقد انتهى أمر يزيد، وينبغي أن نختار خليفةً قبل أن يحدث حادثٌ.

قال ابن الزبير: وقد جئنا بأكابر أهل مكة والمدينة والعراق واليمن؛ ليكون أمرنا واحدًا. سكت ابن عُمَر قليلًا ثم قال: فإن كان الأمر كذلك فليجتمع الناس غدًا في المسجد بعد فريضة الظهر، لننظر في أمرنا.

***

في اليوم التالي، وبعد أن أدَّى الجميع صلاة الظهر خلف أمير المدينة عبد الله بن

حنظلة، اجتمع كبار القوم في بيته لمناقشة أمر الخليفة، وقف ابن حنظلة قائلًا: أيها الناس، عندما مات رسول الله ﷺ، ورغم ما ألمَّ بالمسلمين من حزن إلا أن ذلك لم يشغلهم عن اختيار خليفةٍ له في نفس يوم وفاته، إن كل يوم يمرُّ على المسلمين بدون أميرٍ هو يوم هزيمة، فإننا قد اجتمعنا اليوم لاختيار أميرٍ جديدٍ للمؤمنين، وإن عبد الله بن عُمَر بن الخطاب هو أسنُّ القوم، وله هجرة وصحبة، وشهد مع رسول الله كل المغازي منذ يوم الخندق، ولم ينغمس في هذه الفتن، ولا يختلف عليه اثنان، وإني لأراه أحق الناس بهذا الأمر.

وقف ابن عُمّر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الرحمن، لكني قد عُرِض عليّ هذا الأمر حين كنت ذا بأسٍ فرفضته، أفأرضاه اليوم وأنا شيخٌ هَرِم!

قال ابن العبَّاس: فإن لم ترضَ به، فاختر له من تراه الأحق به.

- فأحمل وزره إن عصى الله! لا والله.

تدخَّل مصعب بن عبد الرحمن بن عوف قائلا: فافعل ما فعل أبي بعد مقتل عُمَر، تسأل الناس رأيهم عن الأنسب للخلافة، وتُحصي آراءهم، ثم تجمع الناس في المسجد، وتخبرهم بمن انعقدت عليه أغلب الآراء. لاقى هذا الرأي استحسان جميع الموجودين.

التفت ابن عُمَر للحُسَين وابن الزبير قائلًا: ما بالكما صامتَين! هل توافقان على هذا الرأي؟

قال الحُسَين: ما كنت لأُخالف ما اجتمعتم عليه.

وقال ابن الزبير: هذا أفضل للجميع، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أضاف أبو سعيد الخدري: لكن يجب أن نحصر الأمر في رجلين؛ حتى لا تتشعَّب آراء الناس، يختارهما كبار القوم الحاضرين ثم يسأل ابن عُمَر الناس عن أصلحهما، فيتولى مَن اجتمعت عليه أكثر الآراء.

قال ابن عُمَر: نعم الرأي أبا سعيد، أرى أن نفترق الآن، ونجتمع ثانيةً بعد صلاة العشاء، فيكون كل منكم قد عقد رأيه على رجلين يختارهما، ولا يكن اختياركم عن نسبٍ أو مصاهرة، بل اختاروا لهذه المهمة القوي الأمين.

تفرَّق القوم ثم عادوا إلى الاجتماع بعد صلاة العشاء، جعلهم ابن عُمَر يجلسون في فناء المنزل، وطلب منهم ألا يتبادلوا الحديث؛ حتى لا يتأثر أي منهم برأي الآخر، وأخذ ينفرد بكلِ واحدٍ منهم في زاوية البيت يسأله عن الرجلين، وعن سبب اختياره لهما. وعندما انتصف الليل كان ابن عُمَر قد أتمَّ مهمته بنجاحٍ، فقال لهم: انطلقوا على بركة

الله إلى أن يجتمع الناس في المسجد بعد فريضة الظهر لنخبرهم بأمر الرجلين.

في اليوم التالي، وبعد أن أدَّى الناس فريضة الظهر، قام ابن عُمَر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، لقد ذاقت هذه الأمة من الويلات والفتن ما شتَّت شملها، وأذهب ريحها، وقد قضى ربكم ألا تنهض هذه الأمة إلا إذا كانت على قلب رجل واحد، وإن هذا لن يحدث إلا بوجود أميرٍ يحكم فيهم بحكم الله ورسوله فيطيعوه، وقد اجتمع أهل الشورى، واختاروا رجلين نعلم دينهما وفضلهما: الحُسَين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وإني سائلكم عنهما، فأيهما انعقد عليه أكثر الآراء كانت له البيعة، فاتقوا الله في دينكم، واختاروا مَن ترضون دينه وأمانته، ولا تجعلوها عصبيَّة كعصبيَّة الجاهلية.

ثم التفت إلى الحُسَين قائلًا: يا حُسَين، إن آلت لك الخلافة، فاتقِ الله، ولا تحمل بني هاشم على رقاب الناس.

والتفت إلى ابن الزبير قائلًا: وأنت يا عبد الله، إن آلت لك الخلافة، فاتقِ الله، ولا تحمل بني أسد على رقاب الناس.

وعلى مدار الأيام التالية، كان ابن عُمَر يدور في الشوارع والأسواق، يسأل الناس عن رأيهم في الرجلين، وأيهما الأولى بالخلافة، وسبب اختياره له، وقد يُراجع الرجل في رأيه أكثر من مرة؛ حتى يتيقن منه، لم يترك أحدًا إلا أخذ رأيه حتى العبيد والأطفال الذين بلغوا الحُلم. وبعد أن أنهى مهمته، جمع الناس بعد فريضة الظهر، ثم نادى الحُسَين وابن الزبير، ووقف بينهما، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "يا حُسَين بن علي، ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وعلى سنة رسوله والخلفاء الراشدين"، فبسط الحُسَين يده، وكان أول مَن بايعه ابن عُمَر ثم ابن الزبير، ثم كبار القوم، ثم عامة الناس والجند. شعر الحُسَين كأن العالم يدور به، بالتأكيد هو ليس متفاجئًا من اختياره خليفةً للمسلمين، فمنذ الانتصار على بني أمية، وهو يدرك أن الأمر يقترب منه، لكنه عندما نظر في أعين الناس وهم يبايعونه، كان يرى فيها الترقُّب والأمل: الترقُّب لقراراته القادمة، والأمل في الحصول على بعض السلام بعد سنوات من الاقتتال والفتن.

بعد أن تمَّت له البيعة، قال له ابن عُمَر: قم فاخطب في الناس.

خطا الحُسَين خطوات متأنّية نحو المنبر، ثم صعد درجاته بهدوء، وبعد أن وقف على المنبر أخذ يقلّب نظره في وجوه الناس، ويتأمَّل ما فيها من قلقٍ وترقبٍ، فأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وشرّفنا بنور النبوة، وأنعم علينا بالشورى، أيها الناس، إني أكره الناس لهذه الفتنة الذي قُتِل فيها أبي وأخي وابني وابن أخي، وإني أحرص الناس على إنهائها، وإني أُشهِد الله وأشهدكم أني لا أحمل لأحدٍ حقدًا ولا ضغينةً، ولا

مريد بأحدٍ غيلة ولا غدرًا؛ فنحن أهل بيت لا يغدر، وأعهد إليكم أن يأمن الناس على أنفسهم حيث كانوا: في حجازهم وشامهم وعراقهم ويمنهم وما وراء ذلك،، وقد بلغني أن بعضكم يخشى أن تحملني مكانتي من رسول الله على رقابكم، ألا فاعلموا أن هذه المكانة لن تزيدني إلا خشيةً لله، واتباعًا لسنة رسوله، ورفقًا بكم، وإني لأرجو أن أكون خير خلف لخير سلف.

أيها الناس، إننا لم نصل إلى هذا الهوان إلا لأننا قد أُشرِبنا الدنيا في قلوبنا، ولم نضرب أعناق بعضنا البعض إلا لأننا تنافسنا الدنيا كما تنافسها الذين من قبلنا، وإني لأخشى أن تُهلِكنا كما أهلكتهم، لقد كنا قومًا ضالين يأكل القوي منّا الضعيف، ولا وزن لنا بين الأمم فأرسل الله إلينا نبيه بالهُدى ودين الحق فأخرجنا من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان، وأظهرنا على سائر الأمم، وعندما نسينا ديننا، أنسانا الله أنفسنا، وعُدنا إلى ما كنا فيه من الهوان والذلة والتشرذم، وإنه لا سبيل لعزتنا إلا بالعودة إلى سبيل الله وسنة نبيه، ألا فإني أبايعكم على أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه والخلفاء الراشدين، وألا أعهد إلى أحدٍ بالأمر بعدي، بل يكون شورى بين المسلمين، وأعطيكم على ذلك عهد الله وميثاق رسوله.

نزل الحُسَين من المنبر، فاقترب منه ابن العبَّاس قائلًا: يا أمير المؤمنين، مُبارك الخلافة، وأعانك الله عليها.

- جزاك الله خيرًا يا بن العم، لقد كنت دائمًا لي نِعم الأخ الناصح.

- هذا واجبي نحوك، وإني أرى أن تختار الولاة وتُرسلهم ليباشروا سلطتهم سريعًا، وأن تُرسِل بأمرك إلى مصعب والعبَّاس في بني أمية بالشام، وأن تجعل ابن الزبير عونًا لك؛ حتى لا يُوغر البعض صدره عليك، ويدَّعون أنك قد استأثرتك بالأمر دونه، ولا تستغنى بأصحابك عن أصحاب رسول الله.

- هذا ما كنت أفكر به يا أبا عليّ.

أرسل الحُسَين إلى كبار القوم وأصحاب رسول الله؛ كي يستشيرهم في أمر الولاة، وبني أمية المُحتجزين في الشام بحوزة مصعب والعبَّاس، اقترح البعض حبسهم بقصرهم في دمشق إلا أن ابن العبَّاس قال: إن وجودهم بالشام قد يُغري أتباعهم بالتمرد على الحُسَين. وبعد نقاشاتٍ طويلة تم الاتفاق على نفيهم إلى اليمن؛ فليس لهم بها أتباع، فأرسل إلى مصعب بن الزبير بالشام ليقوم بترحيل بني أميّة إلى اليمن. أما بخصوص الولاة فقد استمرت المشاورات ليومين؛ فقد كان الحُسَين حريصًا على إرضاء جميع الأطراف تجنبًا للفتن، وتجنَّب تعيين إخوته في الولايات؛ حتى لا يظن الناس أنه يريد أن يستأثر بالخلافة لأهله، وقد نصح ابن العبَّاس الحُسَين ألا يولي الشام لأحد من بني هاشم؛ حتى لا يغضب أهلها الذين ما زال الكثير منهم على عهدهم مع بني أمية. فاستقر أمرهم على تولية مصعب بن الزبير الشام، والمسور بن مخرمة مكة، والحر بن يزيد الكوفة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف مصر، ومسلم بن عقيل البصرة،

وأوصاهم أن يُحسنوا إلى الناس، ويرفقوا بهم.

ثم نظر الحُسَين إلى ابن الزبير قائلًا: ما بالك يا أبا خبيب، كلما عرضنا عليك ولاية أبيتها؟

- أرسلني إلى الثغور يا أبا عبد الله، لقد قضيت حياتي كلها غازيًا في سبيل الله، وأريد أن أنهيها غازيا.

- كما تشاء يا أبا خبيب، رغم أني كنت أريد أن أستفيد من حنكتك السياسية في تصريف أمور الدولة.

تسببت الحرب في إضعاف هيبة الدولة، وهو ما أغرى بعض الدول المجاورة بالهجوم على حدود الدولة الإسلامية، وكان من أبرز هذه الاعتداءات ما قامت به بعض القبائل في شمال غرب إفريقيا بالهجوم على المسلمين في المغرب، وارتكبوا مجزرة كبيرة بحقهم، فأرسل الحُسَين ابن الزبير في خمسة عشر ألف مقاتل لاسترداد الأراضي المنهوبة، وتأديب القبائل المعتدية، وقد جاء اختياره لابن الزبير لهذه المهمة بسبب اشتراكه في فتح هذه البلاد من قبل في عهد عثمان، ودرايته بها، وأمره أن يسترد الأراضي المنهوبة فقط دون التوغُّل في بلاد المغرب الأقصى؛ لأنه كان يرى ضرورة تنظيم أمور الأمصار الحالية قبل فتح أمصار جديدة.

ووصلت إلى الحُسَين أنباء إقامة الخوارج لدولةٍ في خراسان، فأمر أخاه العبَّاس أن يأخذ عشرة آلاف مقاتل، ويذهب فيدمر دولتهم، فتمكن العبَّاس من ذلك، وقتل الكثير من قادتهم إلا أن بعضهم استطاع الهرب خارج حدود الدولة الإسلامية.

ونظر الحُسَين إلى دواوين الدولة، فوجدها قد أُهملت بسبب الحرب، فعكف على إصلاحها وتطويرها، ونشر الأمن في ربوع البلاد، وهكذا قضى الحُسَين عهده في إجراء إصلاحات داخلية، واسترداد الأراضي المنهوبة بالكامل إلى أن أصابه المرض في أواخر أيامه، فأمر بجمع إخوته وأبنائه وأبناء إخوته، وأخذ عليهم العهد ألا يتولى أحدٌ منهم الخلافة بعده، وقد اقترح عليه بعض أهله أن يُدفَن بجوارٍ الرسول وصاحبيه إلا أنه قال: الله يعلم كم أتمنى هذا، لكني لا أريد أن أسبب فتنةً بين الناس، بل يبقون ثلاثةً لا رابع لهم، ادفنوني في البقيع بجوار أخي الحَسَن.

وقال له البعض: يا أمير المؤمنين، أوصِ بالأمر إلى أحدٍ بعدك.

- لا والله، لا أفعل ما أنكرته على غيري، بل أترك الأمر شورى بين المسلمين.

وهكذا استمرت دولة الحُسَين تسعة أعوام، استطاع فيها أن يُعيد الهدوء إلى الدولة الإسلامية التي عانت كثيرًا من الفتن.

ارتجَّت كافة الأمصار لوفاة الحُسَين، وبكاه الجميع حتى كان الناس يواسون بعضهم البعض بوفاته كأنه أحد أفراد أسرتهم. وبعد الفراغ من دفن الحُسَين، اجتمع كبار القوم لاختيار خليفةٍ، لكن المشكلة التي واجهتهم أن أغلب صحابة رسول الله قد توفوا، ومَن بقي منهم على قيد الحياة أصبح شيخًا هرمًا لا يقدر على صعاب الخلافة، فاستقر رأيهم على أن يتم اختيار الخليفة من بين ولاة الأمصار المشهود لهم بالكفاءة، وبعد الكثير من المشاورات، انحصر الأمر بين أمير البصرة مسلم بن

عقيل بن أبي طالب، وأمير الشام مصعب بن الزبير، فكل منهما مشهودٌ له بالكفاءة والحزم والشجاعة، لكن تم الاتفاق ألا يخلف الحُسَين أحدٌ من بني هاشم؛ حتى لا يقول البعض أنهم يسعون لتوارث الخلافة على غرار بني أمية، وبذلك صار مُصعَب بن الزبير أميرًا للمؤمنين.

كانت حنكة مصعب العسكرية التي ظهرت أثناء الحرب ضد بني أمية، بالإضافة للخبرة السياسية الكبيرة التي اكتسبها من ولايته للشام طوال فترة حُكم الحُسَين عاملين أساسيين في استقرار أمور الدولة الإسلامية في عهده، فلم يجرؤ أحدٌ على التمرُّد عليه حين تولى الخلافة، وهو ما أعطاه الفرصة لتوسيع دائرة الفتوحات التي توقَّفت زمنًا طويلًا، وإجراء العديد من التطويرات داخليًا.

اقترح عليه بعض قادته تسيير جيشٍ لفتح القسطنطينية عسى أن تصيبه بُشرى رسول الله، ورغم رغبة مصعب في ذلك إلا أنه كان فطنًا فقال لهم: يعلم الله كم أود هذا، لكن أخي عبد الله كان قد

غزاها في جيش يزيد أثناء حُكم معاوية، وأخبرني أن حصونها منيعة، وأسوارها عالية، حتى المجانيق لن تؤثر فيها، ولا داعٍ لإهلاك المسلمين فيما لا طائل منه، بل الأفضل أن أوجّههم إلى بلاد ما وراء النهر.

وهكذا أرسل مصعب جيشًا كبيرًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل لفتح بلاد ما وراء النهر، فتمكَّن الجيش بعد طول حصارٍ من فتح البلاد، وهو ما كان له أثرٌ كبيرٌ في عودة سمعة الدولة الإسلامية مرةً أخرى كقوةٍ كبرى في هذه المنطقة من العالم، أربك هذا الفتح الدول المجاورة التي لم تتخيَّل أن يعود المسلمون بهذه القوة بعد سنواتٍ من الفتن والحروب الداخلية، لذلك فقد اجتمعت القبائل في بلاد السند المجاورة في جيشٍ كبيرٍ، وقرروا الهجوم على الجيش الإسلامي المتواجد في بلاد ما وراء النهر.

كان الهجوم خاطفًا، ولم يكن الجيش الإسلامي قد استراح بعد من فتح بلاد ما وراء النهر، فتسبب ذلك في اندحار الجيش إلى الوراء وخسارته للكثير من الأراضي التي فتحها، وعندما وصل الخبر إلى مصعب أرسل إليهم مددًا يُقدَّر بعشرين ألف مقاتل، أمرهم مصعب باسترداد الأراضي التي خسروها، وفتح بلاد السند عقابًا لهذه القبائل على اعتدائها على المسلمين.

استطاع الجيش السيطرة على بلاد السند بأكملها بعد قتالٍ مرير حتى وصلوا إلى شمال الهند، وقد اقترح عليه بعض قادته الاستمرار حتى فتح بلاد الهند أيضًا، إلا

أنه رأى تأخير فتح الهند قليلًا؛ حتى يقوم المسلمون بتنظيم أمور بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند أولًا. طلب مصعب من قائده في البلاد الجديدة أن يخبره عنها، فأخبره أن أراضيها خصبة كثيرة الثمار، وهو ما دفع مصعب لإنشاء "ديوان الزراعة"؛ لتنظيم أمور الزراعة في كافة أنحاء البلاد.

ولاحظ مصعب أيضًا عدم وجود دار ثابتة للخليفة لممارسة مهامه، فقد كان النبي والخلفاء الراشدون يعتمدون على الجلوس بين الناس في المسجد للقيام بأعباء

الحُكم، فرأى أمر مصعب أن يقوم بإنشاء دارٍ بالقرب من المسجد تكون مقرًا للخليفة للقيام بأعباء مهمته، وأطلق عليها الناس "دار الخلافة".

وقد وجد مصعب أن اتساع رُقعة الدولة، أدى لازدياد أعداد المظالم بشكلٍ يصعب معه على الخليفة متابعة هذه المظالم بنفسه والفصل فيها، فأمر بإنشاء "ديوان المظالم" للفصل في مظالم الناس. والتفت للنظام الاقتصادي للدولة فوجده بدائيًا لا يتناسب مع دولةٍ كبرى، ولعل أبرز مثال على ذلك هو اعتماد الدولة على عملات منقوشة بلغاتٍ أجنبيةٍ، فأمر بسك عملةٍ إسلامية يتم تعميمها في أنحاء الدولة، وأنشأ لها ديوانًا خاصًا عُرف بـ "ديوان السك"، وأن يتم تزيين العملة الجديدة بالنقوش التي تعبر عن الإسلام، فصدر أول دينار ذهبي إسلامي، يحمل على أحد وجهيه عبارة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وعلى الوجه الآخر "أمير المؤمنين، مصعب بن الزبير".

ومما انتبه له أيضًا وفاة أغلب صحابة رسول الله ﷺ وأبنائهم الذين كان يعتمد عليهم الناس دائمًا في أمور الولاية والقيادة لثقتهم بدينهم وحنكتهم، ورأى مصعب خطورة ذلك على المستقبل حيث سيجد الناس أنفسهم بلا قادة موثوقين، لذلك أمر بإنشاء "ديوان القادة" في كل ولاية؛ ليضم الشباب الذين يبدو نبوغهم، فيتم تدريبهم وتأهيلهم وتعليمهم فنون القيادة والإدارة تمهيدًا لتوليهم أدوارًا قيادية في المستقبل، ليس فقط الولاية وقيادة الجيش، بل أيضًا القضاء والإفتاء وغيرها، وقد جعل الصحابي الجليل أنس بن مالك مُشرفًا على هذا الديوان. ولكثرة ما أنشأ مصعب من دواوين فقد أطلق الناس عليه عصره "عصر الدواوين".

مرَّت الأعوام، واستمرت دولة مصعب على هذا النسق من الفتوحات في آسيا الوسطى حتى استطاع فتح الهند، والوصول لحدود الصين، وتطوير الدواوين مما ساهم في نشر الاستقرار والرخاء في أركان الدولة، وأيضًا جعلها مُهابة الجانب، فلم يجرؤ أحدٌ على الاعتداء على دولة سياسيًا أو عسكريًا، لكن رغم ذلك فإن خطرًا آخرًا كانت يقترب من الدولة بشكل لم يتوقعه أحد، إنه الخطر الفكري. لقد ساهمت الفتوحات في آسيا الوسطى في تدعيم الدولة سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا إلا أن هذه المنطقة كانت تعجُّ بالديانات القديمة والمعتقدات المختلفة التي لم يستطع أهل البلاد الذين دخل أغلبهم في الإسلام من التخلُّص منها تمامًا، فاختلطت هذه المعتقدات الغريبة بتعاليم الإسلام فنشأ عنها طوائف ومذاهب انتشرت في بلاد السند والهند خاصةً، وكانت الطامة الكبرى هو اختلاط حجاج هذه البلاد بغيرهم في موسم الحج، وهو ما أدَّى لانتشارها في الكثير من الأمصار.

وصلت الأخبار إلى مصعب الذي تقدَّم به العمر، فجمع مستشاريه قائلًا: يبدو أن الزمن قد تمكَّن مني، ولم يعد في العُمر بقية، إني لا أخشى على نفسي، لكني أخشى على أمة الإسلام أن أتركهم بلا قائد في هذا الظرف الحرج، استمعوا إليّ جيدًا، إني أرى الفتنة تلوح من بعيد، لكنها ليست فتنة سيفٍ كالتي كانت بيننا وبين بني أمية، بل فتنة فكرٍ وكلامٍ، أعانكم الله على زمنكم.

لم يلبث مصعب إلا يومين بعدها حتى مات بعد أن حكم طويلًا فامتدت فترة حكمه عشرين عامًا، وما ساعده على ذلك توليه الحُكم في الرابعة والأربعين من عُمره تقريبًا، حزن الناس عليه حزنًا شديدًا، وشعروا بالفقد؛ فرغم شدته إلا أنه كان عادلًا، كما أنه كان يُذكِّرهم بعصر الصحابة وأبنائهم الذين مات أغلبهم.

اجتمع كبار القادة بعد الانتهاء من دفن مصعب، ورأوا ضرورة اختيار خليفةٍ فورًا، لسرعة التعامل مع الفتنة التي تلوح في الأُفق من جهة الشرق، أظهر هذا الاجتماع فطنة مصعب؛ فأغلب الحاضرين تخرَّجوا في ديوان القادة الذي أنشأه، وصار لدى الأمة الكثير من الشباب الذين يستطيعون تولِّي أمر الخلافة، كثرت المشاورات، وكان أغلبها يتركَّز حول كيفية التعامل مع هذه الفتنة، لأن اختيار أسلوب التعامل مع الفتنة، سيؤثر بالتأكيد على اختيار الخليفة القادم. قال قتيبة بن مسلم، وكان رجلًا عسكريًا: إني أرى أن نُسَيِّر الجيوش لقتال هؤلاء الذين حرَّفوا دين الله، فنخلص الإسلام من شرورهم. فقال سالم بن عبد الله بن عُمَر بن الخطاب، وكان رجلًا عالمًا تقيًا: يا قتيبة، إن أهل هذه البلاد حديثو العهد بالإسلام، فإن نحن قاتلناهم ارتدوا على أدبارهم، وصاروا أشد علينا من غيرهم، واتبعهم أعداؤنا فتقوى شوكتهم علينا، فأرى أن نُرسِل إليهم من ينصحهم ويناظرهم على الملأ ويبين ضلالهم، فينفض الناس من حولهم.

- لا أرى هذا يُجدي نفعًا معهم، بل السيف بيننا وبينهم.

فتدخَّل علي بن عبد الله بن العبَّاس قائلًا: يا قتيبة، أخبرني أبي أن عليًّا "رحمه الله" قد أرسله إلى الخوارج حين خرجوا عليه فناظرهم، فهدى الله خلقًا كثيرًا منهم على يديه، وعادوا إلى الحق، وإلى صفوف المسلمين، فلو أن عليًّا قاتلهم أولًا، لهلك هؤلاء النفر على ضلالهم، فإني أرى ما رأى سالم، أن تُرسل إليهم مَن يناظرهم فيُقيم عليهم الحُجَّة، فمَن عاد منهم إلى الحق فقد نجا، ومَن أبى إلا الباطل قاتلناه.

وافق الحاضرون على هذا الرأي، ورشَّح بعضهم سالمًا للخلافة، إلا أنه رفض قائلًا: قد تولاها جدي من قبل، لا يتولاها من بني عُدي اثنان، وإني لست برجلِ سيفٍ. فقال زيد بن علي بن الحُسَين، وكان شابًا: إن هذه الفتنة كما ذكر مصعب "رحمه الله" فتنة كلام وعلم، وليست فتنة سيف، وحريٌ بالأمة أن يكون على رأسها رجلٌ في علمك يا أبا عمر، فإن احتجت للسيف، فسيوفنا معك. وهكذا انعقدت البيعة لسالم بن عبد الله الذي أسرع بإرسال الوفود إلى أمصار المشرق "منبع الفتنة"، وقد أطلق الناس على هذه الوفود اسم "وفود الفقهاء"، فأرسل القاسم بن محمد بن أبي بكر على رأس وفدٍ إلى

الهند، وخارجة بن زيد بن ثابت على رأس وفدٍ إلى السند، وعلي بن عبد الله بن العبَّاس على رأس وفدٍ إلى خراسان وما حولها، فوقف مودعًا لهم عند مسجد رسول الله قائلًا:

استوصوا بالقوم خيرًا، وألينوا لهم القول، فقد قال الله لرسوله "وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" ، واصبروا عليهم، وأطيلوا المُقام بينهم إلى أن يهديهم

الله على أيديكم، فإن أطاعوكم ونزلوا على كلام الله ورسوله فقد اهتدوا، وإن أبوا إلا الباطل وتبديل دين الله، فالسيف بيننا وبينهم.

وكان مما أسرع فيه أيضًا هو رفع الحصار الذي ضربه مصعب قبل وفاته بعام على الصين، فقد وجد سالم أن هذا الحصار استمر لمدة عام دون طائل، بل سقط فيهً الكثير من الشهداء المسلمين دون أي بادرة تدل على قرب الفتح، فرأى أن يعصم دماء المسلمين.

ومما انتبه له أيضًا وفاة الصحابة وأبنائهم الذين سمعوا أحاديث رسول الله منه مباشرة، فخاف أن يضيع الحديث من بعدهم، لذلك فقد اجتمع مع سليمان بن يسار -أحد فقهاء المدينة- وقال له: يا أبا أيوب، إن الوفاة قد أدركت الكثير من صحابة رسول الله وأبنائهم، وإني خشيت أن يضيع حديث الرسول، فرأيت أن نقوم بتدوين وجمع أحاديثه.

- لكني قد سمعت أبا سعيد الخدري يقول أن الرسول قد نهاهم عن كتابة شيء سوى القرآن.

- يا أبا أيوب، كان ذلك عند نزول الوحي؛ خشية أن يختلط القرآن بكلام الرسول، أما وقد انقطع الوحي، وجُمِع القرآن فلا خوف من هذا، وإني قد اخترتك لهذه المهمة لكثرة ما سمعت من صحابة رسول الله وأمهات المؤمنين، وأيضًا لما حباك الله من قوة الحفظ والفراسة.

وهكذا بدأ في عهد سالم جمع وتدوين الحديث النبوي، واقتصر الأمر حينها على الجمع والتدوين فقط دون الفهرسة والتبويب. وكان سالم مهتمًا بتدوين العلم ونشره بين الناس أكثر من اهتمامه بالفتوحات، وقد لامه بعض قادة الجيش على هذا فجمعهم، وقال لهم: إن الفتوحات في ديننا ليس الغرض منها زيادة رُقعة الدولة أو مواردها، وإلا صارت دولة الإسلام كدول الفرس والروم، لكن الغرض هو تبليغ دين الله لعباده، فما فائدة أن تتسع رُقعة الدولة ولا يعرف الناس دينهم، وقد رأيتم ما حدث في أمصار المشرق نتيجة جهل الناس بدينهم. لكن رغم ذلك كان حريصًا على زيادة التحصينات على الثغور خاصة في البلاد التي فُتحت قديمًا مثل الشام ومصر؛ لأنها قد أُهملت في العهود السابقة نتيجة الاهتمام بالفتوحات الجديدة.

وصلت أخبار وفود الفقهاء إلى سالم في المدينة، فقد عاد أغلب بلاد أهل السند وخراسان إلى الحق، وتخلوا عن معتقداتهم الخاطئة، لكن المشكلة كانت في بلاد الهند

التي واجه فيها القاسم بن محمد مقاومة شديدة من أهلها، وتمسُّك بعاداتهم القديمة، فأرسل إليه سالم قائلًا: اثبت يا أبا محمد فإنك على ثغرٍ من ثغور الإسلام، وقد لبث رسول الله في أهل مكة ثلاث عشرة سنةً يصبر على أذاهم وتكذيبهم.

وبعد فترةٍ من الوقت، كان سالم جالسًا في دار الخلافة فدخل عليه الخادم قائلًا: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قادمٌ من بلاد الهند يستأذن بالدخول.

شعر سالم بالقلق فقال: أدخله فورًا.

دخل رجلٌ رثُّ الهيئة قائلًا: أغثنا يا أمير المؤمنين، لقد انقضَّ بعض أهل البلاد ممن يُحرِّفون دين الله على وفد القاسم بن محمد فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ثم حاصروا دار الإمارة، وعاثوا في البلاد فسادًا، وطردوا المسلمين من جزء من البلاد، وأعلنوا دولتهم فيها. هبَّ سالم واقفًا ثم أمر الخادم أن يُرسِل إلى كبار مستشاريه وقادته فورًا. اجتمع القادة سريعًا، وتشاوروا في الأمر، فاتفقوا على توجيه جيشٍ ضخم إلى البلاد بقيادة قتيبة بن مسلم، وزيد بن علي بن الحُسَين نائبًا لقتال المتمرِّدين، والسيطرة على الأوضاع.

وقف سالم على رأس الجيش قائلًا لقتيبة: اذهب إلى القوم الذين بدلوا دين الله، وغدروا بإخوتنا، فقاتلهم قتالًا شديدًا، ولا تأخذ منهم أسرى، بل احصدهم جميعًا، وإني مُرسلٌ إلى ولاة الأمصار المجاورة ليمدوك بما تحتاج من مؤنٍ وذخيرةٍ وجنود.

كانت هذه أول مرة يرى الناس فيها سالمًا غاضبًا بهذا الشكل، حتى أنه ذكرهم بشدةِ جده وحزمه. انطلق الجيش يطوي الأرض طيًا، وكلما مرَّ بمصرٍ من الأمصار في طريقه انضمَّ إليه الكثير من أهلها، وأمدوهم بالمؤن والطعام، أعادت هذه الأحداث لأذهان الناس ما كانوا يسمعونه من أجدادهم عن حروب الردة وما جرى فيها من بطولاتٍ، كان تعداد الجيش قد وصل إلى أربعين ألف مقاتل عند وصوله إلى حدود الهند.

كان المتمردون قد سمعوا بأنباء الجيش القادم فتحصَّنوا جيدًا، فضرب قتيبة حصارًا شديدًا عليهم إلا أنهم كانوا قد جهَّزوا ما يكفيهم من المؤن لحصارٍ طويلٍ، فقال زيد بن علي لقائده قتيبة: إن لي رأيًا، أن نضرب حصنهم بالمنجنيق، ونشتبك معهم اشتباكًا شديدًا يجذب انتباههم، ثم يتسلل بعض رجالنا من مكانٍ بعيدٍ إلى داخل حصنهم فيحرقون مؤنهم، فلا يملكون إلا أن يخرجوا إلينا، فنهزمهم بإذن الله.

- لكنهم سيعرفون رجالنا ويقتلونهم.

- هناك من المسلمين مَن رأى المتمردين، ويعرف لباسهم، سنطلب من أحد الخياطين المسلمين أن يخيط للمتسللين ملابسًا تشبه ملابسهم فلا يعرفونهم.

أطرق قتيبة طويلًا ثم قال: نِعم الرأي، لكن هؤلاء الرجال الذين سيتسللون إلى داخل

الحصن سيلقون نحبهم على أغلب الظن.

- إذًا يكون الله قد أنعم عليهم بالشهادة، وسأقودهم بنفسي.

- بالطبع لا يا زيد، لن أسمح لك بهذا، أنت نائبي على هذا الجيش، فماذا لو قُتلت أنا وأنت! مَن سيقود الجيش بعدنا!

- الجيش مليء بالرجال الذين...

- لا تجادل يا زيد، لن تذهب معهم، هذا أمرٌ.

أذعن زيد لأمر قائده.

ومع أول ضوء لفجر اليوم التالي، انطلقت مئات الأحجار الضخمة من المجانيق المنتصبة أمام الحصون، كانت الحصون قوية بحيث لم تسقط تحت وطأة الأحجار، لكنها تضررت منها كثيرًا، والأهم من ذلك أنها جذبت انتباه المتمردين فلم ينتبهوا للعشرين مقاتلًا الذين تسللوا من طرفٍ خفي، استمر قصف المجانيق لمدة ساعتين عندما انتبه الجميع لألسنة النيران تتصاعد من مخازن المؤن، فأسرع الكثيرون من المتمردين لترك أماكنهم على الحصون، والذهاب لإطفاء غرف المؤن المشتعلة.

قرر قتيبة استغلال انسحاب هؤلاء المتمردين لتطوير الهجوم، فأمر الجنود بتسلُّق الحصن، إلا أنه بمجرد بدء أول فرقة في التسلُّق، انسكبت عليهم كميات كبيرة من الزيت المغلي من فوق الحصن، فأمر قتيبة جنوده بالتراجع سريعًا، وأمر بعودة الجيش إلى قواعده، وتشديد الحصار تمامًا عليهم.

رغم استشهاد مائة وعشرين مسلمًا في هذا الهجوم الخاطف إلا أنه قد أدَّى الغرض منه، وتم إحراق أكثر المؤن داخل الحصن. لم يستمر الحصار طويلًا، فبعد ذلك بستة أيام، صاح المتمردون من وراء الحصن طلبًا للصلح إلا أن قتيبة قال لهم: حرُّفتم دينَ الله، وقتلتم إخوتنا، ونقضتم عهدنا، وتريدون الصلح! لا عهد لكم عندنا ولا صُلح، وسنترككم هكذا حتى تهلكوا من الجوع.

أدرك المتمردون أنهم هالكون حقًا فلم يجدوا أمامهم إلا الحرب، وفي فجر اليوم التالي انفتح باب الحصن، واندفع منه المتمردون يهجمون على المسلمين بكل قوتهم، استمر القتال حتى غروب الشمس، كانت أوامر قتيبة للمسلمين واضحةً، لا أسرى.

كانت المعركة رهيبةً، أسفرت عن استشهاد ثلاثة آلاف مسلم، ومقتل جميع المتمردين، واستعادة السيطرة على الأراضي المنهوبة، والوصُول إلى حدود الصين.

أرسل قتيبة إلى سالم في المدينة يبشّره بالنصر، فابتهج سالم كثيرًا بهذا النصر

وحمد الله عليه، ثم أرسل إلى قتيبة يُثبته على إمارة الهند على أن يجعل زيد بن عليَ نائبًا له عليها. كانت هذه الفتنة هي الأشد خلال عهد سالم، وبالقضاء عليها عاد الهدوء مرةً أخرى إلى الدولة. لم يلبث بعدها قتيبة طويلًا حتى مات، فحزن عليه المسلمون حزنًا شديدًا، وأرسل سالم إلى زيد بن عليّ يجعله على إمارة الهند.

استمرت دولة سالم ستة عشر عامًا، لم تشهد الكثير من الفتوحات، لكنها شهدت اهتمامًا كبيرًا بالعلم والفقه والحديث، وشهدت القضاء على فتنة المتمردين إلى أن جاءت الوفاة سالمًا فبكاه المسلمون طويلًا، ودفنوه بجانب أبيه.

«يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي»

صدق رسول الله صلي الله عليه وسلم

المسار الثاني

بقلم: معتز حجازي

تراصت صفوف الجنود وتأهب الرماة رافعين أقواسهم للسماء استعدادا للقذف، ونُصب المنجنيق لضربها... ضرب مكة ومقاوميها. وفي مقدمة ذلك الجيش العتيد وقف هو ناصبًا ظهره ينتظر الجميع إشارة يده حتى يبدأ الجيش في الهجوم. نظر لأرجاء مكة وهو في حيرة من أمره هل يعطي ذلك الأمر بالضرب أم لا. مكة، أرض مولد رسول الله ومحل البيت العتيق، بيت إبراهيم وإسماعيل وهاجر... نثر كل ذلك من رأسه بهزه خفيفة ثم التفت يلقى نظرة على الجيش المتأهب فلم يجد أحدًا، لم يجد جندي واحد ولكنه وجد الأجواء مُلئت بالغبار وانعدمت الرؤية، ومن قلب الغبار برز رجل ذو هيبة يرتدي رداءًا أخضر ويخلفه أربعة رجال، لم تكن ملامحهم واضحة وسط الغبار ولا يقلون عن قائدهم هيبة، ولكن اقترب قائدهم عليه ومال قائلا:

- خلاص الأمة بيدك يا حُصين.

اخترقت تكبيرات آذان الفجر أذنه وهو نائم مما أجبر "الحصين بن نمير" على الاستيقاظ بفزع من نومه والعرق الممزوج بغبار الجو يكسو جبهته في فجر ذلك اليوم، كان مفزوعا من الحلم الذي رآه، وصاحب الهيبة الذي زاره فيه متذكرًا الكلمة التي قالها ورددها مرارًا: «خلاص الأمة بيدك يا حُصين». جلس على أرض خيمته ملتقطًا أنفاسه متذكرًا كيف بدأ الأمر وكيف انغمس في تلك المعركة التي ود ألا يشترك بها منذ البداية فكانت الطامة الكبرى أن أصبح من قادتها. أغمض عينيه ملتقطًا أنفاسه، واسترجع الذكريات.

***

كان ذلك في قصر الخضراء، ذلك القصر المهيب الذي بناه الخليفة معاوية بن أبي سفيان، عندما استدعى يزيد بن معاوية "الحصين بن نمير" ، دخل مرتديًا حلته الحربية، معلقًا سيفه بخصره. دلف إلى تلك الشرفة الكبيرة التي تطل على مناظر خلابة من الشام، فوجد الخليفة، يزيد، واقفًا وبجانبه وقف مسلم بن عقبة، أحد القادة العسكريين المشهورين بقسوتهم. وقف الحصين إلى جوار مسلم صامتًا حتى تحدث يزيد قائلا:

- اسمع يا مسلم، ادع أهل المدينة ثلاثا فإن رجعوا إلى الطاعة فأقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا أبوا فأبحها ثلاثًا، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصِ به خيرًا ثم اذهب لحصار عبد الله بن الزبير في مكة حتى يستسلم، وغله من عنقه، وآتني به ليبايعني هنا في الخضراء. وإن حدث لك أمرٌ فعلى الجيش الحصين بن نمير السكوني.

أنهى يزيد حديثه ونظر للحصين ليشد من عضده، وأومأ برأسه إشارة لثقته به. فهم الحصين رسالة يزيد ورد عليه بإيماءة برأسه هو الآخر ثم خرجا سويًا من القصر هو ومسلم. لم يكن يتمنى الحصين أن تكون تلك المهمة بقيادة مسلم بن عقبة ولم يكن سعيدًا بالعمل تحت إمرته، لكنه لا يقوى على عصيان الخليفة.

***

فتح الحصين عينيه، عائدًا لحاضره، وكان الألم لا يزال يكتنف رأسه بعد ذلك الحلم الذي راوده. اقتحم مساعده الأول، حاتم بن حسان بن مالك الأموي، الخيمة صائحًا بجزع:

- سيدي الحصين.

- ما بك يا حاتم؟ ولم جلبتك تلك في أولى ساعات الصباح؟!

- لقد مات قائدنا.. مات مسلم بن عقبة يا سيدي.

فزع الحصين من جلسته، ونظر لحاتم، وتذكر حلمه والكلمات التي لم ينفك من تذكرها بعد. «خلاص الأمة بيدك يا حُصين». وبدون وعي منه ربط بينها وبين موت مسلم المفاجئ... بلع لعابه بصعوبه ثم قال لمساعده:

- أشيع الخبر بين الجيش، وأيقظ الجميع لصلاة الفجر ومن بعدها صلاة الجنازة على مسلم.

وقف المساعد الشاب غير مصدق صلابة وقوة قائده، فأيقظه الحصين من ثباته صائحًا:

- ماذا تنتظر يا حاتم... اذهب.

انتفض حاتم وخرج من خيمته بسرعة لتلبية أمر الحصين الذي لملم توتره المبعثر سريعًا، وتوضأ مرتديا زي الحرب ثم خرج من خيمته استعدادًا لقيادة الجيش العظيم.

***

كان المنظر مهيبًا والحصين يؤم ذلك الجيش الرهيب مكبرًا الأربع تكبيرات بصوت جهوري – الله أكبر- ومع كل تكبيرة يكبرها يتردد في أذنه كلمة الرجل الذي زاره في حلمه: «خلاص الأمة بيدك يا حُصين».

تقدم قيادات الجيش لدفن مسلم بن عقبة، ومن بعد دفنه توجهوا للحصين الذي كان

جالسًا وحده يفكر وسأله أحدهم:

- ماذا نحن بفاعلين الآن يا أمير؟

نهض الحصين من جلسته باعتداد وقال بحزم قوي:

- سنكمل ما جئنا من أجله. أعدوا الرماة والمشاة وجرار المنجنيق، ولنتحرك صوب مكة.

أصدر الحصين أوامره بالتحرك لحصار مكة، المدينة التي شهدت مولد رسول الله ورسالته، وإكمال مهمة ابن عقبة بإحضار "عبد الله بن الزبير" مغلولًا.

***

وقف يزيد في شرفة قصره الفريد يتأمل الأجواء، سرح قليلًا متذكرًا ما سمعه من أبيه معاوية عن النبي وأصحابه وزمانهم الجميل الصافي الذي كان الناس فيه على قلب رجل واحد، يجمعهم نفس الهدف، ولا تحتل الصراعات أي مرتبة من مراتب حياتهم. لكن الأمر الآن مختلف، وقد توجب عليه توحيد المسلمين تحت راية واحدة... رايته.

قاطعه دخول أحدهم، فنفض عنه أفكاره والتفت إليه قائلًا:

- ادخل يا ضحاك... أخبرني عن بيعة معاوية؟

وقف الضحاك بن يوسف الفهري ممشوقًا ورد:

- لا تقلق يا سيدي، لقد استتب الأمر واستجاب الناس بعد صلاة الجمعة لبيعة ابنك معاوية إن شاء الله... لك العمر المديد.

هز يزيد رأسه شاكرًا للضحاك ثم قال:

- أوصلتك أخبار عن مسلم بن عقبة وما فعله بالمدينة؟

- نعم يا سيدي، وصلتني الأخبار وهناك غضب شديد بين الناس مما سمعوه عن أفعاله هناك.

- أحمق... لقد أمرته أن يبيح المدينة ثلاثًا إن رفضوا طاعته وبيعتي، ولكن ما وصلنا من أخبار عن إباحته للمدينة لم يكن فيها شيء مما قصدته... فما الذي يجبرهم يا ضحاك؟

- الطعام والأعطية.

- أفض عليهم منها... أنها مدينة رسول الله يا ضحاك.

انصرف الضحاك لتنفيذ ما أمره به يزيد، وفي سريرته يحمل استغفارًا كثيرًا وخوفًا كبيرًا.

***

وصلت الحشود والعتاد والمشاة والرماة والخيول لتثير غبارًا غمر سماء مكة كلها. تقدمت المنجنيق ونُصبت لتحمل بالصخور الضخمة، وبجانبها شد الرماة أسهمهم في أقواسهم، وحمل المشاة سيوفهم في أغمادها، والحصين واقفًا ينظر لمكة

وسكانها الذين يتحركون هنا وهناك في محاولة لتنظيم أنفسهم، وكان قد انضم لهم أهل المدينة انتقامًا لما حدث في الحرة، وكان عبد الله بن الزبير يصلي بالحجر عند الكعبة وحيدًا معلنًا تحديه.

وقف الحصين ناظرًا لابن الزبير من أعلى الجبل، يرى ببصيرته صخور المنجنيق الطائرة والأسهم التي أظلمت السماء... لم يستطع إصدار أوامره بضرب مكة المكرمة وبيت الله الحرام. أطرق برأسه مفكرًا ثم أشار لمساعده حاتم الأموي وأمره قائلًا:

- أرسِل لابن الزبير برسول، وأخبره أني أمهله ثلاثًا ليعلن بيعته لخليفتنا. وإن لم يفعل فسأضرب بكل قوتي، وآمر رؤوس الجنود أن ينتشروا على جبل قيقعان، والمنجنيق على جبل قيس حتى إذا انتهت الثلاث، تكون ضربتنا... هي الأولى والأخيرة.

أومأ حاتم برأسه في طاعة وانصرف لنقل التعليمات الجديدة لمرؤوسيه فأبلغ رؤوس الجيش بأمر الانتشار وتجرد من رداءه الحربي ومن سيفه ثم نزل بنفسه لعبد الله ابن الزبير حتى يخيره بين مبايعة الخليفة أو الضرب بالمنجنيق.

***

كان عبد الله بن الزبير جالسًا بجوار الحجر، نحيل للغاية، صاحب لحية مهذبة ورائحة طيبة، يتمتم بكلمات حفظها عن أمه ذات النطاقين، أسماء بنت أبي بكر، عن رسول الله. لم يكن يشعر بما حوله من ذعر، الكل يجري على موقعه في هرج ومرج. كان يعلم في قرارة نفسه أن المعركة خاسرة، فهو لا يملك جيشًا نظاميًا كجيش يزيد ولكنه لن يتراجع الآن ليعلم المسلمون أن هناك من مات في سبيل إعلاء الشورى، وليعلموا أن هناك من لم يرض باندثارها بكل سهولة. فقد كان مع الحسين ابن بنت رسول الله من البداية ولن يقابله يوم القيامة ليخبره أنه لم يستطع استكمال ما بدأوه سويا... كانت الأفكار والذكريات تتدفق على عقله حتى قاطعه أحد مساعديه مناديًا:

- يا ابن الزبير.

فتح عينيه، ليجد مساعده ومعاونيه واقفين يكبلون شخصًا بدا غريبًا، وقد أوحت ملابسه أنه جندي ينتمي إلى جيش يزيد القادم، فنظر متفحصه وقال:

- من أرسلك؟

- أنا حاتم بن حسان بن مالك، أرسلني الحصين بن نمير.

أخذ عبد الله بن الزبير شهيقا وسأله:

- وأين مسلم بن عقبة، أتاب بعد ما فعله بأهل المدينة؟

أجابه حاتم:

- لا... لقد مات منذ ثلاثة أيام.

تنهد عبد الله بن الزبير وقال:

- غفر الله له ولنا... ما جاء بك يا حاتم؟ــ أرسلني الحصين قائدنا برسالة: فإما أن تبايع يزيد بن معاوية دون فقد عزيز أو سماع أزيز الحرب.

- لقد أرسلك قائدك الحصين برسالة وهو يعلم ردها. أخبره بأننا قد فررنا إلى مكة لا لنرفع راية الاستسلام هنا، ولكن لنسأل الله أن يزيدنا أمامكم. ارجع وأخبره ما كان يرجوه.

حاول حاتم التملص من أذرع مكبليه وقال:

- إذن أمامك ثلاثة أيام تستشير من تستشير ثم سنمطر مكة بمنجنيقنا و...

خاف ابن الزبير أن يسترسل حاتم في وصف ما ينتوي جيشهم فعله فيخاف من حوله أو يتناقلوه بينهم فينتشر الذعر في صفوف فريقه فصاح به ناهضًا من جلسته:

- اغرب.. اغرب.. خسرت وقبحت.. اتركوه.

تركه مكبلوه لينصرف مسرعًا قافلًا لجيشه.

***

مرت ثلاثة أيام. أحاط جيش الحصين مكة من كل الجبال المحيطة بها، انتشر الرماة ونصبت المنجنيق وحملت بالصخور ووقف مشاتها في آخر الجيش حتى ينزلوا حين الحاجة إلى ذلك.

استيقظ الفريقان قبل صلاة الفجر، فريق ابن الزبير وفريق الحصين، واستعد الجميع لأداء الصلاة. ما أصعبه من مشهد، موقف حزين يحمل في طياته الكثير من الأسى حين ترى طرفي نزاع كل منهما مسلم، الجميع يتوضأ، الفريقان يؤم كل منهما قائد مسلم، ثم هؤلاء يصلون وأولئك يصلون، وحين يفرغون من صلاتهم يفزع كل منهم للانقضاض على أخيه وكأنه لم يجمعهما دين واحد ورب واحد... لم يعتد أحدهما على الآخر حتى يتحاربوا.

وقف الحصين وما زال التردد يساوره، هو يعلم أن تردده لا بد ألا يظهر أبدا. وقف في مقدمة الجيش ثم نظر لمساعده وأشار له بالضرب. نادى حاتم على رؤساء الجند وأمرهم ببدء الهجوم. تقدم الرماة لأطراف الجبل، رفعوا أقواسهم للسماء تتوسطها أسهمهم الحادة ثم تركوها تغمر سماء مكة. وقف أهل مكة ينظرون للأسهم القادمة غير مصدقين هذا العدد من الأسهم وكأن الليل قد حل عليهم من كثرتها التي غطت ضوء الشمس. عرفت الأسهم طريقها إلى الصدور والأرجل والرؤوس، وتحرك محاربو مكة يمينًا ويسارًا هروبًا من تلك الأسهم الطائشة أملا في تجنبها.

بعد ثلاث دفعات من الأسهم، أشار الحصين بوقف الضرب وأمر حاملي الأسهم بالتراجع للخلف، مفسحين المجال للمنجنيق المعبأة بالصخور. بدأت المنجنيق في

دك مكة مع أول دفعة من الصخور. في الدفعة التالية أشعل الجنود الصخور بالنار، ونظر حاتم للحصين منتظرًا إشارة الإطلاق... وقف الحصين ناظرًا للمنجنيق خائفًا من إعطاء أمر الإطلاق... صوت محدثه في الحلم لا يغادر عقله. «خلاص الأمة بيدك يا حُصين». أي خلاص وأي أمة وهو يمطر البيت العتيق بالصخور. قاطع أفكاره صياح حاتم متسائلًا ومنتظرًا لإشارة الضرب. لم يجد الحصين مفرًا فأشار له بالبدء. عشرات الصخور المشتعلة انطلقت صوب وطن الإسلام الأول ومهد الدعوة، وقف الجميع، جيش الشام وجيش مكة، ينظرون لهذه الصخور الطائرة وهي ترتفع لعنان السماء و...

ماااااااات الخليفة يااااااازيد بن معاااوية.

كان حامل الخبر فارسًا آتيا من خلف الجيش الأموي، كررها كثيرا: ماااااااات الخليفة يااااااازيد بن معاااوية. توقف حامل الخبر بفرسه أمام الحصين ووترجل أمامه قائلا:

- مات الخليفة يزيد بن معاوية.

سمع الحصين الخبر فنظر لحاتم صارخًا به:

- أوقف الضرب.

صرخ بها وهو يعلم أنه قد سبق السيف العزل. أشار له حاتم أن ما باليد حيلة الآن. كانت الصخور المشتعلة قد أنهت رحلة الصعود بالفعل وبدأت في الهبوط، سقطت لتدمر وتشعل النيران هنا وهناك. تدحرجت لتسحق من في طريقها من بشر. لكن الكارثة التي لم تكن في الحسبان أتت بها تلك الصخرة التي سقطت على طرف الكعبة لتحطمها وتشعل بها النار... وقف الجيشان مشدوهين، يحدقون بذهول في بيت الله الحرام المشتعل وقد رددوا معا دون اتفاق:

- اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك... اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك.

علا صوت نحيب في صفوف الجيشين خوفًا مما اقترفته أيديهم من ضرب الكعبة... وقف حاتم والحصين متجاورين بعد أن أوقفا الضرب، ناظرين للكعبة في خوف، لا يعلمان ماذا سيكون حسابهما عند ربهما.

* * *

كان الغبار قد ملأ الأجواء وتعذرت الرؤية، وبين الأنقاض سارت مجموعة من ثلاثة أفراد ملثمين، أعينهم تملؤها نظرات الأسى، يتأملون الدمار الذي حل بالمدينة، والناس تهرول هنا وهناك حاملة أدلة ماء وألسنتهم تلهج بالاستغفار. مروا على عشرات الجثث حتى استوقفتهم جثة توقف عندها قائد المجموعة متفحصًا. كانت جثة لطفل صغير لم يتجاوز الخامسة من عمره، أصابته حروق عديدة حتى تفحمت الجثة.

نظر القائد -الذي لم يكن سوى الحصين- لحاتم وقال وعيناه تملؤها الدموع:

- خذلنا الله... لقد تأخرنا كثيرا.

أغمض حاتم عينيه وتنهد في أسف. أكملوا سيرهم وسط الذعر والصراخ، وجدوا أربعة رجال يحملون جسدًا مغطى يبدو أنه لامرأه، أوقفهم الحصين وسألهم:

- من تلك؟

أجابه أحد حامليها: هي أمة من عباد الله.

- أماتت من الصخور؟

- بل ماتت حين رأت الكعبة تحترق. ظلت تصرخ خوفًا من غضب الله حتى ماتت.

كان الوضع مأساويًا لأقصى درجة، مذبحة خبأ الغبار قسوتها عن الحصين فلم ير الكثير. ظل سائرًا هو ومساعداه حتى وصلوا لحجر الكعبة، فأشار إليه حاتم أنه هو ذاك

الشيخ الجالس أرضًا يغطيه الغبار، وقف الحصين أمامه ثم جلس القرفصاء وقال له:

- أأنت عبد الله، ابن الزبير بن العوام، وأسماء بنت أبي بكر الصديق؟

رفع عبدالله عينيه إليه ورد:

- لما أوقفت ضربنا؟ أخفت على نفسك من حرق الكعبة؟

كان الحصين يتمزق من داخله لما رآه من ضحايا وجثث وحرائق، فبكى وأمسك بابن الزبير من تلابيبه وقال غاضبًا:

- لقد أمهلتك ثلاث، لماذا لم تبايع الخليفة وتحمي رعاياك من كل هذا الدم؟! لماذا؟!

- وماذا اقول للحسين حين أقابله يوم القيامة؟

- قل له أنك حفظت دماء المسلمين.

- أنتم المعتدون، سواء في البيعة أو القتال... أجبني لماذا توقفت؟

ـــ لقد توفي يزيد بن معاوية.

اتسعت عينا عبد الله بن الزبير مشدوها وقال بصوت غلبه البكاء:

- سبحان الله، بيده كل شيء... سبحان الله... سبحان الله.

ارتمى الحصين بجانب عبد الله أرضًا وانخرط في بكاء طويل وكأن حملًا ثقيلًا أزيح عن كاهله، حامدًا الله أن إراقة الدماء قد توقفت حتى ولو كان هذا لوقت قصير.

***

في أحد بيوت مكة، جلس كل من الحصين ومساعده حاتم في ناحية جيش الشام، وعلى الجانب الآخر جلس عبد الله بن الزبير ومساعده... وامرأة عجوز "[2]".

كان الغبار قد انقشع والجو قد صفا، نظر عبد الله بن الزبير للحصين وقال له:

- ماذا أنتم فاعلين، أستكملون الحرب أم ترجعون قافلين إلى الشام؟

كان الحصين سارحًا في أفكاره، الآن فقط يتجلى تفسير ذلك الحلم الذي راوده، الحلم الذي وافق ميله في ألا يحارب منذ البداية. أفاق من شروده فرد على ابن الزبير قائلًا:

- لقد مات خليفتنا الذي أمرنا أن نحضرك مغلولًا حتى يأخذ بيعتك عنوه، وتقلد الحكم من بعده ابنه معاوية الذي أتمم بيعته منذ أيام كما فُعل بأبيه. لم أكن أريد الانخراط في تلك الصراعات منذ البداية، لذلك فلن أكمل هذه الحرب خاصة ولم يأتني أمر من الأمير الجديد. لكني أرى أن تأتي معي للشام، وأقنع معاوية بالتنازل لك عن الخلافة وأن يعطيك البيعة أمام الشام كلها، فلن يكون هناك من هو أحق وأفضل منك للخلافة. وبذلك نعصم دماء المسلمين المهدرة من سنين.

نظر عبد الله بن الزبير للحصين وقد فاجأه هذا الاقتراح، فكر لبرهة وبعد أن مال لرأي في هذا الموضوع نظر للمرأة العجوز التي تجلس خلفه - ولم تكن سوى أمه أسماء بنت أبي بكر وكان يستشيرها في كل الأمور- قبل أن يبوح بهذا الرأي، فهزت رأسها نفيًا بهدوء، فقال عبدالله:

- يا حصين... أنت قائد جيش، وليس لك من أمر أو نهي شيء في شأن الخلافة، وأنا لن أفعل مثلما فعل الحسين فأذهب إليه وأنا أعلم أني مقتول لا محالة... اذهب أنت لخليفتك معاوية وأقنعه بما تراه، فإما ان تأتي به مبايعًا أو أن تأتي على رأس جيشك باغيًا، فأنا لا أطلب خلافتي من مبايعيها.

صمت الحصين وتفهم أن لعبد الله بن الزبير كامل الحق في طلبه ومخاوفه... لمح شبح ابتسامة على وجوه عبد الله بن الزبير والمرأة بعد صمته الطويل، فنهض من جلسته ونهض حاتم من خلفه:

- انتظرني يا عبد الله، فسأعود وبصحبتي معاوية لمبايعتك بإذن الله.

بعد مصافحة تملؤها الوعود، خرج الحصين من البيت الذي كانوا مجتمعين به، وهرول حاتم من خلفه قائلا:

- يا لها من خدعة ذكية.

توقف الحصين بغتة، وعقد حاجبيه في استنكار ونظر لحاتم متعجبًا وقال:

- أي خدعة يا حاتم، أتعرف عني أني مخادعا؟!

- لا والله وحاشاه.

- أنا لم أخدعه، وهو بالفعل أصلح الناس لإمارتهم الآن.

هز حاتم رأسه في إيجاب زائف وطاعة ظاهرة، فهو في نفسه لا يرى غير الأمويين – وهو منهم - من هو أصلح لإمارة الناس.

***

استأذن الحصين عبد الله بن الزبير أن يترك جيشه ويذهب بمفرده لمعاوية ليقوم بتلك المهمة التي وعد بها، ولكن عبد الله بن الزبير رفض ذلك وأخبره ان يذهب بجيشه كله راجعًا للشام وعندما ينجح فيما قاله يأتي بأهل الشام مسالمين بدون جيش.

جمع الجيش شتاته وأسلحته، وفرح الجنود بقرب موعد رجوعهم لذويهم بعد كل تلك الحروب الدائرة منذ شهور ولكن الفرحة الأكبر كانت لوقف الحرب.

بعد ثلاثة شهور وصل الجيش للشام، متوقفًا على بعد عدة كيلو مترات وتوجه كل من الحصين وحاتم داخلين المدينة ومنها لقصر الخلافة المسمى «الخضراء». قبل وصولهم توقف حاتم فنظر له الحصين متسائلًا، فقال له حاتم:

- إئذن لي بالانصراف.

- ألن تأتي معي لمحادثة الخليفة؟

- لا أنت قدير بهذا وحدك، سأذهب لأرى زوجتي وعيالي.

هز الحصين رأسه متفهمًا مشيرًا له بالانصراف. تفرق الحصين وحاتم كل في طريقة ولكن الحصين لم يكن مطمئنا قط من سريرة حاتم.

***

وصل الحصين لقصر الخلافة، وانتظر مناداته حتى يدخل للخليفة الجديد معاوية الذي يستبشر به وبإخلاصه لله ورسوله. تنبه لمنادٍ ينادي عليه أن يدخل، ترك أفكاره ودخل على معاوية بن يزيد، الذي كان بشوشًا للغاية، ورحب به بقوة واحتضنه قائلًا:

- حمدًا لله على عودتك... أعلِمْني ماذا فعلت في مكة؟

صمت الحصين لبرهة ثم رد:

- لقد كنا نضرب مكة عندما تلقينا خبر وفاة والدك يزيد رحمه الله.

- أضربتم مكة يا حصين؟

- نعم، كان أمر الخليفة يزيد أن نأتي بعبد الله بن الزبير مغلولًا، وكان يحتمي بها فما كان منا إلا أن نضربها ثم نأتي به. وتلك كانت خطة عقبة بن مسلم منذ البداية والتي وافق عليها يزيد.

- وبماذا ضربتم مكة؟

- ضربناها بالأسهم و..

تردد قليلا، فسأله معاوية:

- وماذا؟

- والمنجنيق.

أغمض معاوية عينيه متخيلًا ما يسمعه والذي كان فوق قدر احتماله، ثم سأل:

- أأشعلتموها؟

أطرق الحصين برأسه مخذولا ثم رد:

- اشتعلت الكعبة ولكن هذا كان دون قصد منا.

اتسعت عينا معاوية غير مصدقًا، ثم قال:

- ضربت بيت الله! أما كفاكم ما فعلتموه بمدينة رسول الله؟

- لا لا... لم أكن ممن نفذوا ما حدث في المدينة يا سيدي.

أشاح معاوية بذراعيه بعدم اكتراث، ثم صمت موليًا الحصين ظهره، وبعد دقائق طالت سمع الحصين نحيب الخليفة ورأى اهتزازه فاقترب منه ووضع يده على كتفه قائلا له:

- هون عليك يا بني، فأنا اعلم كم تحب الله ورسوله، لذلك جئتك اليوم. ولتعلم أنني لم أستكمل ضرب مكة ولم آتِ بعبد الله بن الزبير.

التفت له معاوية بدهشة ماسحًا دموعه المنسابة ثم سأل:

- ماذا فعلت إذن؟

- لقد أوقفت ضرب مكة المكرمة، ونزلت من الجبل لأتحدث مع عبد الله بن الزبير.

- وفيما تحدثت معه؟

- لقد رأيت أن بعد وفاة يزيد الذي كان غاضبًا من رفض عبد الله له، أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.

- وما هو نصابها الصحيح يا حصين؟

- أن نُفعل كلام الله وشرعه فينا بأن نرجع الأمر شورى ولن نجد خيرًا من ابن بنت صاحب رسول الله ليعيد خير ذلك الأمر.

- ماذا تقصد يا حصين؟ أطلق سهمك.

- أن نجعل الخلافة لعبد الله بن الزبير ومن ثم نجعل الأمر شورى بين المسلمين ونترك جاهلية إرث الحكم للجاهلين.

عقد معاوية حاجبية صامتًا، فقد كان ما اقترحه الحصين صادمًا غير متوقع على الإطلاق، فنظر للحصين الذي أكمل كلامه:

- إنا خير أمة أخرجت للناس يا معاوية. يجب عليك أن توقف إهدار دم المسلمين كما فعلها الحسن قبل ذلك وتركها لجدك الذي سن هذه السنة الجائرة وأظلم عقولنا بعد نور أرسله الله لنا.

رد معاوية ببطء ينم عن تفكير عميق:

- إن الخلافة للأمويين يا حصين.

- إن الخلافة لمن يستحقها، ويبر الله في الناس ولا يطلبها طالب.

كان الحصين يعلم أن هذا الأمر للمسلمين جميعًا، ولكنه أيضًا بئس الأمر له وحده فلو رفض الخليفة اقتراحه لن يتوانى عن قتله. وكان معاوية صامتًا لا يبوح بما داخله من أفكار. لا يعلم الحصين دلالة هذه الأمارات على وجهه، أتفكير في الموافقة أم تدبير لقتله. أخرجه معاوية من أفكاره وقال وهو ينصرف:

- لقد قلت أمرا جللًا يا حصين، اتركني الآن وقل لمن بالخارج ألا يسمحوا لأحد بالدخول عليّ.

***

ترك حاتم الأموي الحصين مدعيا الرغبة في الاطمئنان على عائلته، لكن هذه لم تكن الحقيقة على الإطلاق، فقد انتوى الذهاب لمكان آخر. وصل إلى دار كبيرة أنيقة لها مكانة عظيمة في الشام، طرق بابها ففتح له صبي يعرفه رحب به وأدخله فطلب منه

حاتم رؤية أبيه. بعد برهة من الانتظار حضر صاحب الدار المرجو، فسلم على حاتم بترحاب قوي قائلا:

- أهلا أهلا بحاتم قاهر الصحراء ورافع الرايات.

- أهلا بك يا ابن العم... لقد عدت توا من مكة، أنا والحصين قائد الجيش.

عقد صاحب الدار حاجبيه متسائلًا:

- وأين عقبة بن مسلم؟

- لقد توفاه الله قبل دخول مكة، وتولى الحصين الجيش من بعده كما أمرنا يزيد بن معاوية رحمه الله.

- رحمة الله عليهما... وما ذلك الأمر الهام الذي جعلك تأتي إليّ مسرعًا بمجرد وصولك؟

- في خضم حربنا مع عبد الله بن الزبير وصلنا خبر وفاة يزيد بن معاوية، فأوقف الحصين الحرب ونزل ليتحدث مع عبد الله.

نهض المتحدث من مكانه وقال بغضب:

- أولم يحضر ابن الزبير مغلولًا كما أمر؟

- لا، والأدهى أنه أخبره بأنه سوف يقنع الخليفة الجديد، معاوية بن يزيد، بالتنازل له عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين.

- خذله الله، ويخرج خلافة المسلمين من الأمويين الذين خلقوا لها؟!

- نعم، لقد تركته ذاهبًا للخليفة وأتيت لأعلمك لأنك صاحب مكانة وتأثير بين بني أمية... فأنت مروان بن الحكم، أمير المدينة يومًا ما.

صمت مروان بن الحكم وهو يفكر قائلا:

- نعم نعم... لا بد أن يكون هناك مخرج لتلك الكارثة التي ستضيع المسلمين وبني أمية. حسنا فعلت يا حاتم، اتركني الآن وكن مستعدًا في أي وقت لاستدعائك.

- كما تأمر يا سيدي، فأنا لبني أمية خادم مطيع.

ابتسم له مروان بن الحكم وربت على كتفيه لينصرف حاتم تاركًا مروان بن الحكم في أشد المواقف صعوبة في حياته.

***

في صباح اليوم التالي استيقظ مروان بن الحكم مرتديًا أقيم حلله وتزين جيدًا، ثم انصرف ذاهبًا للقاء الخليفة الجديد معاوية بن يزيد. وصل القصر، وكان له مكانته بين الحرس والخدم، فطفق يمر بين أروقته بمنتهى الأريحية واليسر حتى وصل لباحة الزوار فوجد الحصين بن نمير جالسًا هو الآخر منتظرًا، فسلم عليه بحرارة تخفي ما يكنه له بداخله، مهنئًا إياه على انتصاره في الحرب:

- بارك الله لك يا حصين انتصارك على عبد الله بن الزبير، أأتيت به مغلولًا كما طلب يزيد؟

تنحنح الحصين وتلعثم، فهو يعلم أن مروان حتمًا قد علم بأنه لم يأت بعبد الله. في الوقت نفسه لم يكن الحصين يريد الإفصاح عما طلبه من معاوية، فصمت باحثًا عن رد مناسب حتى قال:

- لقد وفقني الله لما هو أعظم شأنًا.

تظاهر مروان بالاندهاش وسأله:

- وما هو ذاك الأمر؟

قاطعهما منادٍ ينادي على كليهما بالدخول للخليفة، فدلفا سويًا وجلسا أمام معاوية الذي ابتسم لهما، فشعر مروان بالقلق خوفًا من أن يكون معاوية قد وافق على ما اقترحه الحصين ونقله له حاتم بالأمس فسلم عليه وبدأ بالكلام قائلا:

- السلام عليك يا خليفة المسلمين ورحمة الله وبركاته.

رد عليه معاوية السلام فتابع مروان:

- معاوية، أريد أن أتحدث إليك بخصوص أمر مهم.

أشار له معاوية بثقة لا تنم عن شخص صغير السن حديث العهد بأمور الخلافة، وقال بحزم:

- فلترجأ ما جئت له يا ابن العم للغد، فربما يثنيك ما ستعلمه غدًا عما جئت به اليوم. وأنت يا حصين، انتظرني غدًا بعد صلاة الجمعة حتى تسمع ردي فيما جئتني من أجله.

نظر كل من الحصين ومروان لبعضهما ووجوههما مملوءة بالحيرة، خاصة وأن معاوية لم يلمح لأي شيء مما قرره. نهض الثلاثة على ميعاد الغد بعد صلاة الجمعة، ذلك الميعاد الذي سيكون فارقًا في حياتهم ومستقبلهم.

***

انتشر الخبر في الشام كلها أن الخليفة الجديد عازم على إعلان أمر جلل، أمر سيظهره للعوام يوم الجمعة بعد الصلاة. وبعد انتشار الخبر انطلقت الشائعات بين الناس كالنار في الهشيم، فمنهم من قال أنه سيكمل حرب يزيد، ومنهم من قال أنه لن يكمل الحرب وسيكتفي ببيعة دمشق دون مكة. ومنهم من قال أنه سيأخذ البيعة لمن بعده كما فعل أبوه وجده. شائعات كثيرة اختلف الناس عليها، لكنهم اتفقوا جميعًا على حضور صلاة الجمعة القادمة حتى يعرفوا ما هو عازم عليه.

أتى يوم الجمعة. كانت الصلاة في ذلك اليوم غفيرة والناس مجموعة لسماع الخليفة. انتهت الصلاة ونادى المنادي أن يصمت الجميع. صعد الخليفة إلى المنبر، ووقف ينظر لذلك المنظر المهيب الذي تراص فيه الرجال ومن خلفهم النساء، حتى الأطفال أنهوا لعبهم وعم الصمت المكان بعد أن آزرت الطبيعة نفسها الخليفة وتحول الجو الحار للمدينة في هذه الأيام لنسمات خفيفة، أنهت الطيور رحلاتها ووقفت بجوار بعضها على طوف أسوار المسجد والبيوت في انتظار الخليفة. نظر معاوية لكل ذلك وشعر بعظمة الموقف وما هو مقبل عليه فتوكل على الله وبدأ كلامه:

- أما بعد، حمدا لله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله...

سكت للحظات وكأنه كان ينتظر رد ما. لم ينبس أحد ببنت شفة، فاستكمل:

- أيها الناس إنا بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا. وأن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله ﷺ، ولحق في الإسلام سابق المسلمين وأول المؤمنين وابن عم رسول رب العالمين، فركب منكم ما تعلمون وركبتم منه ما لا تتكرون حتى أتته منيته.

كان في كل كلمة قالها ذكرى إما من حكاية سمعها أو مشهد رآه في صغره، كان قوله بطيئًا حمل مشاعرًا قوية لم يعمل حسابها عندما حضر لقوله هذا، ابتلع ريقه وتابع:

- ثم قلد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه واستحسن خطاه.

توقف عن الكلام ثانية وبكى، بكى لما قاله ولما سيقوله ولكنه أبى إلا أن يقول الحق فأكمل:

- إن أعظم الأمور علينا علمنا بمصرعه، وقد أباح الحرمة وحرق الكعبة والله على ذلك

بمنتقم... وما أنا المتقلد أموركم ولا المتحمل تبعاتكم.

قالها بصوت عالٍ، يعبر عما يموج في نفسه من انفعالات. تعالت الهمهمات بين الناس ومنهم من صاح ومنهم من كبر ومنهم حسبن ومنهم من حوقل وبعد عدة دقائق صمت الجميع مرة أخرى، فأكمل معاوية:

- ما أنا المتقلد أموركم ولا المتحمل تبعاتكم. سأترك أمر الخلافة كما فعلها قبلي الحسن – رضي الله عنه – وأسعى في صلح شبيه بين بني أمية وأهل الحجاز بعدما فعلناه بهم.

هنا علت الصيحات والتكبيرات والتهليلات والزغاريد الشامية لتزقزق في الأجواء، الرجال يهنئون بعضهم البعض فرحين بزوال الفتنة وانتهاء الحرب التي حصدت أرواح رجالهم وشبابهم دون طائل. قاطعهم رجال الخليفة لإسكاتهم ثانية، ليكمل معاوية صائحًا:

- أعِدوا عدتكم وليرحل معي إلى مكة من يريد منكم حضور المباحثات بيني وبين ابن الزبير.

كان الخبر جميلًا، وأكمل الناس فرحتهم ودارت الطيور في السماء لتصنع دوائرًا، ووسط كل ذلك اقترب الحصين من معاوية محتضنًا إياه وعيناه باكية. استأذن الحصين من معاوية وأشار لأحد عماله فأتى حاملًا قفص أخرج منه حمامة مربوط في ساقها رسالة، نظر الحصين له لأخذ الأذن بإطلاقها فأشار معاوية برأسه موافقًا فترك الحمامة التي تعرف طريقها جيدًا. نظر الحصين للحمامة التي تشق طريقها في السماء وقال: اللهم صلِ وسلم على نبيك محمد وأعلمه بما فعلت ليفرح بي.

وسط هذا الفرح كله نظر مروان بن الحكم لحاتم بن حسان في استياء وأشار له أن يعد عدته للسفر مع الخليفة، فالنهاية لم تحن بعد.

* * *

كان عبد الله بن الزبير جالسًا في بهو منزل أمه أسماء، يرتل تسابيحه ومن خلفه تجلس أسماء الكفيفة سارحة ببصيرتها لتتأكد من وجود ابنها بجوارها فعندما لا تسمع صوت تسبيحه، تسحب شهيقا فتشم رائحته بجوارها. كان عبد الله بن الزبير يظل جالسًا حتى تطمئن له الطيور فتأتي لتقف على عمامته، دخل عليه أحد عماله صائحًا:

- يا عبد الله... يا عبد الله.

فزع الحمام وطار خوفًا، فالتفت عبد الله للمنادي يلومه:

- ما بك يا عامر! ألم أنبهك قبل ذلك ألا تفزع الطير.

توقف عامر ملتقطًا أنفاسه، معطيًا ابن الزبير حمامة تحمل رسالة، أمسكها ابن الزبير برفق ونزع الرسالة عن قدميها ثم أدخل كفه في جيبة مخرجًا بعض الحبوب ليضعها والحمامة في حجره لتأكل بعد سفر طويل. فتح الرسالة ونظر لها مليًا وابتسم ثم قال لحامل الرسالة بسعادة ظاهرة:

- شيع يا عامر لكل الناس أن الحرب قد انتهت وأن معاوية بن يزيد ووفد من أهل الشام في طريقهم إلينا.

* * *

استغرق السفر وقتًا طويلًا خاصة مع هذا العدد الكبير من الناس، والتوقفات المتعددة من آن لآخر بغرض الراحة. قبل بضعة كيلومترات من مكة توقف الجمع للمرة الأخيرة وخيموا لأخذ استراحة قبل بدء الجزء الأصعب من الرحلة... مفاوضات الصلح.

في خيمة الأمير الفارهة، كان معاوية جالسًا يقرأ القرآن، دخل عليه مروان ابن الحكم، ووقف إلى جانبه في انتظار أن ينتهي من قراءته... التفت إليه معاوية وأنهى قراءته:

- صدق الله العظيم... أهلا بابن الحكم، ماذا تحمل إليّ؟

- أحمل إليك كل الخير إن شاء الله يا خليفة.

- هلم... قل لي.

- أسنابيع عبد الله بن الزبير لخلافة المسلمين جميعًا؟

رد معاوية مندهشًا:

- المسلمين جميعًا! سنتحدث معه وحين نصل إلى قرار سيشمل المسلمين جميعًا، فنحن الآن منقسمين متحاربين، فدعنا نوحد الناس تحت راية واحدة ونجنح إلى السلم وصلاح أمر المسلمين.

- أو ترى أن توحيد الناس على رجل من خارج بني أمية هو صلاح لأمر المسلمين؟

ظهرت بعض أمارت الغضب على وجه معاوية وقال:

- الإسلام هو الراية التي سيتوحد الناس تحتها يا مروان وليس بني أمية أو غيرها من العوائل، أمر الشورى هو الذي سيجمع الناس من الآن وليس القبلية الجاهلية التي تحرك بني قومي من يوم جدي معاوية.

- نحن قوم بني أمية أحق بخلافة الناس.

نهض معاوية من جلسته غاضبًا:

- الخلافة ليست إرثا نتنازعه يا مروان، إنه حق الله الذي دفناه تحت التراب وآن الأوان أن نخرجه للنور مرة أخرى، إنها الشورى.

عمّ صمت في المكان بعد صياح معاوية الغاضب، ورأى مروان الغضب مستعرًا في عينه وأن الحديث لن يجدي معه نفعًا الآن، فانصرف في صمت.

***

● بعد عدة أيام في مكة.

الشمس تراقص أشعتها في قلب السماء الصافية، الناس منشغلة بأعمالها، وإذا بصوت دبيب عال هز البيوت وأسقط الأواني من رفوفها، خرج الناس من بيوتهم يستكشفون الأمر فوجدوا الغبار متصاعدًا يملأ الأفق. لم يتفاجأ الناس وإنما سعدوا واتسعت ثغورهم، لقد وصل أهل الشام وخليفتهم معاوية، ونزلت الأفواج مرتدين الأبيض معتمرين لأداء العمرة ولتكون فاتحة خير للجميع قبل الولوج في أي اتفاقات.

وقف أهل مكة مرحبين بكل تلك الأعداد الغفيرة التي أتت من أجل الصلح، وبينهم وقف عبد الله بن الزبير سعيدًا بالأجواء مستبشرًا خيرًا. خرج رجل من بين أولئك المعتمرين ومعه رجل آخر. اقترب الأول من ابن الزبير واحتضنه بقوة فاستقبله الأخير بحفاوة مماثلة قائلًا:

- مرحبا بك يا حصين.

أشار الحصين للرجل الآخر قائلًا:

- مرحبا يا عبد الله، هذا...

رفع عبد الله بن الزبير ذراعيه بسعادة كبيرة مقاطعًا الحصين قائلا:

- يا فرحتاه بالحافظ.

- يا عبد الله، إنه معاوية بن يزيد.

رد عبد الله محتضنًا معاوية:

- لا والله إنه الحافظ لأنه حفظ دماء المسلمين الحاضرين واللاحقين.

وقف عبد الله بن الزبير وعماله يحيون معاوية بن يزيد ومن جاءوا معه من الشام، الفريقان يتبادلون الابتسامات وتبدو السعادة بادية على وجوهم إلا رجلًا بدا على وجهه عدم الارتياح... مروان بن الحكم، رجل معاوية بن أبي سفيان الذي كان أمير المدينة في عهده والذي تركها ورحل حين اصطفت مع عبد الله بن الزبير. كان ابن الزبير يعرفه جيدًا ويعلم مدى ولائه لبني أمية، ولكنها صفحة جديدة بيضاء تفرد فلا بد من حسن نية، أقبل مروان ابن الحكم على عبد الله ابن الزبير وابتسامة كبيرة تشغل وجهه ليسلم عليه قائلًا:

- أهلا بصاحب الحسين.

سلم عليه عبد الله بن الزبير، لكن عبارته لم ترق له لما تحمله من معاني كثيرة، هل هو تهديد بمصير الحسين أم تذكير بوفاته وانتفاء أي صفة أخرى لابن الزبير من بعده، أم أنها مجرد أوهام في رأس ابن الزبير لما يحمله من ضغينة تجاه مروان؟ رد تحيته بابتسامة هو الآخر وأكمل السلام على كل من أتي للسلام.

***

بعد يوم شاق، انفض الجمع ونصب الوافدون خيماتهم ليبيتون فيها، وفي خيمة مروان دخل حاتم بن حسان ملتفتًا حوله وكأن هناك من يراقبه، جلس قائلًا لمروان:

- ماذا سنفعل يا سيدي، المؤشرات غير مبشرة.

رد مروان بن الحكم والقلق يعتلي خلجاته:

- نعم، يبدو وكأن كل شيء يضيع منا، أو يوشك على الضياع. لو اتفق ابن الزبير ومعاوية، سيضعا بنودًا وشروطًا لكل خليفة قادم فهما يريدان تطبيق الشوري في الحكم. سيضيع نصيب بني أمية في الخلافة إلى الأبد يا حاتم. يجب ألا يتم هذا الاتفاق أبدا. وكيف هذا يا سيدي؟ يجب أن نزيح أحدهما قبل إتمام الاتفاق. يجب أن نزيح معاوية، لأننا لو مسسنا ابن الزبير سيقول الناس أننا قد أتينا لقتله ولن يتركونا نعود لديارنا.

- معاوية!

- نعم معاوية، وحينها نرى من هو الأنسب للخلافة من بني أمية.

- أنت يا سيدي... ليس هناك أفضل منك لإمارة المسلمين، لرجاحة عقلك وخبرتك في إدارة الناس فقد كنت أمير مدينة رسول الله، ولك أبناء تأخذ بيعتهم من الناس بمجرد توليك الأمر، وهكذا نضمن أن الخلافة لن تخرج عن عباءة بني امية.

نظر مروان بن الحكم لحاتم صامتًا مفكرًا، في واقع الأمر لم يكن في حسبانه أن ينصب نفسه للخلافة وإنما أتى هنا فقط في محاولة منه لإقناع معاوية أن يرجع عن

هذا الأمر، ولكن فكرة حاتم فعلًا فكرة تستحق المجازفة والتنفيذ. نظر لحاتم وتشكلت الفكرة برأسه ولن يكون هناك أخلص من حاتم لمساعدته بها.

***

كان اليوم الثاني يوم المفاوضات وجلوس كل من عبد الله ومعاوية معًا ليتفقا على كيفية تسيير الأمور بعد ذلك ووضع آلية لتداول السلطة دون مشاكل أخرى أو حروب. كان اجتماع قمة وكان حاضرًا الحصين بن نمير لأنه صاحب الفكرة والوسيط بينهما. استمر الاجتماع لبضعة ساعات حتى خرج معاوية والحصين متجهمين، وبدا أنهما لم يتفقا. رجع كل لخيمته وفي صباح اليوم التالي اجتمعوا مرة أخرى لساعات وساعات... حل الغروب، خرج الجميع ووجوهم مشرقة، فتقافز الناس فرحًا مهللين مكبرين. في هذه اللحظات نظر مروان بن الحكم لحاتم نظرة ذات مغزى، ثم انصرف على عجالة.

***

أتي الليل بظلامه، وتجمعت السحب وكأن الطبيعة قد غضبت فلم يظهر أي نجم في السماء، تجمعت السحب في الأفق وبدأت شرارة الرعد تظهر وتختفي ثم انهمرت الأمطار تغرق البيوت وخيم أهل الشام الذين فروا لبيوت أهل مكة يستترون معهم بأسقف بيوتهم. وفي خيمة معاوية بن يزيد كان جالسًا على طرف فراشه محتملًا المياه التي تبلله، وبجواره إناء مليئ بالدماء. بينما استقر الحصين على فراش معاوية بوجه ممتقع وشفتين لونهما أبيض وجسد لا يوجد به قطرة ماء بعد أن قضى الساعات الأخيرة يتقيأ كل ما بجوفه. دخل عبد الله بن الزبير مهرولًا بعد أن استدعاه معاوية ورأى الحصين وقد شحب تمامًا، اقترب من معاوية وقال له آسفًا:

- ماذا حدث؟

- انهم بني أهلى... بني أمية، لم ينتظروا ما اتفقنا عليه فوضعوا لي السم، لكنهم أخطأوني وأصابوا الحصين بدلا مني.

- وأين مروان؟

- رآه بعض من رجالي يعتلي حصانه ويغادر المدينة. هو في طريقه لدمشق على ما يبدو، يدبر لأمر ما.

***

في الصباح الباكر انتشر خبر وفاة الحصين بين الناس وجلس الفريقان يبكونه في حزن، صلى ابن الزبير بالناس إماما وسار الجمع بجثمان الحصين إلى مثواه الأخير، وبعد أن انفض الجمع اجتمع معاوية مع ابن الزبير مرة أخرى ليتشاورا:

- ما رأيك يا أبا خبيب، ما حدث ينبأ بأن ما اتفقنا عليه لن يكن تنفيذه بالأمر اليسير. وإني لأرى بدلًا من طرح الأمر شورى بين الناس أن تؤول لك الخلافة الآن وتصبح شورى من بعدك.

رد عبد الله مطرقا رأسه:

- لا... ليس هذا بالحل الأمثل. لن يتركها مروان.

- وماذا نحن إذن فاعلون؟.

- ستعودون إلى دمشق.

- دون اتفاق ودون بيعة؟!

- نعم دون بيعة... لن تبايعوني قبل أن تستتب لك الأمور. اذهب فاقض على فتنة مروان فأنا لا أريدها حربًا جديدة.

***

● بعد عدة أشهر في قصر الخضراء.

كان مروان ابن الحكم قد عاد سريعًا إلى دمشق وأعلن نفسه خليفة للمسلمين بعد أن تصور أن معاوية قد لقى حتفه. وقف مروان في شرفة القصر الكبيرة مزهوًا سعيدًا حتى دخل عليه مساعده حاتم ليخبره أن معاوية في الخارج ومعه أعداد كبيرة من الناس.

انعقد حاجبا مروان للغاية وغضب غضبًا شديدًا، ثم تحدث في غَرور من يملك سلطة العالم كله:

- أحضِر سيفى وتعال.

حين التقى مروان بمعاوية، كان معاوية في زي أقرب ما يكون إلى الزي الحربي، حاملًا درعه ومعلقًا سيفه بخصره، وقف كل منهم ناظرًا للآخر متفحصًا حتى تحدث

مروان:

- أأتيت للقتال يا معاوية؟

كانت اللهجة جافة للغاية وغير مرحبة على الإطلاق، وقد لمس معاوية تلك العدائية في كلام مروان، فرد:

- لا لم آت للقتال يا مراون، وإنما أتيت لأسترد قصري وخلافتي.

أعلن معاوية نيته بشكل مباشر وصريح بكلمته وفهم مروان ذلك ولكنه أراد أن يستنزف الوقت حتى يستنهض حاتم الجنود.

- ماذا تعني بخلافتك، ألم تتنازل عنها يوم أن قررت السفر لابن الزبير.

- والآن أسترجعها مرة أخرى فأنت لست أهلًا لها.

ضحك مروان بصوت مرتفع ثم رد باستهزاء غاضب:

- أنت صبي صغير... انت لم تعطني شيئا لتسترده، لقد تنازلت عن الخلافة وانتهى الأمر. وأنا أخذت البيعة من الناس من بعدك.

- أنا بايعت ابن الزبير ولا يجب أن يكون المسلمين منقسمين لأميرين، يجب أن يكونوا موحدين تحت لواء واحد.

- إذن فليكن هذا الأمير أنا.

- أنت تعلم أنك لا تسعى لتوحيد المسلمين ولكن جشع للسلطة والحكم هو ما يحركك.

- ماذا تريد يا معاوية.

- تنازل عن الحكم على الفور.

- ولماذا أوافق على عروضك؟

تنهد معاوية ونظر لمساعده الذي قبض على سيفه بقوة أكبر مما جعل حاتم الأموي هو الآخر يتحفز بالقبض على سيفه. ثم رد معاوية:

- لأن الجيش ليس ولاؤه كله لك ولن يتحرك إلا بأمري.

رد مروان باستهزاء:

- أتظن أنني لم أكن مستعدًا للحظة هذه.

أخرج حاتم سيفه من غمده ووقف مستعدًا لنزال سيبدأ، فتابع معاوية بقوة:

- احذر يا مروان، فأنت لن تخرج من هنا أميرًا.

- ألم تفهم بعد... منذ أن دخلت هنا وقد أمرت أن يتم القبض على كل من يدينون بالولاء لك. أنت الآن وحيد.

- بل أنت الذي لا يعلم شيئًا، في الوقت الذي تقبض فيه على قلة من رجالي، يتحرك أكثرهم الآن للإحاطة بالقصر.

- مستحيل... مستحيل.

أخرج مروان سيفه من غمده، ودون كلمة أخرى تلاقت السيوف مصدره صليلها في جميع أرجاء القصر. بدأ قتال لم يكن على بال أحد ولا يعلم متى سينتهي.

***

● بعد شهر.

احتدم القتال بين جيشيّ معاوية ومروان وانقسمت الشام لنصفين كل مؤيد لآخر، حتى أنّ الأخ حارب أخاه، والابن حارب أباه، الكل انحاز لأحد المعسكرين طبقًا لما رأى من الحق، ولكن الواقع أن الحق غاب ولم يعلمه من بدأ القتال. تواترت الشائعات والأقاويل بين الناس، وانقلبت المدينة لمكان حرب وثكنات عسكرية وقل

الماء والطعام، هرب كثير من الناس بعد الخراب الذي حل بالشام ذاهبين لأي بلدة يأمنون فيه على عيالهم. في تلك الأثناء وعندما وصلت الشام لتلك الحالة اقترح أحد رجال معاوية عليه الاستعانة بابن الزبير واستدعاء جيشه لينقذهم مما آلت إليه الشام خاصة وأن القتلى يزيدون والفارين أكثر، ومن هنا يأخذ الزبير البيعة من الشام ويكسر مبدأ التوريث الذي سنة معاوية الجد. لم يكن أمام معاوية حل آخر، فأرسل لابن الزبير مستنجدًا أن مروان خرب البلاد وقتل العباد وحان وقت أن يأتي لينقذ المسلمين بعد أن طمأنه أن الحرب ستكون سهلة ولن يقتل أحد من جنوده بعدما خربت الشام وفر الكثير من أهلها. استقر الرأي على ذلك وأرسلوا رسولًا منهم برسالة الاستنجاد.

وصلت الزبير أخبار اقتتال المسلمين في الشام واعتقد أن تلك الرسالة التي أتت مع رسولها فخ ليذهب ثم يقتلوه كما فعل أهل العراق مع الحسين؛ فأرسل بعض من جنوده مستترين ليستكشفوا الوضع في الشام الذين رجعوا مؤكدين كلام معاوية وأن الشام

قد انهارت وتدمرت كل مظاهر الحياة والحضارة فيها وأن دخولها سيصبح سهلًا للغاية.

* * *

● بعد شهرين خارج حدود مكة بقليل.

كان الزبير ممتطيًا جواده مرتديًا زي الحرب وخلفه آلاف الجنود مستعدين للتحرك، كان الزبير ينتظر قدوم خبر ما، ومن بعيد لمح خيط من الغبار يقترب حتى ظهر ذلك الفارس الذي اقترب منه ووقف أمامه مترجلًا من على حصانه قائلا:

- ما زال كل شيء كما هو المعركة محتدمة بين الشام وبعضهم منقسمين بين معاوية ومراون، حتى كاد أن يفنى اهلها.

- أو ما زال سبب اقتتالهم مجهولًا حتى الآن؟

- نعم يا سيدي، لقد بدأوا قتال بعضهم منذ ثلاثة أشهر ولكن ليس إلا الأسباب الظاهرة المتناقلة بين الناس.

- وهي أن مروان بن الحكم اغتصب الحكم من معاوية ومعاوية يرغب في استرداد حكمه.

- نعم.

تنفس الزبير الصعداء ثم قال داعيًا:

- اللهم أنقِذنا من ذلك الأمر حتى يفرغ الناس لهداك، توكلنا على الله.

ثم نادى على مساعده ليشير للجيش البدء بالتحرك ناحية الشام، ومن البوق انطلقت صفارة تحرك الجيش لاقتناص فرصة تصارع أهل الشام وبعضهم ومنها يمكنه

السيطرة على الشام كلها وسط اقتتالهم، حتى ينهى ما بدأه ويكون الأمر شورى كما يأمل.

***

● بعد ثلاثة شهور... الشام.

وصل الزبير وجيشه للشام خارج أسوارها واقفين مشاهدين. كان الأمر واضحًا جليًا للغاية لقد أبيدت الشام فتصاعدت الأدخنة وتهدمت الأسوار وصنعت مدافن خارج تلك الأسوار ليدفنوا قتلى تلك الحرب الدائرة. أشار الزبير للقائد الأول أن يذهب هو ومجموعة كبيرة لا تقل عن خمسمائة جندي من الجهة الشمالية وهذه الجهة الخلفية

لمروان وجيشه بشرط أن يدخلوها غير شاهرين سيوفهم سائرين بتروي، وأرسل رسولًا للجهة الجنوبية لمعاوية وجيشه حتى يعلمهم بوصول الزبير، أشار له القائد الأول مطيعًا منفذًا.

دخلت المجموعة المتسللة من الجهة الجنوبية، كان الأمر فوق الوصف الذي أخبروا به لقد تدمرت البلاد بالفعل ولكن الواقع دائما أقسى وأمر، بيوت محترقة مهجورة من أهلها، الرؤية متعذرة من الغبار العالق في الهواء، كان الجو صامتًا دون أي حركة مما جعل الجنود تقبض على سيوفها في تحفز، حتى رأوا جيش مروان المرجو، لم يكن جيشًا حقيقيًا ولكنه فتات جيش، بقايا متناثرة. توقفت المجموعة عن السير لينظموا صفوهم ثم خرج قائدهم تاركهم ليذهب محدثًا الجيش، توقف أمام أحد الجنود قائلًا:

- أين قائدكم؟

أشهر الجميع سيوفهم ناظرين مترقبين ثم رد أحدهم:

- أنا حاتم الأموي قائد الجيش ومساعد الخليفة مروان بن الحكم.

- نحن جيش مكة والمدينة بقيادة الزبير بن العوام، لقد أتينا في سلام لدرء دماء المسلمين التي لم تؤمِّنوها، إن جيشنا خارج مدينتكم آلاف، فأغمدوا سيوفكم واعلموا أنكم منهكين ولن تقدروا على محاربتنا من أمامكم ومحاربة جيش معاوية من خلفكم... فلتحفظوا دمائكم.

أنهى قائد المجموعة جملته وكأن من مع حاتم الأموي كانوا يحلمون أن يأتي مَن يخلصهم مِن الجحيم الذي يعيشونه، فبدون تردد واتفاق أغمدوا سيوفهم، نظر لهم حاتم الأموي وهو وحيدا شاهرًا سيفه ثم أشار لأحدهم:

- اذهب للخليفة وأخبره أن معاوية استنجد بالزبير وأن الشام كلها محاطة بجيش لا قبل لنا بمواجهته وأنهم أجبرونا على الاستسلام.

ظهرت علامات الفرحة على ذلك الجندي وهرول لنقل الرسالة لمروان.

* * *

استسلم مروان بن الحكم وبايع معاوية عبد الله بن الزبير بالخلافة وانتقلت خلافة المسلمين كلها للزبير وهدأت الأوضاع في جميع الأمصار وأصبح مقر الحكم في مدينة رسول الله، بعد استقرار الأمر بشهور قليلة توفي معاوية بن يزيد وكأن دوره في هذه الحياة أن يُحي الشورى من جديد ومات مروان بن الحكم أيضا ودفن في الشام.

لج الفرار بمروان فقلت له

عاد الظلوم ظليما همه الهرب

أين الفرار وترك الملك إن ذهبت

عنك الهوينا فلا دين ولا حسب

فراشة الحلم فرعون العقاب وإن

تطلب نداه فكلب دونه كلب

المسار الثالث

بقلم: سحر نعمة الله

لم تكن تلك الأحداث الجليلة التي حدثت آنذاك تمرُّ كما كان يتمناها العامة في أرجاء خلافة بني أمية، آملين أن تنقضي بسلام، بل أخذت طابعًا كبيرًا من انفعالات عمَّ فيها قلق وتوتر يخيمان على الوجوه، ويعصف بالقلوب عصفًا شديدًا، ويتشح المستقبل بخوف شديد، يتنبأ بما تحمله الأيام القادمة وما يترتب عليه من سنواتٍ عجافٍ آتية، وكان الكثيرون يتوقعون أن حدثًا جللًا سيحدث وسيتبلور من ورائه كيانٌ جديدٌ مختلفٌ عما سبق، وكأن العامة بدأت تكتب أحداثها بحدسها، وبإدراكهم بما يدور في دهاليز الخلافة، يتهيبون الخطوب باختلاف ألوانها، وتفاوت درجة خطورتها، وربما كانوا أدواتًا في يد الحاكم يحركها كما يشاء، فليس لهم إلا الطاعة وتلبية الأوامر، يتحدثون ويسخطون ويعلنون الغضب لكنهم في النهاية ألعوبة في يد القوي الذي يسيطر على زمام الأمور. وليس مرد ذلك إلا لأنهم اعتادوا أن يبايعوا كل ولي عهد دون أن يروا منه أفعاله التي تبين ما ستؤول إليه حياتهم في ظله وتحت ولايته. وقد بلغ بهم الحال أن يرتضوا بشظفٍ وجوعٍ متجرعين المرارة والألم في سبيل استقرار حالهم، وإن كان ذلك يؤدي إلى رضوخهم لما هو قائم. كل الخليط من الذكريات المؤلمة العالقة بالأذهان التي ورثوها عن أباءهم أضفت على أحاسيسهم نوعًا من ترقب ولا مبالاة أحيانًا. في حين كانت لمحات السخط والامتعاض بادية على وجوههم، وتفور في عروقهم الدماء فيندفعون ثائرين معلنين تمردهم على تلك السياسات الآثمة، خارجين على طاعة الخليفة فيتخندقون تحت أي مسمى، أو ربما ينضوون تحت طائفةٍ ما، مرة تحت شعارات سياسية، ومرات تحت انتماءات دينية، حتى إذا ما رفع الخليفة عليهم السيف كان قتلهم تقربا لله وطاعة.

ولم يكن امتداد سنوات حكم بني أمية يتذرع بالقوة والتثبيت حينًا أو اللهو والعبث أحيانًا، بل تخلله خلفاء عدل وجهاد، كانت مهمتهم الحفاظ على الأمانة التي أوكلت إليها.

وقبل أن ينقضي عام ١٢٥ من الهجرة أرسل هشام بن عبد الملك رسوله إلى الوليد بن يزيد يطلب إليه أن يأتيه في الحال، وكان الوليد يعلم السبب الكامن وراء استدعائه، فهو ولي العهد القادم بعد وصية أبيه يزيد بن عبد الملك. كذلك تنوقلت أخبار من خلال بعض عيونه التي زرعها في قصر هشام، تؤكد أن هشامَ يتناقش ويتشاور مع وزرائه وأمراء بني أمية في هذا الشأن، فرتب أمره وجهز عدته، وبالرغم من ذلك ظل يجاهد بقوة كي يبدو رجلًا قوي الجأش، حكيمًا قادرًا على المهمة العظيمة التي يتوقعها، إلا أنه كان متوجسًا بشدة، تحدثه نفسه بريبة، فوقف برهة يتفكر:

- إنها حقًا لمهمة عظيمة أن يؤول إلي ملك بني أمية. لمعت عيناه مستحضرًا شيئًا في خياله... أجل... كل هذا! سأتربع على عرش أجدادي وأنال البيعة لي، وعلت

ضحكاته

ترن في غرفته الصماء.

كانت الفرحة تقفز من عينيه يود أن يرى هذا الحدث يتم الآن دون نزاعات أو تنازلات أو مساومات تكون مع أمراء بني أمية.

أحس بالتوجس والريبة ومحيت الابتسامة من وجهه وتساءل قلقًا:

- لكن عمي هشام ما زال حيًا، وربما يجهز كي تكون البيعة لابنه مسلمة؟

بدا الأمر معقدًا، وأن شيئًا يحاك في الخفاء، ولم يستطع أن يفلت من ضيقه، لكنه رسم جاهدًا على محياه عكس ذلك وهمَّ متجهًا إلى قصر عمه.

حينما وصل كانت الأجواء هادئة إلى حد ما، لا تنذر بشيء غير أن عمه فاجأه مخاطبًا إياه بصوت مرتفع ينم عن حزم أو ربما تحذير:

- كيف لك أن تلهو وتثمل، وأنظار الشعب ترتقبك، ألا تخشى من ثورتهم وسخطهم على أفعالك العابثة؟!

لم يمهله عمه أن يقوم بواجب تحية الخليفة، والوقوف بين يديه، فوضعه مباشرة في قفص اتهام دون أن ينتظر منه رد هذا الاتهام أو حتى الدفاع عن نفسه بالنفي أو التذلل، وكأن ثورة قامت في نفس الوليد دفعته أن يستنكر فعل عمه، واجتاحته رغبة قوية أن يقاتل هذا الهَرِم كي يأخذ البيعة لنفسه، وكان عمه بدوره يكن له الغضب والكره لسببين أولهما أنه يريد أن يستأثر بالخلافة لابنه مسلمة، والثاني ما شاع عن الوليد من لهو وترف وانغماس في الملذات مع رفقاء السوء، وكان هذا الفعل يسرُّه لسهولة إثارة الناس ضده، وإيغار النفوس عليه وبذلك يتمكن مما يسعى إليه.

لم يستطع الوليد التخلص من إحساسه بالضيق من معاملة عمه، فأراد أن يخفف من وطأة السخط فاستدعى رفقاءه إلى قصره محاولًا أن يتناسى ذاك الجرم الشنيع في حقه. وحينما ثمل الوليد وجاهد أن يبدو رزينا، خانته قواه، فخرّ ساقطًا على الأرض يضحك:

أيظن عمي المسكين أني أتنازل عن حقي في الخلافة هكذا، كي ينعم بها ابنه الأرعن الأحمق مسلمة؟

اجتاحت المكان عاصفة من الضحك فأردف يقول: أنا لها... أنا لها.

وتعالت الضحكات والهمس، وأقبلت الجواري بأثوابهن الزاهية يتراقصن ويتمايلن بين يدي الخليفة المنتظر.

وقد علم هشام بما قاله الوليد عنه، فحز في قلبه أفعال ذلك الأخرق، وتساءل آسِفًا:

- كيف ستؤول الخلافة لهذا العابث، وهو الذي أفنى عمره في تشييد دولة بني أمية، والعمل على بقائها قوية شامخة فأعطى كل ذي حق حقه، وأمّن حدود الدولة

الإسلامية من أي خطر يترصد بها.

صمت هنيهة يكتم غضبه، وقرر أن يرسل مكتوبًا بنبرة جافة شديدة التحذير إلى الوليد. وحينما وصلت الرسالة إلى الوليد قرأها بسخط واستياء شديدين متنبئًا بما تحمله من نبرات تحذير ووعيد غير مبال بها. ثم علت ضحكاته حينما وصل لعبارة: «أيها الأرعن حري بك أن تترك حياة الترف واللعب وتحمل على أكتافك ملك آبائك وأجدادك، فلا تكون لعنة تحل على من سيأتي بعدك».

واستحكم الكبر والتيه برأس الوليد، وأوغر قلبه بالحقد أشد مما كان، وتأكد له أن عمه هشامًا أراد أن ينتزع الخلافة منه لابنه مسلمة، وهذا ما يسعى له في الخفاء رغم أنه يظهر عكس ذلك في العلن، وللعجب فقد كان كمن أراد أن يحتمي بالنار، فما كانت أخلاق مسلمة أقل سفهًا وطيشًا من الوليد، إذ كان على نفس الشاكلة من خلاعة واستهتار، وهذا ما جعل طريق الملك أمام الوليد سهلًا ميسرًا، فلن تفاضل الناس بينه وبين مسلمة، ومؤكد أن الشعب سيركن إلى من أوصى له بالخلافة.

ظل الوليد مترقبًا الأمور من بعيد، متخذًا جانبًا معتكفًا في قصر الأزرق في الصحراء خاصة بعدما أرسل له عمه وكلاء عنه يساومونه على التنازل عن الخلافة لمسلمة بن هشام، وحينما اشتد في رفضه اشتدت بالتوازي حملات عمه التحريضية ضده حتى خشي على نفسه من بطشه ففضل الابتعاد حتى تهدأ العاصفة حينًا، وتكون له فرصة التفكير باتزان بعيدًا عن الضغوط والمناورات.

ولولا أن هشامًا قد نعي، وأذيع خبر وفاته وحالف الحظ الوليد لربما فتك به إخراسًا للأصوات التي تتهمه بالفحش والزندقة، ولن تأتي فرصة مثل هذه كي يتخلص منه. وليس أشد على المرء من أن تتسلط عليه نفسه ورفقاء السوء، فيسلبون منه عقله كما لو أنه بهيمة يربطها سيدها كما شاء، وزاد اتهام الشعب للوليد بالردة والزندقة وحيكت حوله القصص والشائعات عن غرامه بفتاة نصرانية يتحسس إليها ليلًا في لباس رجل فقير مريض حتى يراها في محرابها، واشتد كره الشعب لأفعاله، ومجونه الفاحش، والعجيب حقًّا أن السيرة الملطخة بالشبهات والسمعة السيئة للوليد لم تمنع أو تقف حائلًا أمام نيل الخلافة التي جاءت له كما كان يريد، ففي عام ١٢٥ تربع الوليد على عرش الحكم.

ربما ظن الوليد أنه بالتربع على العرش تبدو الأمور حينذاك سهلة المنال، وأن كل الأماني قد تحققت، لكن هذا وهم من يمتلك رؤية قاصرة محدودة التفكير، فبمجرد التربع على السلطة تطل المؤامرات من كل جحر ووكر، حيات سامات تتسلل في الخفاء لتلدغ بقوة، وهذا بالفعل ما كان.

بدت الأحقاد تطفو على السطح من بني أعمام الوليد، وبدت فكرة تخامره مخاطبًا وزيره المقرب إليه وقد كان بالأمس من أقرب ندمائه.

«يخيفني صمت أولاد أعمامي، أعلم مدى حقدهم عليّ، وقد كانوا يناصرون هشاما، ويدفعونه دفعًا إلى أن ينتزع الخلافة مني ويأخذها لمسلمة، وإني لن أرحم واحدًا منهم طالما أنهم يبيتون نواياهم السيئة ضدي».

وظلت فكرة الانتقام تلاحقه حتى تبين صدق حدسه وعلم أن سليمان بن هشام بالاتفاق مع أخيه يزيد يحرضان العامة عليه ويبثان فيهم الفتن كي ينقلبوا عليه، إذ أنه لم يمكِّن لسيطرته حتى الآن في كل أنحاء الدولة الإسلامية.

اندفعت الدماء إلى رأسه وغشيتها سحابة من غضب وأمر على الفور بإحضار سليمان بن هشام وأخيه يزيد، وما إن حضرا حتى واجههما بما شاع عنهما ووصل إليه من أخبار تتهمهما بنشر الفتن. في البداية حاولا أن ينفيا هذه التهمة، إلى أن استعظما شأنهما وغرهما الكبر، فكيف بهذا السفيه الأرعن أن يفعل بهما هذا الجرم، وهما في الأمس كان لهما حق الطاعة والولاء، وإذا بهما يهددان الوليد، فاستحكم الغضب وعم صمت مميت لبرهة من الوقت حتى أنهاه الوليد بأن أمر بضرب سليمان مائة جلدة، ثم حلق رأسه ولحيته إذلالًا واحتقارًا له، ونفاهما إلى عمان وحبسهما.

تطاير خبر نفي سليمان وأخيه يزيد في أرجاء دمشق، فاتشحت الأمور بوشاح المعضلة المخيفة، حيث الخليفة يقتل أهله ويمثل بهم، فليس برجل دولة حكيم تؤمن جوانبه. بيد أنه شخص تحكمه الملذات وتستولي على لبه، فربما بقرار النهار يمحوه الليل، وربما العكس فقرار الليل يمحوه النهار. وكان الأولى بالخليفة أن يستقطب كل أعدائه لصفه كي يأمن غدرهم، على الأقل مدة من الزمن، كي تستتب له الأمور ويخضع الجميع له بالولاء والطاعة، فمرة بالتقريب والعطايا، ومرة بالتحذير والزجر. وحقيقة بدا الوليد جوادًا يخالف سياسة عمه في الإدارة، فقد كان عمه شديد المحافظة على أموال الدولة، ينفقها في مصارفها المحددة لها، فترك في الخزينة ما دفع الوليد أن يعطي هذا ويمنح ذاك، ويشتري ولاء جنده بالعطايا الكثيرة الثمينة، فخصَّ أهل الشام بكرمه، وأكرم الوفود التي تأتيه للمبايعة أيما إكرام.

وحينذاك تملكته فكرة التمكين واستقرار الأجواء، فالأمور الآن في يده، وقد أخضع له الشعب بالقوة حينًا، وبالجود والكرم كثيرًا. أمر حراسه أن يجهزوا له موكبًا فخمًا يليق به كي يجوب أنحاء الشام والعراق، وربما لنفس خليفة أن تحدثه بأن موكبه لا بد وأن يخطف الأبصار فيترك في نفوس معجبيه وأتباعه الهيبة والوقار، ولعدد حراسه وقوة جنده ما يترك الأثر في نفوس معارضيه فترتجف أيديهم قبل أي خطوة تسول بها لهم أنفسهم الحقودة سعيًا إلى أن تطاله بسوء.

وقد استدعى وزيره سفيان بن علي يحثه على مرافقة الموكب فأخذته الدهشة

حينما أذهلته الثياب والجواهر التي يتزين بها موكب الخليفة، وهؤلاء الجواري وما يحملن من صناديق أمتعة غالية الثمن، وجواهر نفسية وحدثته نفسه حسرة حينما تذكر الخليفة هشامًا وحرصه الشديد على أموال المسلمين، وأدرك أن زوال هذا الملك أوشك أن يقع، فقد وُسِّدَ الأمر إلى غير جدير به. وفي لحظة تغيرت ملامحه إلى السرور كي لا يكشف أمره وتحسره على زمن هشام. وما غرّ هذا الوزير استقبال واحتفال الجموع الغفيرة للخليفة، فعصابة المنافقين حوله قد أوهمت الأنظار أن الشعب يهتف بحياته، وأنه راضٍ كل الرضا لما يفعله.

وما ظن الوليد أن الطعنة الحاسمة ستأتي من فعل أحمق أقدم عليه دون أن يفطن لعواقبه الآثمة. هل فطن إلى أن إدارة الدولة تحتاج إلى كثير من دهاء، ووفرة كبيرة من تريث وحكمة. فلو أن حاكمًا أعدم مخالفيه ومعارضيه في التو، لتكالبت عليه كل النفوس الثائرة الرافضة للقمع، والمنددة بالقوة الغاشمة؟

ومهما كانت قوة الحاكم فلن يستطيع أن يجمع الجميع تحت رايته، ولن يمنحوه حق الطاعة وإن أظهروا ذلك، فلكل جواد كبوة، وسينقضون عليه عاجلًا أو آجلًا.

مؤسف حقًا أن يوغر الوليد صدور القبائل اليمنية ضده بفعله الغاشم، حيث سلم خالد بن عبد الله القيسي إلى يوسف بن عمر الثقفي، ولأن يوسف منسجم معه في سلوكه ومتفق في تفكيره، أي أنه سينفذ الأمر بما هو مطلوب منه، وقد كان ما أراد، وتم إعدام خالد القيسي في الحيرة أمام أشهاد من الناس، وبهذا الفعل قد أعلن الوليد نهايته، وأعطى المتآمرين فرصةً عظيمةً كي يتحدوا ويتساندوا كي لا يأتي الدور عليهم، ويتخلص منهم الوليد واحدًا تلو الآخر.

في شهر ربيع الأول لعام ١٢٦ من الهجرة، أتى رسول إلى يزيد بن الوليد يحمل رسالة شديدة السرية من عبد الله القيسي، من الوهلة الأولى تدرك مدى القلق الذي امتلك يزيد، لأنه يدرك جيدًا مقدار العداوة التي حدثت بين الوليد وعبد الله القيسي خاصة بعد إعدام ابنه خالد، ولو علم الوليد ووصله الخبر لن يرحمه وسيكون مصيره كما ابنيّ هشام، تردد في أن يستلم الرسالة لكن الأمر قد تم بحضور الرسول، سواء علم أو لم يعلم الوليد فقد استلم رسالة.

أخذها متلهفًا ليكشف محتواها، وأمر بانصراف الرسول في سرية تامة متخفيًا في زي مجذوب بدلًا من زي الفقير الذي جاء به. وحينما وقعت عيناه على الكلمات ارتجف قلبه وخفق بشدة وهمس في نفسه:

- يا لها من رسالة خطيرة حقا! مصيبة... لو علم الوليد بها سيقطع رقبتي في الحال، وهو الآن في قوة بطشه وطغيانه، وتنكيله بمعارضيه.

أعاد قراءة الرسالة مرة أخرى بتركيز تام ونفس مستقرة إلى حد ما، وشرع يفكر متسائلًا:

- هل الوقت مناسب الآن لهذه الخطوة ولاسيما أن رسالة القيسي دعم قوي ومناصرة واضحة؟

- ماذا يفعل لو علم الوليد؟ لا بد من وضع خطة بديلة لو اكتشف أمره قبل إتمام هذه الصفقة.

- يا إلهي رقبة الوليد هي الهدف الآن.

ومن المتوقع أن عبد الله القيسي ينتظر من يزيد رسالة تتضمن الموافقة على رسالته السابقة، وأن فرصة الانقلاب على الوليد ونزع الخلافة منه باتت وشيكة محتومة، فالشعب يكن له السخط للهوه ومجونه بيد أنه طاغية ينكل بمعارضيه.

* * *

- السلام عليكم يا عمي حسن.

- وعليكم السلام يا علي.

- ما بال الناس صامتون هكذا في السوق؟

كان العم حسن يحاول أن يزيل المزلاج عن باب دكانه، هز رأسه أسفًا وقال: الحال يا بني لا يسر أحد.

تلفت علي يمنة ويسرة وبدا الامتعاض يغزو وجهه مساعدًا العم في فتح الباب واستغرق في صمت لدقيقة ثم قطعه متسائلا:

- يقولون أن الخليفة الليلة سيقيم في قصره حفلًا كبيرًا لاستقبال زوجته الجديدة؟

سحب العم أريكة من الخشب وأشار لعلي بالجلوس مجيبًا:

- أجل يا بني، وهل تكف نزوات الوليد؟! هذا ما عرفناه عنه منذ أن كان شابًا يافعًا، وكيف يدرك من تنعم في النعم حال الأشقياء مثلنا؟!

أخذ علي يراقب تحول ملامح العم حسن وكأن شيئًا بداخله بدا ينطفئ. كان العم حسن قد عدل بعض أرفف دكانه ووضع فيها بعضًا من البضاعة الجديدة التي جاءته من أرض الحجاز، وكان بائعًا للأقمشة، ولأن أكثر مريديه نساء فكانت أسرار بيوت الحي وما يحيط به من أحياء أخرى منثورة في دكانه، ثرثرة النساء لا تنتهي، وحديثهن عن حال البلاد وضيق المعيشة أيضًا لا ينتهي.

- تعلم يا علي أن الخليفة هشام رحمه الله كان حكيمًا، أمسك البلاد بقبضة رجل متمكن، قلب رحيم على رعيته، ويد باطشة على أعدائه، كان الحال حينذاك غير هذا الحال، النماء يعم البلاد، والناس تتحدث عن بخله لكنها تمتدح حفاظه على أموالهم.

- أي بخل يا عم؟

هز العم رأسه أسفًا: العامة يا علي تخدعهم المظاهر، وتسوقهم الشعارات البراقة، مقارنة بما يفعله الوليد الآن من إنفاق الأموال هنا وهناك، يعتبر ما قام به هشام بخلًا. أتعلم يا بني حب الشعب لحاكمه نتيجة إخلاصه لهم، وليس بذخه الواهم عليهم، وعي العامة هو الأساس.

أومأ علي موافقًا:

- أجل يا عمي... انتشرت أخبار أن يزيد بن الوليد غير راض عما يفعله الخليفة، فضلًا عن معاداة الخليفة للقبائل اليمنية بعد إعدام ابنهم خالد القيسي. يقولون أن يزيد يخفي شيئا.

- ربما يا بني، فالأيام غدًا ستكشف كل الحقائق المختبئة.

واقترب علي بجوار عمه حسن يحسم تردده يهمس:

- أريد اطلاعك على سر ما.

حملق العم في وجهه منتظرًا أن يستأنف حديثه. استأنف علي بصوت يشوبه القلق:

- منذ أيام قابلت صديقًا لي عند أول مدخل الحي، وعلامات الغنى ظهرت في يده، فمعه الكثير من النقود أخرجها ليشتري لنا طعامًا رغم أن ملابسه الفقيرة الممزقة لم تتغير، وهيئته الرثة كما هي، وسألته عما بدل حاله من حال إلى حال. في البداية راوغ في الإجابة، فمرة يقول أنه تاجر في بعض الجواهر وجمع من ورائها مالًا كثيرًا، ومرة يقول أن لديه عمل مع أمير عظيم من بني أمية، وبعد محاولات عديدة مني وثقته فيّ، أطلعني على أمر خطير.

بلهجة مرتجفة قال العم: ما هو يا علي؟

اقترب علي أكثر مجيبًا: يعمل جاسوسًا لدى تاجر كبير ينقل له أخبار السوق، ويحمل الرسائل سرًا إلى أصحابها، مستغلًا ذكائه وعاهته في قدمه العرجاء، فهو بعيد عن الاشتباه في أمره، وبالأخص انتشار جند الوليد في كل مكان في أنحاء الشام والعراق يتحسسون أحوال الناس، ويفتشون عن العيون التي تنشر الفوضى، والجواسيس التي تعمل مع أعداء الخليفة. وأذهلني بسؤال أسكتني مدة من الوقت: أتريد أن تعمل معي؟

فربت العم على كتفه: وماذا أجبته؟

- حقيقة يا عمي ألجمت الكلمات في فمي، واسترسلت في التفكير مترددًا ما بين الحال الذي أعيش فيه من فقر وجوع، وما بين عنقي التي ستتأرجح على المقصلة إذا علم أمري.

- إنه عمل خطير يا بني.

- لذلك فضلت الفقر، وما بالنا بصراع الكبار أمثالهم، يكفي أن ثار أبي يومًا كما الكثير من الشعب فكانوا وقودًا لمؤامراتهم، وأطماعهم للحكم.

- ربما يا بني تقوم ثورة يستحيل توقع نتائجها، وسيكون الكثير ضحايا لها.

* * *

في الوقت الذي كان الوليد يرتع فيه في الملذات كانت عيون بني العباس على كرسي العرش يرون في أنفسهم الأحقية في الخلافة فهم أبناء عم رسول الله ﷺ، ولأنهم ذوي قوة وعدل يستطيعون أن يسيروا إدارة الدولة الإسلامية بحكم الله والشرع، بدلًا من أن انحرف بها بني أمية إلى نزاعاتهم الشخصية وأطماعهم الدنيوية. إن آل العباس أهل تقوى وصلاح، أهل علم وحكمة وهم الأحرى بالحكم، فكان سبيلهم إلى ذلك انتهاز الفرص واستغلالها بيد أنهم بدأوا من الموطن الذي يكن الكره والحقد لبني أمية بسبب عنصريتهم وتعصبهم للعرب حيث أن دولة خراسان

في فارس دخلها الإسلام ودخل الكثير من أهلها في الإسلام، غير أن بني أمية لم يحسنوا معاملة أهلها كما ينبغي، فيرون أنهم أعاجم ليسوا كما العرب في شغل المناصب والأعمال المسؤولة.

اتجه الإمام إلى خراسان سرًا واجتمع في دار أحد تجارها من الفرس الذين يظهرون الإسلام، فأراد أن يطلعه على أمر، وكان الأمر سريًا جدًا حتى أنه أصر أن يتأكد من غلق باب الغرفة جيدًا، فكما يقولون الجدران لها آذان، وأشار عليه في أمر التحالف معه بإمداده بالرجال الأشداء وكذلك بالعدة من تجهيز جيش سري قوي كي ينتزعوا الحكم من بني أمية وحينما علت بينهما ابتسامة ماكرة وإيماءة بالموافقة أعدوا الخطة.

- ماذا ترى أيها الأمام؟

- أريد رجلًا بألف رجل من بينكم تثقون في إخلاصه وتشهدون بذكائه يحالفني في مهمة نشر دعوة بني العباس سرًا حتى تتأني لنا الفرصة، بل الفرص وننقض على الخصم فنهتك به.

- عندي شاب بألف رجل، ذكاؤه يحير الألباب وفروسيته تفتك القلوب.

- إليّ به.

تلقى حارس التاجر إشارة في سرية تامة أن يذهب في التو إلى شاب يدعى أبو مسلم الخراساني يسكن في بيت أحد أغنياء الحي قام على تعليمه والاهتمام بتدريبه على الفروسية والجهاد. ولم تمر ساعة حتى أتى أبو مسلم فدخل محييًا شامخ الرأس، فكانت لطلته هيبة رغم صغر سنه، وفي عينيه دهاء صقر لا يخشى أحدًا، فأعجب به الإمام قبل أن تبدر منه كلمة، دعاه للجلوس بجواره وقبل أن يعرض عليه الخطة طلب منه القسم بالولاء والطاعة، فبادرهم أبو مسلم بابتسامة كبرياء ثم نهض من مكانه شاهرًا سيفه بقوة شامخ الرأس قائلا:

- أقسم بالله على الإخلاص لكما، ولن أبوح بالسر حتى لو كان السيف على رقبتي وجلس.

حينما عرض الإمام أن يتحرك أبو مسلم إلى أرض الشام ثم العراق متخفيًا في هيئة تاجر يتحسس أحوال العامة، ويتوغل في همومهم وأوجاعهم ثم يشرع في تقليب قلوبهم على بني أمية، يوعيهم بما فعلوه في انتزاعهم لحكم الشورى، ونهبهم أموال المسلمين، وخير دليل ما يفعله الآن الوليد بأموال المسلمين فلا يقدر أحد أن يمنعه أو يهديه لطريق الرشاد، فتتحول قلوبهم وأعينهم لأولاد أعمام رسول الله ﷺ، فهم خير من يرجع حقوق المسلمين مؤتمنين على الأمانة هذه، وهنا استئذن أبو مسلم في قول، فأذن له الإمام، فقال:

يا مولاي تعلم أننا لسنا وحدنا بني خراسان الناقمين على حكم بني أمية، لسنا وحدنا حاملين راية الثورة، إنما شيعة علي رضي الله عنه، والخوارج والكثير من القبائل، فإذا لم نكثف جهودنا فلربما نجد منهم من نزع الحكم لنفسه فقطع أعناقنا جميعًا.

استبشر الأمام وهلل وجهه قائلًا: أنت على حق يا خراساني، لذلك الجهد عليك كبير.

- أنا لها يا مولاي سأفعل كل ما في وسعي وطاقتي.

- وسيكون لك كل ما تطلب أيها القائد الهمام، تأمر وينفذ لك.

***

وصلت رسالة شديدة الخطورة والسرية للأمير مروان بن محمد الحاكم على الجزيرة وأرمنية، وكان في ذلك الوقت قد ذاع صيته وعلا نجمه وحيكت القصص حوله عن شجاعته وقوته، إنه قائد حربي محنك، فقليل أمثاله من يأخذون بالأمور الخفية التي لا يدركها إلا العالمين بطبائع ونفوس البشر، فها هو يعلم بنفسية محاربيه فقام بتكوين مجموعة قليلة من الجند، يجذل عليهم بالعطايا ويشد عليهم في قوة التدريب حتى يبدو الجندي بمثابة صقر ينقض أو أسد يفترس فيكون الفتك بالعدو سهل المنال، غير

أنه يعتمد أيضًا على عنصر المفاجأة الذي يشل حركة عدوه فلا يقدر أن يفلت منه.

وبينما كان جالسًا مع أحد مستشاريه يخطط معه في تنظيم فرقه العسكرية دخل حارس ومعه رسالة. فضها الأمير في التو حينما علم أنها من يزيد بن الوليد غير أن ملامحه بدت جادة أشد ما يكون، وعلت وجهه سحابة من قلق جلي، وطلب من مستشاريه الانصراف، وارتكن على مقعده يفكر:

يزيد يطلب مني معاونته في الانقلاب على الوليد، وهذا الأمر ليس بالهين، في تلك اللحظة استأذنت محظيته الفارسية هند بالدخول عليه فأذن لها، وحينما دخلت ألقت السلام "3".

- ما بال فراشتنا الجميلة تأتيني نهارًا في قاعة المستشارين؟

- مولاي الأمير منذ أن جئت إلى هذا القصر وأنا من سبايا الفرس، وقد صرت من جواريك ثم محظيتك الكاتمة لأسرارك، ونلت منك المعاملة الحسنة، والمودة والحب. وقد أقسمت أن أكون لك المخلصة الوفية التي تحفظ سر مولاها وتفديه بروحها.

كانت نظرات مروان محدقة إليها ينتظر ما ينتهي به حديثها لا يريد أن يقاطعها فهو يعلم أنها إذا ما قالت هذا الحديث الجاد المبدوء بالمدح والإخلاص فمؤكد أنها تحمل إليه ما يشغلها وما قد وصل إلى مسامعها من أمر جلل. بيد أنها قد احتلت مكانة في قلبه، فهي ليست على درجة وافرة من الجمال فحسب كما يتصف أبناء الفرس بل إن أجمل من وجهها المليح وابتسامتها الساحرة، ذكاؤها المتقد وحدسها اليقظ، في التنبؤ بما سيحدث، هي مبهرة وجميلة حد الافتتان، امرأة في الثلاثين تسلب لب أي زاهد أغلق نفسه عن الحياة.

استكملت بعد صمت للحظة: مولاي الأمير شغلني ما شاع في القصر من أخبار، فهمني الأمر وتنكرت في زي تاجر ومعي الحارس الهمام إبراهيم بن علي، ونزلت إلى السوق أتحسس أحوال العامة، وألتقط ما يدور بينهم من أحاديث خفية عما يقال عن الخليفة، وما تخبئه نفوسهم تجاهه. إنهم يا مولاي ساخطون أشد السخط على حكم الوليد يتهامسون عما يحدث في الشام والعراق ويخشون أن ينالهم ما ينال هؤلاء، فالخليفة منشغل عن أمر الأمة بالملذات واللهو، غافل عما يفعله جنده في فقراء الناس فلا يراعون فيهم عهدًا ولا ذمة، ولا يرحمون فقرهم وضعفهم يفرضون عليهم الضرائب وإذا ما دفعوا جروهم إلى السجن، أو سبوهم بالضرب والإهانة أمام أعين الخلق. هكذا يفعل في مسلمين ضعفاء من ملتهم، فما بالك بما يفعلونه في من هم من غير ملتهم، إذ ينكلون بهم أشد التنكيل، كل همهم جمع الأموال من الشعب، غير أن أذرع الفتنة بدأت تطال كل شيء، علمت أن البعض يدعو للانقلاب على الخليفة وتهيئة الناس إلى تحرك بني العباس فهم يدركون كيف يدخلون من الثغور التي غفلتم عنها جميعًا.

- مولاي الأمير إني أخشى بين ليلة وضحاها أن يُسلب منكم ملك أباءكم وأجدادكم،

وتصيرون إلى التشرد في البلاد تتعقبكم سيوف المتآمرين، فالحذر كل الحذر من بني العباس، أذرعهم تتحرك في أنحاء البلاد كما أخطبوط تملك من فريسته. مولاي لا بد من الحذر ثم الحذر، كيف ترضى بأن تؤول بقاع هذه الدولة العظيمة إلى أرعن مثل الوليد يتصرف بها كما يحلو له؟ أرجوك يا مولاي إن حدسي يقلقني فلا أستطيع الاطمئنان أبدًا. إن الأمر جد خطير، فلا يغرنك هذا السكون الذي يعم إمارتك، فلربما طالتها يد الفتنة وانقلبوا عليك، وإني أخشى أن يتمزق قلبي خوفًا.

حز في قلب مروان نظرات القلق التي تعلو وجهها فصمت برهة ثم قال بأسف:

- لا أخفيك سرًا يا هند، إن العواقب قادمة، وإني أحس بأكثر مما تحسين به، فإذا ملِّك الحكم للسفيه فلننتظر ساعة الهلاك. لقد تدنسنا بأدران لا نعرف كيف نمحوها؟ قبل دخولك بلحظات وصلتني رسالة من يزيد يطلب مني العون والإمداد في نزع الحكم عن الوليد، فالأمور لم تعد تطاق، ويخشى أن يقوم العامة بثورة يستغلها المحرضون والأعداء من الداخل والخارج وعلى حين بغتة نجد أعناقنا معلقة على مقاصل الإعدام.

- وماذا ترى يا مولاي؟

- الأمر محير، فليس لي خيار في ذلك، أي مسار لا يقل عن الآخر مرارة، فلو رفضت المعاونة ربما يعلم الوليد بما ينويه يزيد ويقتله، ويطولني شيءٌ من غضبه، ولو وافقت وحدث ما أردنا ينقلب علينا العامة ويحدث ما لا يحمد عقباه.

- إذن يا مولاي اختر الأقل ضررًا.

- نفسي تحدثني أن أعاون يزيد، لكني أراه وقد كبر سنه فلو أخذ البيعة له لن يقدر على حسم أشد الأوقات تحولًا ما بين حاكم وآخر، أراه لن يقدر على نزع فتيل

الفتنة، وهي فرصة الأعداء والمحرضين.

- وهل لمولاي فكر آخر؟

- نعم... لي مسار آخر سيحتاج مني تفكيرًا عميقًا وخطة محكمة، إنه ليس هينًا، ليس هينًا، إنها يا هند إما بداية لنا جميعًا أو نهايتنا جميعًا. اعلمي يا هند أن ليس المهم أن نقاتل بل أن نربح المعركة أيضًا.

- أنا متأكدة أن هذا هو الأسلوب الأوحد.

- هل تعتقدين حقًا بأنك قادرة على تتبع الأخبار في سرية ودقة لو أرسلت إلى بلاد الشام؟

- أجل يا مولاي، فأنا لها ولو بحياتي.

- أقدر قوتك وذكاءك، فمثلكِ لن تغلب أبدًا.

- لست ذكية كما تتوقع، بل امرأة تناضل من أجل شيء أقسمت عليه بينها وبين نفسها.

كانت تعرف مدى ثقة هذا الرجل في عقليتها، وقلما يخطئ في تقييم أموره، ستبذل كل ما بوسعها كي تنفذ هذه المهمة على أكمل وجه.

وعلى الرغم من كل ما أحيط به مروان علمًا من نية يزيد في قتل الوليد والتخلص منه نهائيًا ومن أتباعه، إلا أنه أحس بأن الأمور لن تسير كما يريد هو أو يزيد، لا بد من خطة أخرى يستطيع بها التحكم في كل مجريات الأمور، وهنا بدأ يحدث نفسه حذرًا في سرية تامة حتى لا يعلم أي أحد بما يدور في خلده:

لعلي لو اخترت أن أختبر منزلتي عند البيعة لي، سأندهش من مدى نفوذي... على أية حال لو بدا تغير في مسار الأمر عن يزيد، فلن يعدل هذا من خطتي تلك، فليس من السهل أن أترك يزيد ينفرد بالحكم وحده، فلا شيخوخته تؤهله للسيطرة التامة، ولا عقليته تمكنه من الإحكام الشديد على هجمات المترصدين، لا أستطيع أن أنكر أن له الفضل الكثير في توطيد الصلة بيننا وبين القبائل، وأنه له الجميل في رسائل السلام التي يرسلها لأعدائنا في الغرب حينما تشتد الأزمات داخل الدولة خاصة في العراق، لا أحد ينكر النزاع المحتدم مع الشيعة وتقلبهم يومًا بعد يوم مرددين العبارات والشائعات التي تهيج مشاعر العامة ضد الخليفة.

وفجأة استولى عليه شعور لبرهة بتأنيب الضمير، وأن ما سيقدم عليه يعد خيانة لعهده مع يزيد فقد وعده أن يمده بفرقة قوية من جنده، تمكنه من دخول قصر الوليد معاونة مع بعض أعوان له في القصر فضلًا عن بعض عيون للقبائل اليمنية كي يستطيع قتل الوليد دون إحداث أي فوضى أو قتال، وبعدها سيكون أمامه الطريق ممهدًا للبيعة له، وسيكون هو أول من يبايعه خاصة وأنه القوة المتماسكة من الأمراء حتى الآن، هذا ما اتفقوا عليه.

وقد ساوره الشك فلربما يخلف يزيد عهده معه وينكل بمن ساعده وعاونه ويكون هو أول المنكل بهم، لكن كما جرت العادة بأن الخلافة يوصى بها لولي العهد ولربما يأتي ولد الوليد ويطالب بحقه كخليفة بعد والده المقتول، ولربما يقلب قلوب الناس على يزيد ويكون غصة عصية على الترويض.

وقد راوده شعور آخر بالقلق الشديد في قرارة نفسه، ولن ينجيه سوى أن يكثف جهده ويبذل ذكاءه متذكرًا كل الهواجس التي جالت في نفسه، فهو ليس بمنأى عن يد الغدر أن تطاله، وليس ببعيد عن إقصائه عن المشهد السياسي.

هكذا انقلب الآن ذاك الجانب الآخر الذي يتأرجح ما بين الخير والشر، ما بين التبرير والتأنيب، ما بين المحتم والمجبور، لا ريب أن مصالح السلطة لها دوافع تختلف عن دوافع الفرد، فحماية دولة بأكملها تستدعي أن توضع الدوافع بشمولية فلا نظرة هنا لكيان فرد في محيط عميق من بشر.

ونتيجة لهذا أراد مروان أو بمعنى دقيق اضطر أن يقلب الطاولة وكل ما عليها لحسابه وحده، هنا تستدعي مصلحة الدولة وجود قائد متمكن، وليس في بيت الأمويين غيره يستطيع أن ينفذ هذه المهمة ويأخذ دفة الأمور لبر الأمان.

في غضون أيام قليلة تمت الخطة وقتل الوليد وسط جنده الخائن، وأعلنت حالة الطوارئ في البلاد بيد أن يزيد أعلن على الفور البيعة لنفسه دون أن يستشير أي أحد من بيت الأمويين، أو حتى إقامة مفاوضات وصفقات وخاصة مع مروان بن محمد الذي ساعده بعدد من الفرق العسكرية التي لولاها لفسد مخططه، وانقلب السحر على الساحر، لكن أيضًا لم يتوقع يزيد أن يعلن مروان رفضه التام لهذه البيعة، مطالبًا أن تقام المشاورات أولا.

وتبرعت القبائل اليمنية أن تعقد مبادرة توافق بين الطرفين شريطة أن يرغم الجميع على التنفيذ، وبثت في الأجواء حالة من الانقباض والترقب، وانخرط يزيد في محاولة بائسة ليجمع مضمون الميثاق الذي تم بينهما فيما سبق، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل. وكذلك فشلت مبادرة القبائل قبل أن تتم نظرًا لكبرياء يزيد وتريث مروان وطمع أمراء بني أمية، وقد ترددت أصداء من كل حدب وصوب، وتراءى للجميع مدى السخط الذي عم على وجوه أهل الشام والعراق وتبعته حالة استياء عامة في أهل الحجاز فقد استنكروا جميعا قتل الوليد، فمهما وصل من فجوره ولهوه، لا يأملون أن يراق دم الخليفة، فهذا نذير شؤم على الأمة جميعا.

وبينما كان يجتاز مروان ردهة القصر أخبره حارسه بقدوم الخليفة المحتمل يزيد، جاء بغتة دون توقع مما اضطر مروان أن يعيد ترتيب أفكاره جيدًا كي يستطيع إقناع يزيد بموقفه، هو لا يريد حدوث خلاف بينهما، ولا نشوب معاداة وخصومة إنما لا بد من تقديم مصلحة الأمة على أي حساب.

على كلٍّ لا بد من المواجهة بينهما مهما كانت النتائج، استقبل مروان يزيد استقبالًا يليق به متوددًا بعبارات التفخيم والترحيب وبهذا سيخدم غرضين مهمين: الأول أن يهدئ من غضب يزيد، ويخمد ناره المشتعلة. والثاني: إظهار مدى قوته وحكمته

كي يأمن من سطوة يزيد بعد ذلك إذا ما انقلبت الأمور ضده، ولم يتمكن من استخلاص الخلافة له، أو ربما تحذيره من مغبة إصدار أي ضوضاء في قرار سيادي يعزله عن حكم الجزيرة وأرمنية.

جلس مروان يغشاه الصمت على حين ابتدر يزيد قائلا:

- ما الذي دفعك ألا تبايعني على الخلافة وقد كان الاتفاق فيما سبق على المعاونة في خلع الوليد من الحكم لما جلبه لنا وللأمة جميعًا من سمعة يخزى التاريخ أن يسجلها في صفحات حكم بني أمية، أنت الأعلم بما دار بيننا من اتفاق وإمداد فلِمَ الآن النكوص عن العهد؟!

كان مروان يتفحص وجه يزيد ويحدق إليه مستشفًا ما يدور في خلده وكأنه يريد أن يصل لنهاية مراده، قارئًا كل أفكاره عليمًا بعقم محاولاته، فهو قليل الحيلة، كثير الكلام، لا يتصرف بمفرده دون أن توضع له خطة ومنهاج يسير عليه، فكيف له أن يتغافل عن كونه المسبب الأول والواضع لخطة الانقلاب وخلع الوليد، بل قتله اتقاءً لشرور أتباعه، ومحوًا لآثاره بعد ذلك.

ثم استأنف يزيد حديثه الغاضب: أموقن أنت يا مروان مما تفعله؟ إنك تلعب بالنار، فماذا يقول الشعب عنا لو فطن لهذا الخلاف الكارثي بيننا، لا بد أن تعود لرشدك وتبايعني معلنا هذا أمام الجميع؟

لم يجبه مروان على الفور بل ظل صامتًا لبرهة، وحين تكلم بدا حازمًا، شديد الثقة، كما لو أنه هو الحاكم، تلمع عينيه بالحماسة، وترن الكلمات في حلقه بقوة:

أيها الخليفة المحتمل، أو كما تتمنى أنت.

لقد هزت العبارة نفس يزيد متحاشيًا النظر إلى عيني مروان، وكأنه يحتاج إلى بضع دقائق كي يقنع نفسه بصحة ما يقال.

واستأنف مروان حديثه بعد برهة صمت:

- إن هذه الأمة في جعبتها الكثير من الخبايا والمفاجآت، وإن كنا لا نعيرها اهتمامًا، لكن لا بد الآن أن نعيرها كل الاهتمام، لا بد أن نسلط عليها كل أنظارنا وأيضًا سلاحنا وجيشنا إذا اضطرنا الأمر إلى ذلك، لا بد على الحاكم أن يتخذ الحذر في كل الأوقات، فإن سلم من أعدائه في الخارج بالهدنة حينًا، فإنه لن يسلم من أعدائه في الداخل ولو عقد معهم ألف هدنة.

توقف برهة عن الكلام، وكأنه يتذكر شيئًا قد جال بخاطره، واستنهض نبرته الجافة مصحوبة بنظرة حادة حاسمة:

- لن أتراجع عن موقفي، فمصلحة الأمة معي أنا.

وانخفض صوت يزيد وكأنه يتمنى بطريقة أو بأخرى ألا ينتهي كلامهما هكذا: أأنت مقدر عواقب ما تفعله؟ دعنا نعقد صفقة فلو تمت البيعة لي، سيكون لك كل ما

تطلب؟

انتهى بهما الأمر إلى أن تنهد مروان تنهيدة عميقة، وزفر زفرة كأنها الخاتمة بينهما، ومن ثم لم يكن غريبًا أن تتراءى له الكثير من الأشياء وقد غابت عن عقل يزيد الضيق، هو يفكر في النتائج في حين ينظر يزيد إلى الحالة في ذاتها، أي أن تفكيره يدور في نطاق المفروض، إنما مروان يتسع تفكيره إلى ما هو أبعد من المفروض والمحتم

والمتوقع والقادم.

واستعر الغضب في يزيد أشد مما كان، وبنبرة زاجرة صاح: لن أغفر لك موقفك هذا يا مروان لن أغفره، وستندم أشد الندم.

***

وحينما كان مروان ينظر في المرآة معدلًا هندامه ويتأمل جليًا صورته خليفة لأمة الإسلام، وقد بدت هيئته كلها ثابتة وإذا به يسترجع ما حدث منذ ثلاثة أشهر وقد علت صيحات التذمر ضد يزيد في بلاد الشام والعراق، وحدث نفسه كما لو أنه يبرر شيئا ما:

- لقد حاولت في الماضي أن أقف موقف المتسامح تجاه تلك الفتن، وأنأى بنفسي بعيدًا محاولًا أن أبعد الجزيرة وأرمنية عن فتن الشام والعراق، لكنها تفاقمت حدة وتطرفًا، وأبت الخطوب إلا أن تدفعني دفعًا تحت رحاها، وما كان يصلح في السابق من قناعات بات اليوم موقفًا سلبيًا كالمتفرج على بيته تنهبه الأعداء، إنما دماء آل أمية وشهامتهم تغلي في عروقي أن أنهض مشمرا كي ألملم مُلكًا أوشك على الانهيار، لن أستهين بفعل صغير ربما تكون الفارقة التي توقف نزيف الفتن بين المسلمين. ولقد أفسدت تلك الأحداث مزاجه.

وعلا سكون قطعه دقات هند الفارسية تستأذن الدخول:

- مولاي الخليفة، خليفة المسلمين هلا أذنت لي بالحديث معك؟

أشار لها مروان مبتسمًا في ود: الأميرة لا تطلب إذنًا، بل كل الأبواب لها مفتوحة.

علت الابتسامة وجه هند وبادرت قائلةً: حفظ الله خليفتنا المبجل، فلولا أن نلت البيعة يا مولاي، وتحركت لكي توقف نزيف الفتن، لربما كانت بلاد المسلمين في أشد أزماتها وقد انهارت وتملك منها الأعداء في الداخل قبل الخارج.

- تعلمين يا هند ماذا جرى حينما تعنت يزيد في التنازل عن الخلافة لي، وظهر يكابر أمام ثورة العامة ضده ساخطين عما فعله في الوليد، وكيف انقلب عليه وقتله. غير أنه لم يترك الخلافة لأحد أبناء الوليد، وإنما بدأ يطاردهم حد القتل، وما كان مني أن أقف متفرجًا ودماء المسلمين تنزف هنا وهناك ما بين أتباع يزيد يحاربون من يخرج عن بيعته ويسفكون دماءهم، وما بين أبناء الوليد يرون أن أي أحد من

أبنائه أحق بالخلافة، فهو الوريث الشرعي وليس يزيد، شاهرين السيف أمام من يعارضهم.

- أخذت القرار وجهزت فرقي العسكرية متجهًا إلى قصر يزيد طالبًا منه إما التنازل عن البيعة لمن يقدر عليها، وليس لها غيري، وإما أن يلحق بالوليد وينال نفس الجزاء، إلا أن الله رحمه فوافته المنية قبل أن أصل إليه.

- يا هند إني أتدبر حقيقة ما يحدث بصورة أوضح، لأفطن إلى أن سياسة الحكم لا تعترف إلا بالأقوياء فحسب، أولئك الذين يحكمون البلاد بالقوة والحزم أولًا، ثم ما إن استتبت لهم الأمور أخذوا يُسيّرون الدولة إلى ازدهارها ورفعتها.

أتصور أنه من الطبيعي أن أتحرك بكل قوة الآن وقد انتزعت الخلافة كلية من أبناء الوليد بعدما طمحت نفوسهم وظنوا أنها يسيرة هينة بعد موت يزيد، تبا لهم جميعًا! لم يكن ليحصلوا عليها أولئك السذج الحمقى، هم لا يدركون أن ملك الأجداد والأباء أوشك على الانهيار، فإن ذهبت الخلافة إليهم، لن تمر أشهر قليلة إلا وقد استولى عليها بنو العباس، أولئك الذين يترصدون لكل شاردة، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى، إن طموحهم أكبر لا من نوع ملكنا فحسب، بل إن دعوتهم تريد أن تضرب بعمق في جذور أمجادنا العربية، إن تحالفهم مع الفرس لن يؤدي إلا إلى توغل الأعاجم في أركان الدولة، وهذا الخطر الحقيقي بعينه، إني أتابع تحركهم بدقة، وأرى أذرعهم قد تشعبت وامتدت وصارت صعبة القطع، إنها تتغذى على ضعفنا وصراعنا، تقوى حينما يشتد بنا النزاع والتهاون. الآن بمقدورنا نسيان التجاوزات الماضية والتطلع للمستقبل، إن التفكير في الخسارة لهو أمر بشع.

إنني ماضي العزم في طريقي المتوجب علي، لا بد أن أحفظ دولة المسلمين من أي انهيار، أتعلمين يا هند لو انهارت هذه الدولة فماذا سيحل ببلاد المسلمين؟ أي دمار وخراب ينتظر هذه البلاد، لن ترحم من حروب قاتلة شديدة الوطيس دون هوادة ستأكل الأخضر واليابس، فكما ترين الفتن قائمة ما بين جماعات وأحزاب، أتعلمين يا هند يموت الشبان الشجعان لأسباب غبية، والمجرمون الحقيقيون يركبهم الخوف من أن يظهروا على حقيقتهم.

فإثارة أفكار مريبة يتزعمها رجال لبني العباس، هي بالقطع سبب كاف لأن أجمع قوتي العسكرية، وأكون على أهبة الاستعداد، كذلك لا بد أن أقدم ما يرضي العامة لنزع قلقهم واستيائهم مما حدث من الوليد ويزيد.

كان المرمى الأساسي الذي يهدف إليه مروان من حديثه هو إعادة قيام دولة بني أمية على أسس مراوانية أي من فرع بني مروان، لكي تحكم لعقود أخرى أو ربما لقرون قادمة كما هو الحلم الذي يراود أي حاكم كان. إن طموحه السياسي أكبر مما كان متوقعًا منه، فقدراته الذهنية والعسكرية تؤهله لذلك، وهو وإن كان في منتصف عقده الخامس إلا أنه يحمل قوة عشرة فرسان، صفاته الجسمانية وقوته البدنية تؤهلانه لأن يهيمن على العرش ويتربع عليه لسنوات قادمة.

وتظل الحقيقة التي لا ريب فيها أن مروان يخطط لبناء كيان سياسي جديد مختلف عما أرسى سابقوه، فهو تعلم أن يدرس جليًا الاتجاه الذي يدفع إليه.

وكأن روحًا أروع وأشجع تبزغ الآن في أرجاء بلاد المسلمين، وبدا أن الأيام الخوالي

ستعود، وأن مفاوضات بالغة الدقة ستقام بينه وبين أمراء بني أمية بغرض إبطال مفعول سمومهم ضده، بل كسب ودهم واستمالتهم إلى صفه خشية خيانتهم وغدرهم.

لقد انتقى وزراءه بمهارة، هذا فضلًا عن دقته الشديدة في اختيار مستشاريه، وهذه مهارة تستحق الإعجاب؛ فكانت النتيجة التي ظلت تتسع في أذهان وقلوب كثيرين من أهل الشام. إنه يدير إدارة الدولة بحكمة بالغة، فذات مرة أخبره وزيره سليمان بن محمد -بما يشبه الانتقاد- عن الأموال التي ينفقها في سد ديون فقراء المسلمين، وإعفاء الكثير من عجائز العجم أهل الذمة من الجزية، ومنح كثيرين من الشباب أموالًا لمساعدتهم في تجارتهم الصغيرة.

- ألا ترى يا مولاي أن كثيرًا من الأموال تصرف دون سد مكانها في خزينة الدولة؟ كيف يتأتى لك قول هذا يا سليمان؟

ثم بدا وكأنه أدرك فحوى سؤال وزيره فأجابه:

- بيوت وقصور آل أمية تضم كثيرًا من التحف النفيسة، من الغد أرسل الحراس إليهم يجمعون هذه التحف أو يسددون بدلًا منها أموالًا وتودع في بيت أموال المسلمين لسد أي عجز فيها.

***

وفي مساء يوم الثلاثاء من شهر ربيع الثاني لعام ١٢٨ من الهجرة وصلت رسالة من نصر بن سيار والي خراسان يخبر فيها الخليفة مروان بن محمد بأمر شديد الخطورة عن شاب شديد الدهاء والحيلة يدعى أبا مسلم الخراساني يتحرك في سرية وخفاء مدعومًا من آل العباس، يمدونه بالمال والجند كي يمهد لدعوتهم بين الناس، ويخلخل ملك بن أمية منتهزًا الفرص، ناشرًا الفتنة بين العامة مستغلًا سخطهم على بني أمية.

وفي نهاية الرسالة قال: إنه رجل خطير، ربما يحدث أمرا غير متوقع. سيدي الخليفة لا بد من الاحتياط منه، والتخلص منه في التو، قبل أن يحقق مراد بني العباس.

في الوقت الذي أرسلت فيه هذه الرسالة، كانت هند تلعب دورًا غاية في الأهمية في أكثر من موقف، فقد تناهى إلى علمها عن طريق بعض المخلصين من أهل الشام والعراق والحجاز الذين يفِدون عليها ببعض الأخبار عما يُتناقل بين الناس وما يُشاع بينهم، فاستطاعت أن تكشف عدد غير قليل من عيون بني العباس وغيرهم من المتمردين من الخوارج والشيعة، بيد أنها أيضًا كشفت معاقل بعض رجالهم التي

يحرضون فيها الشعب ضد الخليفة وبالطبع لم يخف عليها أمر أبي مسلم، فقد وصلتها رسالة أيضًا تحذر من خطورة دعوته السرية، وعن خططه التي تنفذ بدقة في أرض العراق خاصة، وقبل أن تخبر الخليفة عنه أخبرها هو عن هذا الثعلب:

- رنت إليه وعيناها مسكونة بحيرة: ماذا ترى يا مولاي؟ أخالك مهموما لهذا السبب؟

- على الحاكم أن يقدر حساسية هذه الأمور.

- أعرف أنك ستحسن الحكم على الأمور كما هو دأبك.

- لا بد من اعتقال هذا الداهية يا هند، ولو أدى ذلك إلى قتله حماية لأمن دولة الإسلام.

- سأبذل قصارى جهدي يا مولاي كي أنفذ ما تريد.

- لست متأكدًا من فهم مرماك يا هند.

- أنا فارسية الأصل يا مولاي ولن يفهم نفسية هذا الثعلب ونواياه مثلي، سأتتبع أثره حتى أصل إليه وأستطيع أن أحكم خطتي وألفها حول عنقه، فإما أن أجلبه إليك مقيدًا بالسلاسل، وإما أن أوافيك برأسه مفصولًا عن جسده.

صمت مروان لحظة يتدبر كلام هند في رأسه فتنهد قائلا:

- عليك التحلي بالمزيد من الكتمان يا هند، الأمر جد خطير، ثم صاح متراجعًا: لا... ليس لدي استعداد أن أفقدك مهما كان الأمر، سأتولى أمره بنفسي.

- لا تخشَ عليّ يا مولاي، سيكون معي حارسك الأمين إبراهيم بن علي.

- إذن... على عاتقك تقع كثير من المهام، احترسي جيدًا.

استطاعت هند بمعاونة إبراهيم بن علي معرفة البيت الذي يقيم فيه أبو مسلم في العراق، وقد همت بتنفيذ خطتها، فاتجهت إليه في ثوب جارية تطرق باب بيته بشدة كي تحتمي من سيدها الذي يريد بيعها في السوق، وما إن فتح أبو مسلم الباب بحذر شديد حتى وقف مكانه مشدوها من شدة جمالها ونظرة الضعف والرعب في عينيها فسلبت قلبه، فبادرها قائلًا: من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

أنا جارية فارسية من خراسان أدعى "سبيل" ، هربت من سيدي الظالم يريد بيعي فهلا آويتني في بيتك؟

نظرة الضعف التي بدت في كلامها دفعته أن يدخلها سريعًا إلى داره قبل أن يجدها سيدها وقد تناهت إلى مسامعه ضجة شديدة فخيل إليه أنه سيدها يبحث عنها.

التقطت أنفاسها قائلة: أشكرك يا سيدي، فجميلك على رأسي، فلو قبلتني جارية لك سيكون فضلك دينًا في عنقي، فلا أريد أن يجدني سيدي الظالم ذاك.

تردد أبو مسلم برهة فمنذ أن وطأت قدماه أرض العراق منذ سنتين لم يدخل أي من البشر داره كي لا يكشف أمره، فكيف الآن تدخله هذه الجارية الجميلة؟ وساد صمت للحظات قطعته نظراتها المتوسلة ضعفًا، وتحت ضغط تلك النظرات اضطر أن يقبلها لمدة أسبوع فقط حتى يجد لها مكانًا آمنًا.

في اليوم التالي كانت هند قد تفحصت المكان جيدًا، ثم تسللت في حذر شديد وبسرعة متناهية كانت قد قرأت معظم الرسائل التي كتبها أبو مسلم باللغة الفارسية إلى أتباعه في العراق ليوصلوها إلى بني العباس في خراسان، كشفت معظم أسرارها ونصبت له فخًا يطبق عليه في المساء حينما تغمض عيناه ستتسلل إلى باب الدار وتتركه مواربًا كي يتمكن إبراهيم بن علي من التسلل خفية مع فرقة قوية من الجند، تبادر إلى اعتقال أبي مسلم، وبالفعل تم المراد لكن أبا مسلم لم تغمض عيناه كما توقعت، كان كما ذئب يخدع بإغماض إحدى عينيه والأخرى مفتوحة، لا يأمن على نفسه في أي مكان، قاتلهم بقوة مدافعًا عن نفسه وعن تقيده بالسلاسل لكنهم تمكنوا منه فقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوها مع هند كما وعدت الخليفة مروان.

***

لم تكن هذه الضربة "قتل أبي مسلم الخراساني" أمرًا هينًا مرّ على بني العباس، بل طعنة في الظهر شلت حركتهم، وأوقفت تفكيرهم لحين من الزمن، وكانوا يعون تمام الوعي أن ضربة مروان هذه ضربة موجعة شديدة، دمرت كل ما بنوه من تكتيك وتخطيط في الأعوام السابقة. بيد أن مروان استطاع أن يكشف كثيرًا من عيونهم في الشام والعراق، فقضى على بعض جواسيسهم بإعدامهم أمام العامة في وضح النهار بجريمة الخيانة. أدرك العباسيون الآن أن مروان ليس بالحاكم السهل كما توقعوا، وكما توهموا من أنهم أوشكوا على التمكن من الخلافة بعدما قربت نهاية دولة بني أمية، يا لها من تسديدة ضربت في مقتل!

«كان هناك ملك قوي يدعى أوفا... كان له سد كبير بني بين ويلز وميرسيا من البحر إلى البحر»

الراهب آسر في سيرته الذاتية لألفريد العظيم

المسار الأول

بقلم: لمياء عبد السلام

بدأت الحكاية في زمن ما بين القرن الرابع الميلادي ومنتصف القرن السادس الميلادي، حينما انسحب الرومان من بريطانيا، لتتعرض مباشرة إلى دفعة من الغزاة الجرمان، والذين اصطلح على تسميتهم بالأنكلو ساكسونيين. كان هؤلاء القوم عبارة عن خليط من ثلاث مجموعات بشرية، اندمجت فيما بينها، وهم الساكسون، الإنكليز، والجوت. وقد نشب صراعٌ عظيمٌ بينهم أدى إلى استقلال كل مملكة على حدة، حتى بلغ عددها، سبعة ممالك رئيسية، عرفت باسم الهيبتاركي، وهي تضم وسكس، سسكس، اسكس، ايست انجيليا، مرسيا، نورثمبريا، وكنت. وبفضل جهود ملوك مرسيا وخصوصًا الملك ايزلبارد، آلت السيطرة عليها إلى مملكة مرسيا. وبعد مؤامرة أودت بحياته غدرًا عام ٧٥٧ ميلادية، تغير المشهد كليًا، فقد استلم ابن عمه أوفا ركس الحكم.

لم يتردد هذا الرجل القوي والحكيم مرةً واحدةً في رأب الصدع الذي أصاب وِحدة مرسيا، نتيجة الحرب الأهلية، ونتيجة للثورات التي أدت إلى تفكك الاتحاد الكونفدرالي، فحاول جاهدًا وعلى مدى سبع سنوات من توليه العرش، إخضاع باقي الممالك السبعة وتوحيدها. وبعد تعب شديد، ها هو ذا يحقق الحلم العظيم، ويوحد البلاد، تحت مُلك واحد لكل الإنكليز، فاستحق بجدارة لقبه الذي يهتف به في كل مكان، «ملك انكلترا».

أحس الملك أوفا بتعب شديد، باغت وجدانه، وأنه بحاجة أن ينشرح صدره أكثر، وأن يتزكى عِلمه ليُصبح أكبر، فقرر أن يمضي نحو رحلة وجدانية إلى بيت المقدس، يرى من خلالها أحوال الأمم التي يمر على بلدانها، وأن يلتقي بالعلماء، وينهل من المعارف التي خفيت عنه. وها هو ذا يجلس تحت سفح جبل الزيتون، يراقبُ حركة الحجاج، رجلٌ ضخمٌ، شموسٌ، ذا هيبة، يعلو وجهه شقار، على غرار أبناء منطقة الثلوج، يتمتعُ بعقل راجح يستطيع أن يوازن به بين ثقل الجبال، وعظمة وضراوة أي جدال، ومع ذلك يفيضُ محياهُ لطفًا ومؤانسة، ما أن يبتدأه أحدٌ بحديث، وهذا ما جعل التاجر يوسف القرطبي، يقترب منه، ويبرم معه ضفيرة جميلة، لصداقةٍ وثيقة، فقد كان الرجل مثله يسلك سبل البحث عن الحقيقة، والمعرفة، فهو مولد من أبناء قرطبة أدرك الإسلام قلبهُ، فاستسلم له، وغدا بعد ذلك يتزود من فضائله.

كانا يلتقيان عند سفح الجبل مرارًا، يتسامران، ويتطارحان الأفكار، ويتحدثان عن أحوال البلاد والعباد، وعن معتقداتِ قومهما، فكان حينها الملك أوفا يستنكر العديد من العادات والتقاليد، ويسعى جاهدًا نحو فكرة، جعل أبناء شعبه يتحولون عن جهلهم وفوضاهم إلى طبيعة تشبه إلى حد كبير الفطرة السليمة التي فطرها الله تعالى، فلم يعد خفيًا على أحد، بعد أن نال ما طلبه وتمناه في رحلته تلك، حينما

شرب من كأس العلم، وأكل من زادِ المعرفة، وعلم عن معادن الرجال، إعجابه الشديد بالعقيدة

الإسلامية، التي بحث بين ثناياها، ونقب بين غضونها، من خلال تعامله مع التجار الأندلسيين أولًا، ومن خلال رحلته الوجدانية تلك، ولقائه بالعلماء ثانيًا، سأله يوسف بفضول، وماذا بعدُ أيّها الملك؟ ماذا بعد هذا التحول الذي أصاب وجدانك؟! لعمري... إني أرى فيك خيرًا عظيما تحمله بين جنبات صدرك غير أن هذا الخير الذي تسعى لنشره... أتراهُ مقبولًا من طرف قومك؟!

تنهد الملك قليلًا، وبدت على سحنته غلالة خفية من القلق، لكنه أجاب، بنبرة شديدة الثقة:

- لا تقلق يا صديقي يوسف... كل شيء سيكون في أوانه!

وهكذا بقيت تلك الكلمات عالقة في عقل يوسف، طوال رحلة العودة إلى الديار، يحاول أن يجد لها بدايةً لذلك الأوان، الذي ضرب الملك معه موعدًا.

استقبلتهم بعد لأيٍ الطريق، قرطبةُ ببساتينها المزهرة، وعبق ياسمينها الفواح، وشوارعها المرصفة، وبيوتاتها الجميلة، لقد كانت حسناء تأبى العيون غض الطرف أمام روعتها، وقد استُقبل الملك في أحد البيوت الفخمةِ، لأحد الرجال المعروفين في البلاد من أهل مزاحم، لما كان بينهما من علاقة تجارة وصداقة قديمة. جلس أوفا لبعض الوقت مبتهجًا، مستمتعًا بخرير مياه النبع في ذلك البستان اليانع، وحفيفُ أشجاره عبارة عن لحن شجي، ينثر معه عبق الياسمين الذي يتساقط على الأرض، وإذا به يلمح من بعيد، طيف جارية تتهادى مع ذلك السحر، تسير حيث تتساقط ندف الياسمين، كأنها حورية من الحوريات، انبثقت من جمال تلك الأمسية الأندلسية الرقيقة، تغير الرجل واعترته رجفة، أصابت قلبه بحرارة عجيبة، فإذا به بغتة يسارع للسؤال عن هوية الصبية، ليعلم أنها ابنة أخ مضيفه، فأسَرَّ ما انبثق في نفسه اتجاهها، لكنه لم يزل كذلك، تُراود صورتها خياله، تقتحمه دون استئذان، حتى أذعن لخفقات قلبه، وأعلن عن طلبه في الارتباط بها.

وماهي إلا أيامٌ حتى قبل القوم خطبته، فأقاموا الأفراح، وأعلوا الرايات، وسمعت الأهازيج، والموشحات، وتعالت التبريكات، ثم مضى بأهله نحو بلاده، سعيدًا بهذا التصاهر، وبهذه الحورية الجميبة، والزهرة الرقيقة، التي ومنذ أن رآها وهو مصمم على أخذها معه إلى بلاده، وكيف لا وهي ياسمينة قرطبية، تشبه زهور الياسمين، التي فتنته، وذكرته بمشهد بداية موسم تساقط الثلوج في وطنه، غير أن ندفةَ الياسمين البيضاء هاته... لها عِطر فواح عفيف، وحضور دافئ لطيف، وكذلك أضحت نفسه منذ ذلك الحين. صافية، دافئة، لا يملؤها إلا الخير والأمل في المستقبل.

ابتسم بلطف وهو يلتفت إلى زوجته الجديدة، التي وضعت تلك الشجيرة الصغيرة للياسمين، والتي أصرَّ على إحضارها معه، في أصيص كبير، كي يتم زراعتها في

حديقة البيت، حملها بيديه القويتين، ووضعها في مكان أمام شرفة مخدعه، ثم قال بحنو،

«كيف لي أن لا أعشق الياسمين، وكيف لي أن لا أسحر بنُدفها التي تغطي الأرض بعد أن يُقبلها النسيم العليل، وينثرها في الفضاء، ليرتفع عبقها في الآفاق. تعلمين يا ياسمينة... ومنذ أن رأيتك وأنا أسعى إلى حملك معي وزرعكِ هنا!» مشيرًا إلى قلبه.

وبعد بضعة أيام، جالسَ أوفا عروسه البهية ياسمينة، وتجاذبا أطراف حديثٍ مبهج، وهو يطلعها علَى ديناره الذهبي الجديد ذي عبارات التوحيد الإسلامية، فقد كان مزهوًا به، مأخوذًا بصوت زوجته الناعم، وهي تقرأ ما نقش عليه، كان يتوسط القطعة الذهبية الثمينة، جملة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وفي الحافة، نقش اسم محمد رسول الله، ثم الآية الكريمة أرسله بالهدى والدين الحق، أما في وسط الجهة الثانية، فكتابة عربية أخرى، وهي محمد رسول الله، ومعها اسم أوفا ركس باللغة الإنجليزية، أما في الحافة، ضُرب هذا الدينار سبعة وخمسون ومائة هجرية بدار السك الخاصة التي أنشأها أوفا في بلاده، والتي سك فيها العديد من العملات الأخرى اللازمة لتسهيل العمليات التجارية، فأوفا لم يكن يومًا رجل سياسة وحرب فحسب، وإنما هو تاجرٌ محنك، له علاقات تجارية قوية مع أوروبا والعالم الإسلامي، وقد كان يردد دائمًا إن أي ملك يريد أن يرفع مستوى معيشة شعبه، وتحقيق أمجاده، لا بد له أن يهتم بالتجارة ويشجعها. ورغم زهوه ذاك كانت تنتاب عيونه غلالة من الحزن، استشفت زوجته كدرها بسرعة، لتسأله قائلة:

- «أعادت المشاحنات من جديد بينك وبين الكنيسة؟»

اجتاحت عيونه غمامة أشد قتامة من سابقتها، فأجاب بأسف: «أجل! وقد قمتُ بسحب كل اختصاصات الأسقف الكبير كانتربيري هذه المرة، وكيولوف أسقف ليندسي؛ بسبب تآمرهما ضدي مع مملكة كنت، وإرسالهما التقارير المغرضة للبابوية بشأن ديناري الذهبي الجديد، وقد أطلعني صديقي يوسف ومن خلال إحدى رحلاته التجارية في ربوع أوروبا بعد أن تناهى إلى سمعه صدفة حديث دار بين أحد القساوسة ورفيق له عن رسالة سرية يحملها معه إلى مملكة كنت، وقد فهم من خلال ذلك الحديث بأنهم ينوون بي شرًا. فسبقهم يوسف وأرسل إليّ محذرًا بما علمه. ولقد تأكد لي صدق ذلك الخبر بما فيه من شر، من خلال عيوني المنتشرة في كنت!»

- «يا إلهي... ألا يتعبون من حَبك المؤامرات ضدك! إنها حقًا لا تنتهي!»

- «لا تقلقي يا ياسمينتي الرقيقة، فأنا متيقظ لهم».

وبالفعل، فاجأهم الملك أوفا، بعدما رتب خططه، وجمع جيوشه، فهزمهم هزيمة ساحقة، اكتسح بعدها كنت، وضمها إلى سلطانه. ولأن تلك الممالك التي يحكمها كانت في أغلب الأحيان غير مستقرة، فكر أوفا وخوفًا من أي أفكار انفصالية تراود ملوك الساكسون في الخروج عن طاعة مرسيا وقلب سلطانه؛ فقام بتزويج ابنته

إيدبره إلى كبيرهم بيورهترك، بعدما خلصه من منافسه ايجبرت ونفاه خارج إنكلترا. ثم قام بتزويج ابنته إيلفيلد إلى اثلريد ملك نورثمبريا، كما تصاهر مع ملك إيست أنجليا

ايثلبرهت.

استفاق الملك في ذات صباح بارد، على طرقات متتالية، لحوحة، وماهي إلا دقائق معدودة، حتى وجد زوجته الأولى الملكة كينثريث تقف على بابه، لم يكن متوقعًا حضورها إلى مخدعه في تلك الساعات الأولى من الصباح الباكر، فبعد زواجه من ياسمينة اجتاحت رياح الغيرة قلبها، لكن دون أن تحدث ضررًا أو تُصدر صخبًا، يبدو أنها كانت كما عهدها أوفا، امرأة صلبة، لا تستسلم لهواجس النساء، بقدر ما تبحث عن القوة والتمكين، هي لا ترى في هذه الحروب التي يخوضها زوجها، أو هذه المُصاهرات التي يقوم بها، إلا أمرًا واحدًا فقط، وهو ترسيخ الحكم له ولوريثه الوحيد، أي تثبيته لابنها ايكث ريكس من بعده. نظر إليها بحيرة متسائلاً عن سبب كل ذلك القلق الذي يعتلي وجهها، فألقت إليه بالخبر الذي وصلها للتو: «لقد خانك صهرك الملك ايثلبرهت، وها هي ذي رسالة البابا أدريان التي أرسلها إليه بين يدي!»

ومدت له بتلك الرسالة، التي فتحها بعصبية بالغة، ألقت كينثريث نظرة خاطفة على ضرتها ياسمينة التي اقتربت منهما، وهي تضم كفيها في وجل، فالمسكينة ومنذ أن استقرت في هذا البيت وهي تتقادفها أمواجُ هموم الحكم بمؤامراته التي لا تنضب. أحيانًا ترى نفسها فعلا كندفة ثلج تعصف بها الرياح من كل جانب، لكن زوجها يصرُّ على أنها ندفة ياسمين حركها النسيم العليل عن موضعها لتعبق حياته سعادة ولطافة.

بقيت منتبهة لما دار بينه وبين الملكة كينثريث، التي لم تخفِ نيتها في الانتقام من صهرهما، فكونه زوجًا لابنتهما لن يشفع له أبدًا؛ فهو لم يعد يتربص بأوفا فقط بل بابنها ايكث ريكس، وهذا ما لن تغفر له.

- «اهدئي سيدتي، فأنا على علم بكثير من حماقاته. أما وإن وصل به الأمر إلى هذا التآمر البغيض... تنهد بدوره بغضب: فإنه حتمًا سيدفع الثمن! ثم أردف: «صحيح أنني جردته من أغلب صلاحياته؛ وذلك بسبب تهوره الشديد. وقد ظننت أن المصاهرة بيننا كافية لكبح جماح طموحه المجنون!»

- «مولاي الملك! أنت تعلم أن تلك المصاهرة ما كانت لتميله إلينا؛ فأطماعه أعظم من ذلك، وكما ترى فقد وعده البابا أدريان بحكم إنكلترا بعد أن سفهك وعقيدتك وأشعل نيران الكراهية اتجاهك باعتبارك العدو اللدود للكنيسة الرومانية!»

- «سنخرج إلى ملاقاته وإلى تأديبه عاجلًا فاطمئني، واعلمي أنه سيندم على هذه الخيانة! »

- «سأخرج معك؛ لا يمكنني أن أفوت لحظة القبض عليه».

- «أرجوك سيدتي، اتركي لي الأمر، فأنا أعدكِ أنه سينال جزاءه! »

- «لن يهدأ لي بالٌ حتى أرى رأسه معلقًا، كما كان ينوي أن يفعل بك وبولدي! » ثم انحنت بتهذيب، وغادرت كما جاءت، بخطى متسارعة.

علقت ياسمينة بهدوء وبأسف بالغٍ: «يبدو أنكَ يا مولاي ستخرج من جديد إلى ساحة الوغى! »

تنهد بدوره قائلًا: «يبدو ذلك يا ياسمينة... يبدو ذلك».

ومرة أخرى بقيت ياسمينة، في قصرها تتعهد شجرة الياسمين التي في الحديقة، وتترقب أخبار هذا الرجل الذي سحبها إلى عالمه المليء بالمخاطر، حضرت بعد حين، جارية معها كتاب من أوفا فالتقطته منها على عجل:

- «زهرتي الرقيقة ياسمينة، لقد انتصرنا على عدونا ايثلبرهت وألحقنا به هزيمة ساحقة، وبكل أعدائنا الذين كانوا من ورائه، غير أن الأمر خرج عن سيطرتي فقد أمرت زوجتنا الملكة كينثريث بقطع رأسه دون مشاورتنا بينما كنت أنوي نفيه فقط، وأخشى أن يكون هذا الفعل بداية لصراع جديد مع الكنيسة. فكما تعلمين، لقد كان حليفًا لهم».

تنهدت ياسمينة وقالت:

- يا الله! أما آن الأوان لهذه الأهوال أن تنتهي!

كان البابا أدريان الأول قد اجتمع بأساقفته ورجاله، بعد أن وصله الخبر المشؤوم، يكادُ الدم أن ينفجر من وجهه من شدة الغضب، لقد جن جنون الرجل بعد الهزيمة التي لحقت به وبرجله هناك ايثلبرهت، مما جعله يطلق على ذلك الحليف الهالك، لقب القديس الشهيد، كما أمر بدفنه في كاتدرائية هيرفورد، متهمًا أوفا بالوحشية والمزاج الدموي، بسبب قتله بتلك الطريقة البشعة. ربما هو يُدرك أن أوفا لا يد له في فصل رأسه عن جسده، فهو يعلم أن أوفا ديبلوماسي بارع، وسياسي محنك، يسعى أولًا إلى كسب أعدائه قبل أصدقائه، ويتحاشى عداوتهم من أجل تدعيم الوحدة داخل الأمة الأنكلوساكسونية، وذلك بكسب صداقة الملوك المجاورين له، عن طريق مصاهرتهم، لكن البابا استغل هذه الحادثة لصالحه، وللتأليب ضده، ثم مالبث أن هدر قائلًا:

- «لم يعد لدي شك واحد بأن الملك أوفا قد تخلى عن عقيدته! ونحن لن نبقى مكتوفي الأيدي ونحن نراه يُضعف سلطتنا على جموع أرض بريطانيا يوما بعد يوم!

سأرسلك إلى هناك يا أُسقف أوستيا جورج، وستترأس مجموعة من الأساقفة أنت وأسقف تودي بسبب كفائتكما في التبشير بالمسيحية، وسنرى ما يقرره الملك أوفا بهذا الشأن! »

- «لكن سيدي... ألا ترى أن الوقت غير مناسب لهذا الفعل، بعد ذبحهم للشهيد القديس ايثلبرهت؟! »

- «بل هو الوقت المناسب من أجل إعادة تجديد وتثبيت الإيمان في نفوس الإنكليز خصوصًا بعد ارتداد الكثير منهم عن المسيحية! » ثم أردف وهو يقلبُ دينار أوفا الذهبي ذا النقوش العربية، بين يديه: سنرسل خطابًا آخر إلى الملك شارلمان حامي المسيحية والمدافع عنها في أوروبا الغربية؛ نستعين به ضده، فهو صديق مخلص لنا.

وخلافًا للمتوقع، استقبل أوفا البعثة التي أرسلتها البابوية بصدر رحب، ومعاملة حسنة، وتسامح بالغ، مفسحًا لهم المجال بين ربوع مملكته. كما استقبل مبعوث شارلمان الذي كان يسعى إلى الكشف عن الحقيقة المشاعة من اعتناق أوفا للدين الإسلامي.

ومن أجل جس نبضه، عرض شارلمان عليه تزويج ابنه شارل، بإحدى بناته، فرفض أوفا بشدة، لكنه غير العرض بطلب ابنة شارلمان بِرثا لابنه.

وكما كان متوقعًا، فقد غضب شارلمان غضبًا شديدًا، لدرجة أنه أمر بوقف المفاوضات التي كانت بينه وبين أوفا، وسحب بعثته، وأمرها بالعودة على الفور. واتخذ موقفًا معاديًا له بعدما منع التجار الإنجليز من دخول مملكته، والوقوف على موانئه، ومنع كافة أنواع التجارة معهم. فبدأ التجار الإنجليز، يحتجون، ويلجؤون إلى ملكهم كي ينصفهم، بسبب قرار شارلمان الظالم. وبذلك توترت العلاقات بشكل كبير بينه وبين أوفا، بعدما تبين انحياز شارلمان إلى البابوية التي تسعى إلى الإطاحة به، غير أن القوة العسكرية لأوفا وانتصاراته المتتالية والمدوية، فضلًا عن ذكائه، ودبلوماسيته، جعل شارلمان يتراجع عن قراراته مُكرها. وها هو ذا يفكر بهدوء بعد خمود فورة الغضب.

- ألا ترى أيها المستشار أن هذا الرجل به من القوة ما يجبرنا على التعامل معه كند لنا، إنه لا يفتأ أن ينتصر في كل معركة يوضع بها، ربما علينا أن نسلك معه سبل المهادنة، بدلًا من الحدة!

- هذا أكيد يا مولاي، فقد بلغنا أنه ومن شدة حرصه على مملكته قام ببناء سور عظيم في الشمال طوله مئتين وواحد وأربعين كيلومترا اتقاءً من هجمات الولزيين، و عملا على إعاقتهم إلى حين وصول قواته العتيدة لمواجهتهم أولًا ثم لطردهم ثانيًا. إنه لا يترك لنا أية ثغرة ننفد منها إليه!

- إذن أيها المستشار... دوّن هذا الخطاب وأرسله إليه على جناح السرعة؛ فنحن نعتزم العودة عن قراراتنا السابقة بشأن منع التجارة مع الإنكليز. ثم تحسر شارلمان وهو يجز على أسنانه في غيظ يبدو أن هذا التراجع ضروري وملحٌّ؛ إذ لم يتضرر من قراري ذاك إلا تجارنا واقتصادُ بلادنا نحن! هيا اكتبه الآن، واختمه بختمي!

- « أنا شارلمان، أتعهد بحماية التجار الإنكليز، طبقا لأعراف التجارة القديمة، فإذا أسيئ إليهم، أو ابتلوا بظلم جائر، عليهم التقدم بشكواهم إلينا، أو إلى قضاتنا، ولسوف نصدر أوامرنا لإحقاق الحق، وكفالة العدالة! وبالمثل فإن رجالنا إذا

ماعانوا من أي عمل عدائي في بلادكم، عليهم بالتقدم بشكواهم إليكم، إلى الملك المبجل أوفا، من أجل تطبيق قواعد قوانينكم العادلة».

وختم الخطاب وأرسل على وجه السرعة إلى بريطانيا التي لم تتأثر قوتها على ما يبدو بتلك الحوادث الأخيرة، فقد كان الملك، ماض في عزمه على جعل وطنه منيعًا، متطورًا، طيبًا. وحينما وُضعتْ تلك العملة النقدية بين يدي يوسف القرطبي، تأكد له أن صديقه الملك قد حقق ما كان يصبو إليه، فخلال سنوات حكمه المتتالية، تحسنت البلاد كثيرا.

كان يوسف يجوب أطرافها في كل مرة مندهشًا من التطور السريع الذي تشهده، رغم ظهور تلك الغمامة السوداء بين الحين والآخر، تلك الغمامة المفتعلة التي تعكر صفو كل تلك النجاحات، صراع تقليدي، مُفترًى، و غير مجدي بين الإسلام والمسيحية. فالمسيح عليه السلام قد بشر بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ومحمد عليه الصلاة والسلام قد أكد على نبوة المسيح عليه السلام. فما جدوى ذلك الصراع المكذوب إذن؟!

استقبل أوفا صديقه يوسف ذات مرة بابتسامة عريضة، مُرحبا: أهلا بك يا صديقي الأندلسي!

- أهلا بك أيها الملك العظيم!

- كيف وجدت بلادي بعد طولِ غياب؟

- والله في أفضل حال بإذن الله، وإني أكاد أجزم أنها ماضية نحو الأفضل ثم الأفضل!

- ذاك هو هدفنا فعلا! هو الوصول بها إلى الخير من تقدم وتطور ورقي في الإنسان والعمران!

- وإني أرى حضورك اليوم هو حضور الصبح بعد العتمةِ، وحضور الخصب بعد الجدب، فقد اختلفتُ مع الأساقفة كثيرًا؛ فهم لا يمنحون العلم أحقيته ولا يولونه أهميته بل يجعلون سلطة الدين المتعصبِ، تحد كل رغبة في التطور والتغيير على خلاف الإسلام الذي يحث على العلم والتعلم والمعرفة والبناء والعمران، وقد أضحى الخلاف كبيرًا لدرجة أن الكنيسة قد حرمت زواج البريطانيين فيما بينهم؛ كعقاب لهم للمنهج الذي اختاروه. وقد ارتأيت أن أسأل أصحاب الأندلس أن يبعثوا لنا بعلماء من ظهرانيهم يعلمون هذا الشعب الطيب دينهم الخيّر. وإني لأراك يا يوسف رسولًا يليق بهذه المهمة إلى جانب المبعوثين الذين فوضتهم نحو بلادك. فماذا تقول؟

- أنا في الخدمة دائما أيها الملك العظيم..! وسأنطلق برسائلك في الحال!

قام أوفا بمد صديقه الأندلسي المتحمس، بمجموعة من الرسائل، كانت معدة من ذي قبل، ورغم أن يوسف كان يعتزم في وليجة نفسه البقاء في بريطانيا إلى حين بيع

بضاعته. إلا أن فكرة الربح تلك غشيها ربح أكبر... ربح الإسلام ونشره في تلك البقاع، فحملته حماسته على جناح السرعة نحو الأندلس، محلقًا مع رياح السفينة الشراعية التي أقلته إلى الطرف الآخر من القارة. فلا ربح أعظم من الإسلام! وما يقدمه من تآلف وتسامح وسلام.

استغرقه الوجوم والصمت لبعض الوقت، وهو يرى تناثر تلك الرؤيا الجميلة التي رسمها بين تضاريس مخيلته، تناثر حبات الثرى على المياه الهوجاء، إذ لا أحد ممن وُجهت له تلك الرسائل منح نفسه الوقت لقراءتها أو معرفة أهميتها، الكل كان منهمك في دنياه ومشاكله الداخلية وتكالبه على الملك. فعبد الرحمان الداخل رغم رباطة جأشه، وقوة همته، كان منشغلًا بالثورات المتكررة على حكمه، وبالنزاعات القبلية والتمردات على الولاة. والحق أن الأوضاع لم تكن تسمح له إلا بعمل ملح واحد في تلك الفترة الحرجة، وهو فرض سلطته أولًا على البلاد الغارقة في الفوضى.

فكر يوسف أن يُرسل إلى صديقه الملك، ليعلمه بفشل مهمته، فخجل من ذلك، ثم بعد لأْيٍ التفكير، شد الرحال مجددًا نحو بلاده، فعرض عليه أن يقدم النصح والعلم والمَعرفة التي يحملها هو لقومه، لكنه بقي لفترة وجيزة فقط على ذلك الحال، إذ سرعان ما عاد إلى الأندلس بعد وصول خبر عن وفاة والدته. فسار كسيرًا حزينًا إلى قرطبةَ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وتدفقت دموعه وغمرته همومه. ثم أقعده مرضٌ شديد ألمّ به عن العودة إلى حيث صديقه، لكنه وفي كل حين كان يتقصى أخباره التي تصله عن عظمة ملكه الذي بناه، فكان ذلك سببًا لسعادته، ووهجا يملئ فؤاده غبطة وسرورًا.

أقام أوفا في بيته يستريحُ من غبراء طول ترحاله بين أقطاب مملكته، إنها تسع وثلاثين سنة من الحكم، حقق فيها مهادنة مع شارلمان والبابوية، فتحقق له أخيرا الكثير من الاستقرار بين أطراف بلده، وثنايا نفسه. وبينما هو كذلك، خرج مع مطلع الفجر، يتنزه في حديقة قصره، حيث الهدوء والسكينة وحيث يتسلل الصبح بضيائه الناعم، هانئًا بلمساته الرقيقة، وهو يمشي مطمئنًا، وهو لا يعلم أن عيونا من بلاطه تتربص به، وتتابع كل خلجات أنفاسه، جلس هنيهة أمام شجرته التي كبرت، يتأملها بشغف، حتى أنساه عبق زهورها ما يدور حوله، وإذا بسيف حاد يخترق بقوة ظهره، أدار رأسه بعنفوان ليتعرف على قاتله، وعلى من تجرأ على اغتياله وخيانته، وحينها ضرب نصل آخر رقبته، فسقط على الأرض مخضبا بدمائه، وماهي إلا ساعة حتى علا النواح، وكثر الصخب في القصر.

لقد اغتيل الملك العظيم أوفا في عقر داره... أمام شجرته المحبوبة، فسكنت للأبد

خفقاتُ قلبه القوي!

تناقل الخبر الحزين بين الناس، فسمع يوسف بالنبأ المفجع، وأحس بالشجن العظيم، والأسى لأنه لم يتمكن في الماضي من العودة إلى صديقه، فتحامل على نفسه المكلومة وجسده المهزوم، ورغم مرضه ورقة عظام شيخوخته، شد الرحال نحو

بريطانيا، فأوفا كان رجلًا يستحق ويستوجب منه أن يدعو له، وأن يُقدم فيه واجب العزاء.

لكنه ذهل لما رأى السيطرة السريعة للأساقفة على القرار في بريطانيا، رمشت عيناه في سهوم، وهو يشاهد ويستمعُ إلى فرقعة صغيرة، ووميض متوهج ينبعثُ من بين بقايا تلك الأوراق والقصاصات المتطايرة، الراقصة، والمُكرهة على حر اللظى الذي أُلقيت فيه، فبدت وكأنها نجوم متحركة لامعة ما تفتأ أن تظهر لتأفل.

ثم حركاتٌ عَصبية، لأولائك الذين يدفعون بها نحو تلك النار المتقدة غيظا، وصوت أحدهم ينفجرُ، وقد امتلأت نبرته بجلجلة فورة بركان هائل تسبب في حمم متعالية، تُذيب الندف الصغيرة البيضاء من حولهم.

لا نريد نجاشي آخر! أحرقوا كل شيء!

هيا يا رجال، هذا ما أمر به الأسقف الكبير!

حتى الملك إكثريث لم يستطع منع ذلك التخريب الذي طال إرث، وتاريخ، وسيرة والده العظيم. فقد ارتأى مهادنة الكنيسة إلى حين أن يستتب له الحكم، فكان ينظر بأسى نحو ذكرياتٍ تتلاشى وتطمس، وتغيب كفرقدٍ مفقود في سماء من يهتدي به.

وإذا بيوسف الذي يقف منكفئًا على نفسه وقد انحنى ظهره، وانحرف كما ينحرف عود القوس، يُشاهد تلك الوثائق وهي تحرق، وكالسهم الذي ينطلق من بين الإنحراف نحو الهدف، وفي ومضة زمن لم يتمالك نفسه إلا وهو يسلب من بين ألسنة النيران، وثيقة مشتعلة متألمة مثله، لسعته حرارة علقت بها، فلم يهتم، دسها بين ثيابه بخفة، دون أن ينتبه له أحد، أو لعل زوجة صديقه الملك السيدة ياسمينة، بنت آل مزاحم رأت تلك الحركة التي صدرت عنه، فرمقته بنظرة شكر، إذ لا أحد قد يظن أن شيخا عليلا مثله، قد يقدم على حرق يديه من أجل وثيقة.

لم يستخرجها من بين ثيابه إلا لحظة خلوه إلى نفسه؛ ليقرأ ما كتب عليها بخط جميل.

«نُدف الياسمين»

انتابه الفضول وهو يتفحصها، ويتفحص ذلك العنوان الغريب فقرأ أول جملة وقعت عليها عيناه.

- أنا أوفا ريكس المسلمُ، ملكُ بريطانيا.

أحس يوسف بأن الأمر جلل، فأوفا يعلن بيمينه عن إسلامه، فهذه وثيقة مهمةٌ، تستوجبُ الحماية، دسها مجددًا بين ثيابه إلى حين عودته إلى قرطبة.

وما إن وصل يوسفُ على مشارف بلده الحبيب حتى أطلع ابنته فاطمة على الوثيقة التي تسلمتها منه، ثم خبأتها إلى حين عودة ولده بكر، وقد خط يوسف بيمينه المرتعشة، إلى جانبها مخطوطة صغيرة قص فيها حكايته، ثم ختمها بقوله:

«وإني لعلى يقين بأن ورقة شجرة العمر التي خَط عليها اسمي قد سقطت، وسقط بعدها وجودي عن هذه الدنيا الفانية، أفول بعد بزوغ، وإني على يقين بأن مشيئة الله جعلتني أقطع الغبراء وأعبر البحار الهوجاء، لأصل ذلك العبد من عباده الكرام، فأنتزع من عين اللهب مذكراته، فأحملها معي، وإني أأتمنك يا ولدي عليها، فاحفظ الأمانة فأنا لا أعلم سرها بقدر السر الذي جعلني أحملها.

ولعلها تكون مفتاح خير لمن حفظها».

يوسف القرطبي.

حمل بكرٌ، بعد أن قضى يوسف إلى رحمة ربه، تلك الأمانة مشفقًا من ثقلها، فقد أحس أنّ مقاليد الأمور قد فوضت إليه، فإن أحسن تدبيرها فقد يتغير الكثير من مجرى حوادث الدهر وصروفه.

وإذا به يطلعُ على الوثيقة تارة، ثم يفكر ويقدر، في ما خطه ذلك الملك العظيم، وما أوصى به والده ذلك التاجر القرطبي النبيل تارة أخرى، ثم تنساق به الأفكار بين مسارب تلك المهمة التي أوكلت إليه. تَذكر بغتة أصهار الملك أوفا من آل بن مزاحم، فاتصل بهم مطلعا إياهم على الأمانة التي بين يديه، والتي يخشى أن يسأل عنها يوم القيامة، وقد كانت لأحد أبناء بن مزاحم حظوة لدى السلطان، فأسر له بكرٌ بأنه يطمح لمقابلته، بغية تسليمه لتلك الوثيقة، وبعد فترة ليست بالوجيزة، تدبر له لقاء في بلاط الحكم بن هشام بن عبد الرحمان، بعد أن اجتمع آل بن مزاحم، ليفدوا عليه شيوخهم وشبابهم.

غابت النجوم ليلتها، ولم تهدأ نفسه، وهو يفكر فيما سيعرضه عِلى الحكم بن هشام، فقد سبق وأن طرحه بين يدي كبار القوم، والده يوسف من قبلُ، ومن كان معه من مبعوثي الملك أوفا.

أتراه سيوافق؟ أم أن صيت هذا الملك سيخمد ويتلاشى حسيسه!

كان أرقه، عبارة عن أفكار تتضارب محدثة طنينًا، كأنها خلية نحل لا تهدأ، تنساق إليها الهواجس من كل مساق، فهو يريد أن يجعل من هذه الوثيقة، حجة على كل متصارع في الأندلس على السلطة. أخذته سنة نوم بعد طول سهد.

وفي الصباح، لبس أفضل ثيابه، وتوجه نحو البلاط، لم يستوقفه بديع ما رأته عينه من رونق القصر وبهاءه، فقد غطت قيمة الوثيقة على كل بهاء. وقف بثبات أمام الملك ثم قدم ما بين يديه وهو يقول: هذه هي الأمانة! وإني لأضعها بين يديك!

تفحص الملك الوثيقة، باهتمام بالغ، ثم أخبره أنه سيعرضها على مستشاريه. ثم خرج بكرٌ من البلاط، لا يعلم إن كان ما أقدم عليه سيعود بنفع أو خير، لكنه شعر ببعض الراحة والخفة تتسلل إلى صدره بعد الثقل الذي كسر عاتقيه.

ومرة أخرى غابت النجوم ليلتها، ولم تهدأ نفس الحكم بن هشام هذه المرة، وإذا به يُقلب أفكاره ذات اليمين وذات الشمال.

أكان عليه أن يقرأ تلك المذكرات؟ لقد سلبت منه سكينته، ففارق الكرى عيونه بعدها لأيام، فقد كان الحكم أميرًا شديد الحزم، ماضي العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير، وكان أفحل أمراء بني أمية، وأشدهم إقدامًا ونجدة وصرامة وأنفة وأبهة وعزة، مثاغرًا في سبيل الله، وبين التفكير في الخلافات التي تنشب بينه وبين أمراء الأندلس، وبين ما تحمله وثيقة أوفا، وبين أحواله المتقلبة. كان لا بد له أن يحسم الأمر، فقرر أن يقيم صلب دولته أولًا، برأب الصدع بين أبناء شعبه، وأن تحدوه نزعة الإنصاف والعدل، على نزعة الانتقام من أعدائه. فعرض على كل الولاة الحضور إلى ساحة بلاطه، لمناقشة أمر هام، وهكذا استقبلت قرطبة ولمدة سبعة أيامٍ الوفود العديدة للتشاور.

لقد عَلمتهم تلك الوثيقة أن ذلك الملك الراحل، ورغم تخليهم عنه يوم لجأ إليهم، لم يحد عن مبادئه ورغبته في توحيد ممالك بلده التي كانت منقسمة، ومجزئة، فكان بذلك بطلًا يستحق كل التمجيد. تعلم أصحاب الأندلس من حكمة أوفا، وما آلت إليه بلاده من تطور وعمران، بأن التضحية بالراحة الشخصية ثمن صغير أمام النتائج العظيمة التي يحرزها صاحبها. وما هي إلا أسابيع حتى ألفوا بين صفوفهم، فأضحت الأندلس في ومضة زمن، أكثر قوة وعزما على الاستمرار ككيان واحد غير متصدع.

أرسل صاحب الأندلس الحكم بن هشام إلى بريطانيا العلماء، وقد استقبلهم الملك إرث ركس وأصحاب أوفا ومواليه بترحاب شديد فقد كانوا الأمل الذي ينتظرون بزوغه بفارغ الصبر، وابتدأت عملية تعليم مبادئ الدين للراغبين فيه، بلين وإحسان، رغم معارضة الأساقفة، إلا أن الأمور كانت تسير بيسر لا يشوبه عسر، وكان إقبال الناس عن طيب خاطر، إذ لا إكراه في الدين.

حتى أن صيت هذا النجاح وصل إلى شارلمان، فعقد معاهدة مهادنة، وصلح مع الأندلس، بعدما لمس القوة الجديدة التي شبت في روح الأمة الأندلسية، فقد استعاد

الحكم بن هشام مدينة برشلونة منهم، ثم بغتة اختفت كل الثورات في عهده، وأخذ بجدارة لقب الحكم الواثق بالله نسبة لخاتمه الذي نقش عليه «بالله يثق الحكم وبه يعتصم»، بدل لقب الحكم الربضي لأنه تعامل مع صيحات أهل الربض بلين وتسامح، محتضنًا بحسن تدبيره لكل حقد أو بغض، ليختفي ويتلاشى ذلك التوتر وكأنه لم يكن، ثم استمر انتشار عقيدة الأندلسيين ونجاحاتهم، شمالًا حتى وصلت إلى القنال الإنجليزي، وكنُدف متطايرة في السماء، ثم تنزل على الأرض بهدوء وسلام، كذلك كان انتشار الإسلام.

لقد أكد أوفا ريكس في مذكراته، بأنه كان مُحبًا لنبتة الياسمين، والتي حملها معه من أرض الأندلس، فيحكي ويقول:

- «بعد زيارتي لبلاد الشام والأندلس، وانتشار عبق هذه الزهرة البيضاء العجيبة المدللة، التي تطل برونق من أعلى الشرفات، وكأنها عروس مليحة تغطي بسحرها أحواش البيوت ومداخلها وعتباتها، تتخللك فجأة ودون قصد منك أجواء حميمية

تجعلك تَقرض الشعر وتنثر القصائد على من حولك دون أن تكون شاعرًا في حقيقتك؛ فالياسمين هو أغنية الشعراء، وريشة الرسامين، وشغف العاشقين، فيه بساطة وجمال وألق لا يوجد في غيره من النباتات.

وفي ذات مساء أندلسي جميل، وبعد إتمامي لزيجتي بعروسي البهية ياسمينة، كنا نتجاذب أطراف الحديث فسحرتني مجددا نُدفها التي تغطي الأرض بعد أن قبلها نسيم عليل، ونثرها في الفضاء ليرتفع نسيمها في الآفاق.

تذكرتُ حينها مشهد بداية موسم تساقط الثلوج في وطني، إلا أن ندف الياسمين البيضاء تلك كانت مختلفة فهي تتميز بعطر فواح عفيف، وحضور دافئ لطيف، وكذلك أضحت نفسي منذ ذلك الحين صافية دافئة لا يملؤها إلا الأمل والخير، وكنت أردد ولا أزال: كيف لي أن لا أحب نُدف الياسمين، وكيف لي أن لا أسعى إلى حملها معي.

لقد أطلعني معظم من يمتهنون الزراعة بأن الياسمين نبتة لا تعيش في بلد بارد، فهي تحتاج إلى تربة خاصة وجو مناسب لنموها، كما أنه يجب عليّ تقليم فروعها وتغطيتها بلحاف أثناء الصقيع لعلها تنفذ من قسوته. لكنني لم أتأثر بكل ما سمعته، فقد كنت عازمًا على جعلها تزين حديقة بيتي، و قد أدركتُ وأنا أهتم بها لاحقًا بأنها نبتة قنوعة صبورة لا تتطلب جهدًا جبارًا بقدر ما تتطلب دفئًا وحبًّا.

وقد ظن المحيطون بي في أكثر من مرة بأن شجرتي المحبوبة تلك قد ماتت، فصاحوا: لقد قضت الياسمينة التي لطالما أُعجب بها صاحبها!

لكن ما لا يعلمه الجميع، أن الجذور بقيت حية وأنها عادت مرة أخرى للنمو وللحياة، وقد شَهدتُ نضارتها، كما شهدها الجميع».

«أَلَا يَعْلَمُ الأَمِيْرُ أَنَّهُ مِنَ الشَّرقِ إِلَى الغَرْبِ، وَمِنَ المُلُوكِ إِلَى الشَّحَّاذِينِ، وَمِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الشَّبَابِ مِمَّن يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَيَعْمَلُونَ بِالدِّينِ، كُلُّهُم عَبِيدُ هَذا البَلَاطِ وَجُنُودٌ لِي. إِنَّنِي حِينمِا أُشِيرُ بِجَمعِ الشَّتَاتِ، سَأَبدَأُ بِحَسْمِ الأُمُورِ فِي إِيرَانَ، ثُمَّ سَأَتَوَجَّهُ مِنهَا إِلَى بِلَادِ طُورَانَ، وَأَضَعُ كُلَّ شَخصٍ فِي مَوضِعِهِ»

الخليفة العباسي المستعصم في رسالة لهولاكو

المسار الثاني

بقلم: عائشة عادل

في أحدِ أزقّة بغداد القديمة وقد ذهب من الليل أكثره وخلت الشوارعُ من المارّة العابرين، علا صوتُه من شقّ البيت المتهالك يخاطب أحدهم قائلًا بانفعال: أنت تمزح لا شك! هل تدرك أن ما تقوله مستحيل فعليًا؟

هتف الآخر بعصبيةٍ مماثلةٍ: إذن جِد لي حلًا يا صاحب العقل، هل سنستلم هكذا ببساطة وندع لهم البلاد؟

علا صوتُ الثالث فوق صوتيهما يدعوهما إلى الهدوء: تناطحكما هكذا لن يجدي شيئًا، علينا أن نفكّر في حلولٍ واقعية. زيد، إن ما تقوله مستحيل واقعًا، كيف تريد منّا أن نغتال قائدهم ونحن مجرد شبابٍ عُزّل لم يعرف أكثر من مباريات الخيول؟

قال زيد: اسمعني يا محمد، عبد الرحمن لديه خبرةٌ في القتال، الفترة التي قضاها في صفوف الجيش لا شكّ أفادته، صحيحٌ أن الجيش متوقف منذ سنين لا يجاهد عن عباد ولا عن بلاد لكنّه بالتأكيد لم ينس ما تعلمه.

تفكّر محمد قليلًا ثم قال: حسنًا غدًا نجتمع معه ثمّ نسأله إن كان على استعداد أن يقدم معنا على تنفيذ الخطة. صاح أحمد الصامت: أيّ خطة هذه! أن نغتال زعيم التتار هولاكو؟ هل تمزحان؟ من الذي سيسمح لنا أصلًا بالخروج من حدود بغداد؟ فضلًا عن الدخول في حدود التتار! ثمّ كيف سنقنع الوزير العلقمي أن ندخل ضمن صفوف المقاتلين؟

تهكّم محمد: ليست هناك صفوف مقاتلين يا أحمد، لذا فإننا لن نسمح أن تُنتهك بلادنا ونُغلب على أمرنا في مقابل أن يستمتع الأمراء بخلافتهم وأملاكهم، إن هذا الدين دَينٌ في رقابنا جميعًا، وسنحارب عنه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

تفرّق جمعُ الشباب على وعدٍ بلقاء في الغد، وفي تلك الأثناء كانت البلاد تستعدّ لخوض حروبٍ شديدةِ الوطأة مع جحافل التتار التي عُلم أنها أعدت لاجتياح بغداد بعد أن أسقطت كلّ الإمارات الإسلامية قبلها، استكمالًا لرحلةِ السيطرة على منطقة الشرق الأوسط ورغبةً في إخماد كلّ أثر للخلافة العباسية وما بقي من ممالك الإسلام.

***

في اليوم التالي انضمّ عبد الرحمن إلى أصدقائه وبدؤوا في بحث الخطط التي تمكّنهم من الوصول لقادة بغداد وإقناعهم بما ينتوونه إذا ما بدأ حصار التتار.

تحدّث زيد: وصلتنا الأخبار أن جيوش التتار بقيادة هولاكو بدأت تحرّكها نحو بغداد آخذة في طريقها كلّ احتياطات سياسية وجغرافية، ولذا فإن علينا أن نأخذ في

الاعتبار خيانة الممالك الإسلامية المحيطة، والطرق الممهدة التي عملوا عليها ستساعدهم على الوصول في وقت زمنيّ قد لا يستغرق شهرًا.

قال عبد الرحمن: حسنًا، وبما أننا على علم بخيانة الوزير مؤيد الدين العلقمي، فإن فرصتنا الوحيدة لهولاكو عن طريقه هو.

أيّده محمد: سيحاول بالتأكيد إقناع الخليفة بالتسليم كحلٍ ذهبيٍ للأزمة، وهذه ثغرةٌ مهمةٌ سننفذ من خلالها، نحتاج فقط أحدًا يواليه ويسير على نهجه ليطمئن إليه، أظنني الشخص المناسب لأنّ لي سابق تعاملٍ معه.

قال زيد: لا أظنّ هذه ستكون الخطوة الأولى، لا تنس أن هناك القائد مجاهد الدين، إذا حاول إثناء الخليفة عن فكرة التسليم سيمنحنا هذا مزيدًا من الوقت لنتحرك، دعونا لا نستبق الأحداث، ولنر ماذا يعد التتار.

***

بعد شهرٍ من الأحداث، وصل التتار بزعيمهم هولاكو حدود بغداد، وضرب الحصار المشدد عليها، أقفلوا منافذ المدينة الغربية والشرقية، والتفّ جزءٌ من الجيش يحيطُ بالجهة الجنوبية الشرقية للمدينة، وبقي الجزء الشماليّ منها، حاول القادة أن يسرعوا في تحصيل المزيد من المؤن من هذه الجبهة المفتوحة، لكنّ هولاكو كان قد أحكم خطته جيدًا وأرسل يبعث إلى قائد جيشه العائد من أوروبا عبر أراضي تركيا وشمال العراق أن يأتي على وجه السرعة ليزامن وقت وصوله بغداد فيغلق الحدود تمامًا.

وعلى الرّغم من الإعداد الشديد لهذه الحملة والذي استغرق خمس سنوات كاملة منذ عام ٦٤٩ وحتى عام ٦٥٤ إلا أن وجود عينٍ موالية للتتار داخل بغداد سهّل الأمر عليهم، خاصة وهو ذو مكانة بين القواد ومنصبٍ في بلاط الخليفة.

كان اتفاق الوزير مؤيد الدين العلقمي وزعيم التتار هولاكو أن يحاول العلقمي إقناع الخليفة بحل الاستسلام كحلٍ وحيدٍ مطروح، فجيوش التتار والتي لم تهزم حتى الآن أبدًا كان صيتها قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ودمويتهم قد نالت كثيرًا من البلاد قبلهم مما أثار الرعب والفزع في قلوب سكّان بغداد، وميل الشعب للتسليم سيسهّل المهمة أكثر.

في بدء الحصار انتفض الخليفة في استفاقة متأخرة وبدأ بجمع قادته ليستشيرهم في أمر البلاد، ووقع نزاع كبيرٌ بين مجاهد الدين الذي قام يدعو إلى الدفاع عن بغداد والوقوف في مواجهة التتار ورأى أنّ بغداد إذا سقطت فلن تقوم للعباسيين بعدها قائمة، وبين العلقمي الذي طرح الاستسلام ورغّب الخليفة فيه وأغراه في أمن التتار

وعهودهم وصداقتهم.

وببقايا ضميرٍ ونخوةٍ عند الخليفة استمع لحديث مجاهد الدين وأمر على الفور ببدء الإعداد وتجهيز الجيوش لملاقاة جيوش التتار عند حصون المدينة الأمامية، وكان القادة قد اتفقوا على طريقة الكرّ والفرّ استغلالًا لعنصر المفاجأة في كلّ مرة.

لم ييأس العلقمي من نجاح مهمته في إثناء الخليفة عن فكرة الجهاد، فأخذ بعضًا من أتباعه ليتشاوروا في حلول بديلةٍ حال فشلِ الجيش البغدادي في مهمته والتي لن تُحدث أثرًا يُذكر أمام قوة الجيوش التتارية، وبينما يجتمعون في القصر دخل محمدٌ على الوزير مرحِّبا:

- مرحبًا أيها الوزير، سمعنا أن التتار يعرضون حل الاستسلام، والقادة يرفضونه كحلٍ أوليّ للأزمة، لكنّ الشعب ليس لديه رغبةٌ في ذلك كما تعلم، بل وليس لديه القدرة حتى للدفاع عن نفسه بمجرد التفكير في صدّ هجمات التتار، والتي آتية لا محالة، وأنا يا سيدي لديّ حلّ ربّما يصل بنا إلى برّ الأمان ويحقق لنا السلامة والتسليم.

- يمكنك أن تطرحه بسرعة، لأن الجيوش ستبدأ بالتحرك بدءًا من الغد، والمناوشات التي يحاول الجاهلون أن يقوموا بها لن تفعل سوى قلب هولاكو علينا ونفاذ صبره، وحينها سيضيع كلّ ما أعددنا له.

- لدي صديقٌ يعرفه مجاهد الدين ويثق به كثيرًا، بالتأكيد سيستعمله في طليعة جيشه، سنحتاج أن نهادن هولاكو قليلًا، لذا أحتاج أن ترسلني أيها الوزير ومعي اثنان على أننا رسلٌ يناقشون إجراءات التسليم وطامعون في المزيد من المزايا الصورية حتى نعرضها أمام الخليفة ونرغّبه فيها، وبهذا نكسب وقتًا لصالحنا، وسأتّفق مع صديقي إذا خرجت أول الفرق المهاجمة أن ينتظر خروجنا من عند هولاكو ثمّ يهتف بهم أن التتار علم عن هذه الفرق المهاجمة وأنهم فقدوا عنصر المفاجأة هذه المرّة ثم يعود بهم، وفي تلك الأثناء تكون قد اقنعت الخليفة بفشل فكرة القتال هذه.

- حسنًا سأرسل معك اثنان كوفدٍ سلميّ إلى الزعيم وأبعث معك رسالةً نطلب فيها مزيدًا من الوقت ونطمع في كرمه أن يمدّنا ببعض الصلاحيات تسمح لنا باستمالة الخليفة.

* * *

في الليل اتّفق محمدٌ مع عبد الرحمن أن يذهب إلى القائد مجاهد ليلتحق بالفرقة القتالية الأولى، ووضع محمد خطته التي يستطيع بها أن يصل إلى خيمة هولاكو دون الوفد، وأن يحاول إقناعه بما هو ذاهب لأجله بينما يبقى أحمد يراقب الأوضاع استعدادًا للخطة البديلة.

وعند الصباح، لم يكن حظ التتار جيدًا إذ تناهت إلى زعيمهم هولاكو أخبارٌ بوفاة أخيه مونكو خان الذي تولى حكم قراقورم عاصمة المغول بعد وفاة زعيمهم جنكيز خان، وبذلك أصبحت الدولة المغولية بلا قائد، واضطربت الأوضاع في الجيش

واحتار هولاكو هل يعود أدراجه ليحمي عاصمة دولتهم من التفكك وينقذ الأوضاع السياسية قبل تفشي الثورات الداخلية أم يستكمل فتوحاته في أراضي المسلمين والتي كانت وصية مونكو خان ألا يعود إلا وهي في يده؟

وبينا هم كذلك إذ وصل عبر أحد الجواسيس أخبارٌ بأنّ المسلمون يفكّرون في شنّ هجوم ليليّ على الجيش التتري ظانين أنهم بهذا يستغلون عنصر المفاجأة تحت سُتر الظلامً يتخفون فيها، عندما علم هولاكو بهذا ثارت حفيظته وانتفخت أوداجه وظنّ العلقميّ قد فشلت مهمته ولن يجدي حل التسليم شيئًا، إضافة إلى أنهم لا يملكون وقتًا كافيًا لاستكمال الحصار أو لبدء حربٍ فعليةٍ مع المسلمين، حيث يتحتم عليه أن يعود بجيشه إلى العاصمة مع تفاقم الأوضاع هناك.

صرخ هولاكو في حراسه: أرسلوا إلى الوزير العلقمي أن يأتي، أريده حالًا.

- سيدي هناك وفدٌ بالفعل قد أتى يحمل رسالة منه إلينا.

- أدخلوه حالًا.

دخل محمد وزيد وحدهما بعد أن تركا الرجل الثالث والذي كان من أتباع العلقميّ رهينةً بين أيدي حراس الملك.

حيا محمد الزعيم ثمّ بدأ حديثه قائلا:

- سيدي هولاكو، الوزير العلقمي يبلغك أسفه الشديد، لكنّ محاولته الأولى لم تنجح في إقناع الخليفة بقرار التسليم، كما أن هناك عددًا من القادة يفضلون حل القتال يؤثرون في قراره أيضًا، لذا نحن نطلب من سيادتك مزيدًا من الوقت لإقناعهم بالتسليم، كما نرغب إليك أن تزيدنا من صلاحيات التسليم، أنت تعلم أن الخليفة لا يهمه حقيقة سوى حكمه، فإذا زادت صلاحياته في التسليم لهث خلفه متغاضيًا عن كلّ الحلول البديلة.

ثار هولاكو وعلا صوته زاعقًا:

- ليس لديّ الوقت لأمنحه لكم، أمامكم ليلة واحدة، وبعدها سأقلب المدينة عاليها سافلها، ولن أرحم أحدًا أبدًا.

ما كاد الحوار ينتهي بينهم حتى دخل الحارسُ يلهث يبلغ القائد أنّ المسلمين يشنون هجومًا بالفعل، لكن يبدو أن خطتهم تغيرت ولن ينتظروا حتّى الليل.

فزع محمدٌ وصاحبه لكنّه حاول أن ينتهز فرصةً يحوم فيها حول هولاكو عله يجد ثغرةً ينفذ منها ليقتله، أما هولاكو فنهض سريعًا يعطي أوامره بالتصدي للهجمات بأعنف ما لديهم، وألا يذروا أحدًا منهم حيًا يعود على عقبيه إلى أسوار بغداد.

استأذن محمدٌ القائد ثم قال:

- سيدي، لو تحركنا الآن عائدين إلى بغداد سيفتضح أمرنا قبل أن نعود بالرسالة إلى وزيرنا، هلّا مكثنا قليلًا نختبئ في خيامكم حتى لا يعلم أحدٌ عن خطتنا شيئًا؟

سمح هولاكو للرجلين أن يبقيا في خيمة مجاورةٍ حتّى ينتهي القتال بين الجيشين لئلا يثيرا حولهما الأقاويل، ثمّ ينطلقان في الليل عائدين إلى بغداد.

كان القتالُ غير متكافئًا أبدًا، فرقةٌ من المسلمين لا يتجاوز تعدادها ثلاثمائة، أمام جيشٍ عظيم به مئات الآلاف من المقاتلين الأشداء، مدججين بالأسلحة ومحميون بالسيوف والدروع، التقى الفريقان وتعانقت أسنة الرماح وعلا غبارُ المعركةِ يحصد الرؤوس والأرواح، لم يرحم التتر أحدًا من المسلمين كما هو عهدهم، فأبادوهم عن آخرهم حتّى لم يرجع منهم أحدًا. ولم يتكبّد التتر خسائرًا تُذكر.

***

في إحدى خيام معسكر التتار، همس زيدٌ لمحمد بعدما وصلته أنباء هزيمة المسلمين وقتل جنودهم: محمد هل تتوقع أن يكون عبد الرحمن قد خرج معهم وقُتل؟

ردّ محمدٌ في كآبة: بل أنا واثقٌ أنه كان معهم، عبد الرحمن لن يفوت فرصة كهذه أبدًا.

قال زيد: هذا يعني أنه...

محمد: لنأمل أن يكون فرّ منهم دون أن يدركه أحد!

هيا انهض معي ستشاغل الحراس قليلًا حتّى أستطيع أن أضع السمّ في عشاء الملك.

ثمّ قام الصديقان كلّ إلى جهته التي حددها، واستطاع محمد أن يضع السمّ في طعام هولاكو قبل أن يلحظ أحدٌ من الحراس الذين قد نسوا أمر رسولي المسلمين في غمرة فرحتهم بانتصارهم.

بعد منتصف الليل بقليلٍ تجهّز محمدٌ وزيد للعودة إلى بغداد لاستكمال الخطة من جهة الخليفة والوزير، وما كادا يبتعدان قليلًا عن خيمتهم حتّى صرخ حارسٌ وسط المعسكر: القائد! هولاكو! الزعيييم! طبيييب.

استفاق كلٌ من في المعسكر وحضر الطبيب والقواد، وكان هولاكو حينها يصارع استشراء السّم في جسده، ظلّ كذلك ساعةً يصرخ ويعربد طالبًا الدواء العاجل، لكنّ أحدًا لم يستطع أن يقدم العلاج في وقت قصير كهذا، وقد تمكّن السّم من جسده بسرعة هكذا، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هتف في حراسه: المسلمَين! الحقوا بهما قبل أن يذهبا، اقتلوا الجواسيس الخونة!، ثمّ شهق للمرة الأخيرة وهمد جسده وسط ذهول من حوله، تيبّست أقدامهم وجفّت حلوقهم وقد استوعبوا حقيقة موت زعيمهم، هولاكو العظيم الذي لم يخسر حربًا دخلها من قبل ها هو ذا يموت ميتة عاديةً بقطرات سم تعفنت داخله!

كان زيدٌ ومحمد قد بلغا منتصف الطريق من المعسكر إلى بغداد وقد تناهى إلى مسامعهم صوت الجنود خلفهم يلحقون بهم، حاولا الإسراع وقد علما بنجاح خطتهما عندما صاح أحدهم من الخيمة الملكية: مات الملك!

لكنّ رماح التتار كانت لهما بالمرصاد فاغتالتهما معًا، اخترقت جسديهما الطاهرين وأردتهما قتلى بعد أن أتمّا مهمة عظيمة ما كان في حسبان أحد أن يقوم بها شباب عادي لم يعرفه أحد!

عمّ الهرج خيام المعسكر، وهاج الجنود وعلت الصياحات وتطاحن الجيش بعضه ببعض، ووقع النزاع بين القواد، يُقدِمُون ثأرا لزعيمهم أم يعودون إلى قراقورم التي بلا حماية هي الأخرى؟

واستقر قولهم على الانسحاب، انسحبت جيوش المغول من الأراضي البغدادية منكّسي الرأس بعد قتل زعيمهم، وقد كانت هذه هزيمة أشدّ وطأة من هزيمة جيشهم، بجهود شبابٍ مسلمٍ لا يملك من الأسباب إلا إيمانه العميق في قلبه، وشدّة بأسه في روحه يقدم لا يخشى شيئًا ما دام مع ربه.

وصلت الأنباء إلى الخليفة والقادة في بغداد، ففزع الوزير فزعًا شديدًا وقد فقد الدعم الذي كان ينتظره متمثلا في جيش العدو، ثم حوكم بعد فضحه بتهمة خيانة الدين والوطن وأمر بقتله. عاد الشباب الثلاثة إلى بغداد، لكنّهم عادوا محمولين على الأكفّ مُشيّعين بالدعوات ودموعِ الامتنان في عيون شعبهم وقوادهم، وقف أحمد في مراسم الوداع يبكي يقينه الذي ما وزن أمام يقينهم شيئًا، وها هم أصحابه قد بلغوا ما طمحت إليه أنفسهم وأنقذوا بلادهم وانتصروا لدينهم، لم يحملهم عجزهم على القعود، بل نهضوا إلى ثغورهم يقفون دونها أمام أعداء دينهم.

وانتصبت بغداد بعدها نهوضًا بعد سقطةٍ في وحل الدنيا ودرك الضعف وترك الجهاد، وقفت شامخةً عاصمةً للدولة العباسية وحصنًا حصينًا لبلاد الشرق من ورائها، تمنع عن أراضي الإسلام العدو وتقيهم غوائله.

«لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»

صدق رسول الله ﷺ.

المسار الثالث

بقلم: رباب أشرف

كان يومًا شديد الحر، كُنتُ أقوم بمهمتي في الاهتمام بخيول السلطان والأمراء. فقد مر على عملي في القصر سبع سنوات اكتسبت فيهم ثقة السلطان بيازيد حتى بات يأخذني معه إلى رحلات الصيد وشاركته غزوة واحدة عاد منها منتصرًا، كنت أشعر أنني محظوظ لوجودي جوار سلطان عظيم مثله.

لمحتُ رهطًا من الباشوات الذاهبين باتجاه قاعة الديوان على عجل كان يبدو من ارتباكهم أن الأمر مهم. استدعاني السلطان مساء ذلك اليوم على عجل شعرت وكأننا على أعتاب كارثة، فالسلطان لا يستدعيني مباشرة إلى القصر ليلًا إلا لأمر عظيم.

دخلتُ إلى غرفة العرش كان السلطان جالسًا والغضب بادٍ على وجهه وأمامه يمثل الصدر الأعظم ورئيس الإنكشارية.

قال السلطان وقد زأر بصوته كأسدٍ مُتأهب:

- «لقد تمادى تيمورلنك كثيرًا، إنه يتحداني... إن آخر ما كنت أتمنى أن أعلن الحرب على مسلم، ولكن مع أفعاله المنافية لتعاليم الدين وتجاوزه الحد وأخيرًا قتله ولدي أرطغرل لا يمكن التغاضى أبدًا... سنعد العدة للحرب»

صفع بيده مقبض العرش وهبّ واقفًا ثم أدار وجهه إليّ:

- «إلياس... ستجهز الخيول جيدًا، سيأتي الأمير سليمان معي وستأتي أنت أيضًا».

عندما سمعت باسم تيمورلنك دبّت الرهبة في جسدي فمن لا يعرف تيمورلنك الفاتح المتجبر، كان صيته قد ذاع في البلاد، الملك الذي فتح العديد من البلدان بالسيف والنار، فكان إذا دخل قرية جعل عاليها سافلها حتى تخضع لسلطته. ملكٌ عاتٍ كعاصفة تزأر بلا توقف. تريثتُ قليلًا واستوعبت ما نحن مقبلين عليه.

- «هل سيواجه السلطان بيازيد، الصاعقة... القوي الذي هزّ أسوار أوروبا، تيمورلنك المغولي الفاتح؟! ربما ستكون من أكبر المعارك التي يشهدها التاريخ».

حدثت نفسي وقد دبّت في أوصالي الحماسة، فأنا سأكون جندي في معركة تاريخية كهذه إنه لأمر رائع.

بدأت استعدادات الجيش، الكل يعمل بكد، العرق يتفصد من الأجساد المتأهبة للقتال والسيف يحتد، والنوم لا يقرب الجفون.

كان الحرملك خامدًا؛ فالسلطان لا يفكر سوى في استعدادات الحرب، فقررت رئيسة الحرملك أن تختار له جارية تزيح عنه عناء التعب، وكانت إلانور الشقراء بُندقية

الأصول امرأةَ تنافس الشمس في سطوعها والقمر في بهائه، نجحت الجارية في احتلال فؤاد السلطان حتى أنه كتب إليها رسالة قبيل الذهاب للحرب، تناقلها العُشاق فيما بينهم. «أتَيتِ في أيامٍ ثقال، حملتِ عني أوزار الحرب، وأزحتِ عن كاهلي عناء التعب، وكنتِ شمسًا تضيء عتمتي، ونجمًا متألقًا في سمائي القاتمة. لا أعلم كيف أشكر القدر الذي قادكِ إليّ!

ألهبت الفؤاد بعدما ظن أن الشيب قد اغتاله، أنا ذاهب إلى الحرب يا زنبقتي، قد لا أعود إليك، قد تمضغني أنياب الغربة وأعود جسدًا خاويًا، قد أموت مسحوب الأنفاس على حافة الشوق وأنا أتلهف للقاء، ولكن فلتعلمي أن هنالك سلطانٌ حكم العالم وأخضع الدول، أصبح قلبه أسيرًا كجنيّ مسكين في دوامة غامضة تسبح في عينيكِ»

مرتّ الأيام بسرعة البرق وكأنها تتسابق لترى يوم تلك المواجهة الضارمة. كان جيش تيمورلنك ضخمًا فكان على السلطان أن يجمع جيشًا أكبر فاستعان ببعض أمراء المغول لمساندته في الجيش، فأضافوا قوة إلى قوتنا.

وقف السلطان يخطب في جيشه مشجعًا:

- «معركتنا اليوم سيخلدها التاريخ، يجب أن يكون نصرًا يليق بدولتنا، فإما النصر أو الشهادة، السيف في اليد والراية في السماء والقوة بإيماننا، الله أكبر» رددت الجيوش المهيبة الصوت فاهتز الوادي الذي عسكرنا فيه كأن الجبال المحيطة تردد معنا.

كانت ليلة طويلة كأيام السجن، البعض يقيم الليل والبعض يتسامر وآخرون يغطون في سُبات عميق استعدادًا للمجهول غدًا، بينما فضلت أنا السير وحيدًا في الأطراف كنت أدندن بلحنٍ قديم وأنا أنظر إلى السماء الواسعة. أسندتُ جسدي إلى شجرة كبيرة ورحتُ أستمتع بسكون الليل فذلك النغم الهادىء المنتظم سيصبح غدًا صاخبًا ستخترقه قعقعة السيوف ويذبذبه صهيل الجهاد. انتزعتني من شرودي خطوات خفيفة لأكثر من شخص، التفتتُ فإذا بأميرين من المغول الموالين للسلطان في الحرب مع شخص ثالث ملثم قال الملثم بلهجة جادة:

- «هل أخبرتكم إلانور بما يجب عليكم فعله؟»

قال أحدهم: «نحن غير موافقين على ما قالته السيدة إلانور لا نستطيع خيانة السلطان بيازيد وهو الذي آوانا»

قال الملثم:

- «أحمل لكم رسالة السلطان تيمورلنك، أدعوكم للتراجع عن دعم السلطان العثماني في الحرب، نحن من نفس الدم المغولي فلِمَ توالون العثمانيين ضدي، عليكم بدعمي وجيشي وإلا بعد انتصاري في الحرب أنزلت عليكم غضبي. السلطان تيمورلنك»

تلعثم الأميران وقال أحدهم للآخر:

- «السلطان بيازيد قوي ولكن إذا خسر المعركة فمن يرحمنا من غضب تيمور! أنا أنسحب»

أحس الآخر بأنه في مواجهة فوهة المدفع وحده فقال: «وأنا أيضًا أنسحب».

أدركتُ حينها أن الطعنة قادمة للسلطان في قلبه وجيشه، فإلانور التي تيّمت السلطان كانت جاسوسة لتيمور، والأميران كانا يريدان خيانة السلطان، إذا انسحبا وتعرضنا لطعنتهما فسيصبح جيش تيمور أكبر من جيشنا وخذلانهما سيزعزع حماس الجيش ويهز ثقة السلطان في البقية، فكان عليَّ أن أتصرف. ذهبت مباشرة لخيمة السلطان، وقد كان نائمًا، فقاومني الحرس كثيرًا حتى أيقظ صوتي المرتفع السلطان فنادى من الداخل بنبرة غاضبة، دخل الحارس ثم عاد وأدخلني. كان على وجه السلطان تتقاطع آثار مخالب النعاس والغضب.

- «عذرًا مولاي... لكن هنالك أمر شديد الخطورة عليك معرفته لم أكن لأجازف بأن أنقله لغيرك» تيقظ السلطان وهبّ واقفًا «ماذا هناك يا إلياس؟ تكلم!»

قلت بأسف «مولاي لقد سمعتُ من ورائك أميرين من المغول يتفقون على خيانة جيشنا في المعركة غدًا بأمر تيمورلنك، وبذلك قد تنقلب موازين المعركة»

امتقع وجه السلطان، لم أعرف كيف سأخبره بأمر إلانور فقلت محاولًا الإختصار «مولاي... لقد سمعت ما قالوه، السيدة إلانور ضمن المؤامرة مع الأسف» اهتز السلطان للحظ ثم ابتسم دون تحريك عينيه، وانقلب وجهه سريعًا إلى وجه غاضب «إلياس... هل تعي ما تقول! »

ابتلعت ريقًا تَصلب في حنجرتي «مولاي يمكنك سؤال الأميرين... أنا آسف».

أفاق السلطان لوهلة، ثم نادى الحراس ليأتوا بابنه والوزير الأعظم ورئيس الفرسان.

حضر الثلاثة، أخبرهم السلطان بالأمر وطلب إحضار الأميرين، فجاءا مرتجفين قال السلطان كاظمًا غيظه «لولا أننا على أعتاب المعركة لقطعت رأسيكما، ولكن إذا فعلت ستثور جيوشكما عليّ، اختارا إما أنا أو الموت»

انهالا بالتوسل والرجاء فقرر السلطان وضع مرافق ملازم لكل منهما فوضعني مع

أحدهما ووضع مع الآخر أحد القادة. أدار السلطان ظهره إليهما وقال بصوت حاد كنصل السكين: «من جاسوس تيمور في القصر؟»

لم يرد الاثنان، فالتفت السلطان والغضب يتناثر من عينيه «من؟» قالها بصرخة ارتجف لها الأميران ثم قال أحدهما وهو شاخص بصره إلى الأرض: «الس... السيدة... إلانور يا مولاي».

استطعت أن أستشعر النزيف الذي خلفه الخبر في قلب السلطان، أمرنا بالانصراف بهدوء بالغ، ذلك الهدوء الذي يبدو في ظاهره صمتًا ولكن فوضاه في الداخل تطحن

العظام.

عند شروق الشمس التقا الجيشان عند سهل شيبوكاد بأنقرة. وقف تيمورلنك على مقدمة جيشه والسلطان بيازيد الأول على مقدمة جيشه... كلاهما شامخان، وقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها تيمورلنك، ضخم الجثة ذا هيبة ثاقبة ونظرات باردة، وثقة تلفح عنان السماء.

في تلك اللحظة التي بدأ الجيشان فيها بالهجوم كانت الأرض تهتز اهتزازًا عنيفًا كأنما بركان ما سيتقيأ نيرانه، فالمشهد الرأسي من ميدان المعركة حوالي ثمان مئة ألفٍ في صف تيمورلنك تتقدمهم صفوف الفيلة، ومائة وعشرون ألفًا في صف السلطان بيازيد تتقدمهم الرايات العثمانية. يركض الجيشان كالنمل تجاه بعضهما البعض تضيق البؤر ويلتحم الجيشان، صلصلة السيوف، وصهيل الجياد ممتزج بنهيم الفيلة، طبول تقرع ورؤوس تتطاير، استمرت المعركة منذ مطلع الشمس حتى مغربها، قاتل السلطان وتيمور بنفسيهما على أرض المعركة، حتى تلاقيا كان تيمور معروف بقوته وصلابته والسلطان بيازيد معروف بشدة سرعته ودهائه، تبارزا بالسيوف مبارزة رائعة جرحا بعضهما، حتى أتى سهم من خلف تيمور اخترق كتف السلطان وكانت تلك حركة غادرة من طرف تيمور هوى السلطان أرضًا وشعر تيمور بالتشفي. اقترب من السلطان الذي استند على سيفه مستكملًا نهوضه، ولكن...

مر من فوق السلطان رمح ضخم اخترق صدر تيمورلنك، نظر تيمورلنك إلى الرمح مليًا وانبثق الدم من فمه، جحظت عيناه في ذهول. كان لا يشعر بالألم قدر شعوره بالاندهاش فقد انهارت خططه واحدة تلو الأخرى فلم تفلح الخيانة ولم يُقتل السلطان وها هو يحتضر على إثر رمح بات في صدره في اللحظة التي سكن فيها كل شيء هجم أحد فرسان تيمور على السلطان بيازيد بطعنه بخنجر مسموم.

عند الغروب كان كل شيء قد سكن، تراجعت جيوش تيمور، وانتصر السلطان بيازيد في الحرب التي كان يبدو أنها قد لا تنتهي. أخذ المغول جثة قائدهم لدفنها في سمرقند حسب وصيته، وأخذنا السلطان بيازيد إلى القصر عليلًا. قال الأطباء أن الموت يسير إليه متثاقلًا.

لم نستطع منع انتشار الخبر، ولم نستطع قمع جشع الأمراء، ناقشتُ الديوان في ضرورة حبس الأمراء الأربعة، ولكن كان الديوان منقسمًا لعدة وزراء كل منهم يؤيد أحد الأمراء.

هرب الأمير عيسى على أدرنة وعين نفسه وليًا للعرش، وذهب سليمان للأناضول وعين نفسه سلطانًا، اختفى محمد جلبي وموسى من الوَسَط.

كانت بذور الفتن قد وقعت بين الإخوة، فسمعنا خبر وفاة الأمير سليمان مسمومًا بسريره في قصرِ الأناضول، وقامت بعدها بشهر حرب ضارمة بين الأميرين عيسى وموسى قُتِل فيها عيسى، ومع اختفاء محمد جلبي ومكوث السلطان بين

مخالب السم الذي ينهش جسده. حضر موسى إلى القصر وعين نفسه وريثا للعرش ولكنه قُتِل على يد مجهولين يقال أنهم رجال أخوه محمد جلبي.

عاد محمد جلبي عودة مفاجئة بعدما تلطخ العرش بدماء إخوته، عاد ليعلن نفسه أميرًا عاديًا إلى أن يقضي الله أمرًا في حال والده، وأعاد للعاصمة استقرارها، واستنفر كل الأطباء لمداواة والده.

شاء الله أن يستيقظ السلطان بيازيد ويستعد عافيته، ويجلس على العرش بجوار وريث عرشه الأمير محمد جلبي.

كانت تلك الحرب بداية لنهضة واسعة اجتاحت الدولة العثمانية، فالولاة الذين عينهم تيمورلنك على البلاد التي فتحها قد بايعوا السلطان بيازيد على يد ولده محمد جلبي، فتوسعت رقعة الدولة العثمانية. ولاقت إلانور عقابها شنقًا في ساحة تنفيذ الأحكام، وترتب على خيانتها صدور قانون بمنع زواج السلاطين بالجواري.

في عام ١٤٠٨ نقض إمبراطور القسطنطينية بند من بنود المعاهدة بينه وبين السلطان بيازيد بعدم دفعه الجزية وتمادى في ذلك، فشدد حراسة وتحصين القسطنطينية وأغلق أبوابها، فأعد السلطان بيازيد العدة لحصار القسطنطينية فقطع عليهم طريق الطعام والتجارة فأصبح لا يدخل المدينة أحد ولا يخرج منها.

بعد عام كامل من الحصار كانت ستموت المدينة جوعًا انهارت حصون القسطنطينية المنيعة، فتحها السلطان بيازيد الأول، دخلها هو وجيوشه ورفعوا فيها راية الدولة العثمانية، وحقق حلم العثمانيين بدخولها ورُفِع فيها الآذان.

فاسأل "بلنسية" ما شأن "مرسية"

وأين "شاطبة" أم أينَ "جيان" ؟

وأين "قرطبة" دار العلوم فكم

مـن عالم قد سما فيها له شان؟

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى الفراق الألف هيمانُ

على الديار من الإسلام خالية

قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائس

ما فيهن إلا نواقيس وصلبانُ

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

يا راكبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرةً
كأنَّها في مجالِ السَبـقِ عُقبانُ
أَعندكُم نبأٌ من أهلِ أندلُسٍ
فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ
كَم يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهُم
قَتلـى وأسرَى فما يهتزُ إنسانُ
لماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكمُ
وأنتـم يا عبادَ اللهِ إخْوانُ
يا من لذلَّةِ قومٍ بعدَ عزَّتِهِم
أحالَ حالهُمْ جـورٌ وطُغيـانُ
بالأمسِ كانُوا مُـلُوكاً في منازلـهِم
واليـومَ هـم في بلادِ الكفـرِ عُبدانُ
فـلو تراهُم حَيَارى لا دليلَ لهم
عليهِمْ مِن ثيابِ الذُّلِ ألوان
أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس

المسار الرابع

بقلم: نهى عودة

وجد مسلمو الأندلس أنفسهم بين عشية وضحاها في مهب الريح بمجرد أن وقّع ملكهم الصغير على اتفاقية تسليم مدينتهم، غرناطة التي أبت عقودًا أن تسقط وتنزوي تحت الحكم الصليبي.

كان الملك أبو عبد الله الصغير حريصًا على أن يضمن لرعاياه المسلمين حقوقهم التي تكفل لهم الحرية وحياة كريمة، إلا أن هذه الاتفاقية سرعان ما تنصل لها الملكان الكاثولكيان... إيزابيلا تلك الملكة التي لقبها الأحبار والقساوسة الذين لازمتهم طيلة حياتها بالكاثولكية كناية عن تعصبها الشديد وعنصريتها اللعينة، والتي بزواجها من فرديناند ملك أراجون اتحدت إسبانيا المسيحية لأول مرة منذ الفتح الإسلامي للأندلس، وقد جعلت إسقاط غرناطة ومحاربة الإسلام والمسلمين أحد شروط زواجها من فرديناند، ودأبت أكثر من عشرين عامًا بعد زواجهما تدفعه وتدعمه وتؤازره ضد المسلمين حتى نجحت في مسعاها.

وفي يوم ٢ يناير ١٤٩٢ دخلا مدينة غرناطة، واتجها إلى قصر الحمراء وأمرا برفع الصليب الفضى الكبير الذى كان يحمله الملك «فرديناند» خلال المعارك مع غرناطة فوق برج القصر الأعلى، لتبدأ مرحلة فيصلية في تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس.

حالما سقطت غرناطة هاجر منها عدد ضخم من كبار أهلها، وتجارها، وفقهائها، وعلمائها، وساداتها، وأعيانها، لكن الجزء الأكبر من المسلمين اختاروا أن يظلوا ماكثين في ديارهم بجانب تجارتهم و أراضيهم و أماكنهم التي اعتادوا عليها، آملين أن تسير الأمور على ما يرام و أن يسود جو من الألفة و التسامح معهم كما تضمنت المعاهدة، محتفظين بدينهم ولغتهم وأن يعلموا أولادهم مع من تبقى من فقهاء أصول الدين الإسلامي؛ لكن سرعان ما تبدد هذا الاستقرار الزائف بعد أن نقضت ايزابيلا عهدها وكلفت القساوسة والرهبان باتخاذ اللازم للقضاء على هذا الأمل، وقد كانت معاهدة تسليم غرناطة التي وقعها الملك الأندلسي «أبو عبد الله الصغير» تعد أفضل معاهدة وقعها طرف مهزوم، وكانت بنودها تعتبر سخية بالنسبة للمسلمين المهزومين، وكانت تؤكد منح المسلمين حرية ممارسة شعائرهم وشريعتهم ولغتهم وعاداتهم، ولو كان قُدّر لهذه الإتفاقية أن تُحْتَرم والتزم بها الملكان الكاثوليك إيزابيلا وفرديناند فلربما اختلف حال المسلمين في الأندلس عما حدث بعد ذلك. صحيح أن الدولة الإسلامية سقطت حينها ولكن المسلمين كأفراد وكجماعة دينية ثقافية كانوا سيحتفظون بتواجدهم بقوة داخل الدولة الكاثوليكية.

وسرعان ما فطن مسلمو الأندلس أن مصيبتهم لا تنحصر في زوال سلطانهم

السياسي وحسب، بل أصبحت مصيبتهم الصراع من أجل البقاء والثبات على العقيدة الإسلامية في ظل مواجهة شرسة وغير متكافئة مع عدو يتربص بهم بروح صليبية متعصبة، معلنًا بكل وضوح أن حربًا قد شُنت على الإسلام والمسلمين في ربوع إسبانيا ولا سبيل إلى التراجع!

كان الرهبان يتأججون حقدًا على استمرارية الوجود الإسلامي في الأندلس و ممارسة المسلمين لعاداتهم و شعائرهم الدينية، ولم تر الكنيسة الكاثولكية مفرًا من ضرورة تنصير المسلمين طوعًا أو كرها مرارًا و تكرارًا. وكانت أولى خطوات الغدر تحويل عدد من المساجد إلى كنائس، تلى ذلك تنظيم فرق تبشيرية لتنصير المسلمين. إلا أن هذه الفرق لم تأت بنتيجة تذكر ومن ثم أخذت الكنيسة، والدولة، تفكر في تغيير سياستها من اللين إلى العنف، مُلغية كل بنود معاهدة التسليم الواحدة تلو الأخرى. وبدأوا في ملاحقة الأسر المسلمة والزج بهم في السجون إن رفضوا التحول إلى المسيحية، كما أمر القساوسة والرهبان بإحراق كل ما تقع عليه أيديهم من مصاحف وكتب دينية، ثم شمل الأمر أي كتاب تمت صياغته باللغة العربية، وأغلقت المساجد وحُظر على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم، ونُهبت أراضيهم وبدا جليا نية الكنيسة في تنصيرهم. عندئذ بدأت شرارة الإحتجاجات من بعض أكابر المسلمين على هذه السياسة، وأشتعلت ثورتهم الأولى ضد السلطة.

***

تسلل عامر في جنح الظلام مخترقًا شوارع البيازين الضيقة، كان متخفيًا خشية أن يراه أحد الجنود القشتاليين. كانت الأمور قد ساءت كثيرا في الأيام الأخيرة بعد أن أصدر الملك فيليب الثاني منذ شهور "عام ١٥٦٧ م" مرسومًا حظر فيه استخدام اللغة العربية، ومنع ارتداء الملابس الموريسكية، كما أجبر الموريسكيين على التسمي بأسماء مسيحية، وأمر بتدمير كل الكتب والوثائق المدونة باللغة العربية لينهي بذلك آخر صور التعايش وتقبل الموريسكيين في الأندلس.

انضم عامر للمجموعة التي اجتمعت وقررت أن تنتفض وتثور ردًا على ما قام به القشتاليون وملكهم. كانت الخطة أن تبدأ الثورة في صبيحة العام الجديد بعد أن قام قادة الثورة بعقد العديد من الاجتماعات على مدار الشهور المنصرمة من أجل الإعداد لهذه اللحظة. كانوا قد اتفقوا على تنصيب هرناندو دي قرطبة وبالور "محمد بن أمية" أميرا لهم وقائدا لثورتهم، واتخذوا من جبال البشرات عاصمة لها ونقطة انطلاق لحملاتهم. حين جاء صباح الأول من يناير، جمع ابن أمية الشباب وخطب فيهم قائلا:

«بسم الله الذي منعنا القشتاليون من ذكره واستبدلوا بأسماء اقترنت به أسماء أخرى ظنوا أنها ستجعلنا ننسى إسلامنا وربنا فجعلوا من عبد الله دي ماريا، ومن عبد الرحمن سانتوس.

أما بعد، فإن الله قد أراد لنا أن نحيا أيام المسلمين الأوائل بدلا من أن نقرأ عنها. جعلنا

ندرك كما عانوا للحفاظ على إسلامهم بين ظهراني أعدائه وأعداء دينه الحق. لكن أجدادنا الأبرار كانوا مستضعفين في الأرض، سيموا العذاب من أجل أن يجد هذا الدين متنفسًا في مكة الحبيبة، وحين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لم يضجوا، لم يغادروا حتى أتاهم أمر الله. أما نحن فكنا سادة هذه الأرض، حكمناها قرونًا حتى قضى الله أمره فجاء أعداؤه واحتلوا أرضنا، ومحوا أسماءنا من ذاكرة تاريخها لكنهم لم يستطيعوا التخلص منا ومن جذورنا وإن ظنوا ذلك.

أمَا ونحن ما زلنا أكثر سكان هذه الأرض وأهلها، فإما الجهاد في سبيل الله فنسترد أرضنا وديننا المسلوب، وإما الرحيل لأرض الله الواسعة لنحفظ دين أبنائنا. وإني والله لأرى الرحيل فرارًا من قدر الله لقدر الله، وأخاف أن ألقى ربي يوم الحشر بموازين خفيفة وحجة ضعيفة. أرض الله واسعة لا جدال لكنا لسنا مستضعفين لنهاجر فيها ونترك أندلسنا التي ولِدَت على أيدينا.

يا عباد الله، هبوا ولبوا نداء الجهاد، استعيدوا أرضكم ودينكم وحريتكم المسلوبة. فإما انتزعنا هويتنا وإما انتزعوا أرواحنا».

ارتفعت أصوات الحضور بالتهليل والتكبير، وملأ الحماس قلوب الجميع فانطلقوا كما خططوا من قبل لبدء ثورتهم واسترداد أرضهم التي احتلها القشتاليون.

كانت المعارك الدائرة عنيفة، أبلى فيها المسلمون بلاءً حسنًا لكن ظلت الأنباء الواردة لابن أمية في مركز القيادة غير مطمئنة. تدفق الجنود القشتاليون من كل حدب وصوب، واستدعى قادة القشتاليون جنودهم من باقي مدن الأندلس، وورد إليهم المدد من أوروبا حتى صارت الحرب غير متكافئة بالمرة، وبدا أن الإبادة ستكون هي مصير المسلمين.

لكنه قدر الله كما أخبر ابن أميه ثواره من قبل، جاء الفرج على هيئة خمسمائة جندي عثماني أرسلهم السلطان سليم الثاني. كان ابن أمية قد راسل العثمانيين طالبًا العون، ولما تأخر الرد تملكه اليأس وظن أنهم قد آثروا السلامة على التورط في حرب ربما لا تعنيهم. لكن العثمانيين كان لهم رأيٌ آخر. لم يتوانوا عن إرسال جنودهم الذين كان لوصولهم أرض المعركة فعل السحر رغم قلة عددهم. ألجمت المفاجأة القشتاليين بعد أن هاجمهم الجنود العثمانيين من المؤخرة فأطبقوا عليهم مع ثوار الأندلس كفكي الرحى.

كانت المعارك ضارية، والنتائج غير واضحة تتأرجح بين الفريقين حتى جاء نصر الله على هيئة مدد آخر من السلطان أبو محمد عبد الله الغالب السعدي. كان قدر الله أن تنتصر هذه الثورة، فيسر لها ولرجالها وقيض لهم سليم الثاني ومحمد السعدي رغم ما بينهما من توتر. انتصر ابن أمية واستطاع أن يطرد القشتاليون من غرناطة. لكن هذا النصر لم يجعله يتجاهل حقيقة سيطرتهم على بقية مدن الأندلس،

لم يتملكه الغرور كسابقيه من الملوك في الأندلس فوطد من تحالفه مع السعديين والعثمانيين، وانضم

تحت لوائهم أملًا في استكمال الجهاد وطرد القشتاليين من كامل بلاد الأندلس وهو ما تم له بعد خمس سنوات كاملة من الجهاد. ليتربع بعدها على عرش الأندلس مستكملًا ما بدأه أجداده الأمويين.

«الآن انتهت الحروب الصليبية. إن انهزام الأتراك أمام الجيوش التى تحت قيادتى أدى إلى احتلال مدينتكم من قبل جيوشى، وفى الوقت الذى أذيع عليكم فيه هذا النبأ أعلن الأحكام العرفية، وستبقى هذه الأحكام نافذة المفعول ما دامت ثمة ضرورة حربية»

اللورد البريطاني أدموند ألنبي - القدس، ديسمبر ١٩١٧

المسار الخامس

بقلم: سامية بو بكر

• الشام ١٩١٥

قم أيها الجندي لديك مهمة كبيرة، فتح مراد عينيه ليجد نفسه أمام رجلان بلباس العسكر العثماني، تعلوهما الراية العثمانية تحلق عاليًا عند باب المسجد.

- سيدي، من أنت؟ قال ذلك بجزع وأخذ يتفحص ما حوله علّه يدرك ما يحدث وهل هو في حلم أو حقيقة.

قال أحدهما بنبرة حادة: ألا تعرف من أمامك، إنه القائد جمال باشا لقد اختارك لمهمة عظيمة هيا تحرك أيها الفتى.

وقف مراد منتصبًا غير مصدق ما يرى أمامه لكنه استجاب بسرعة لهول الموقف.

تابع الرجل بحزم: ستنطلق في صحراء الحجاز لتتحرى موقف الشريف حسين من الدولة العلية إن قامت حرب ما، الدورية المرافقة في انتظارك يمكنك الانطلاق حالًا.

تجهّز الشاب وانطلق في مهتمه، لا يعلم ما يخبؤه له القدر.

* * *

• الحجاز أواخر ١٩١٥م

وصل مراد إلى مكة قلب الحجاز. كان مجلس من القادة منعقدًا على رأسه شريف مكة وأولاده، فوقف عند الباب ينتظر على أحرّ من الجمر ما سيسفر عنه من قرارات، فقرار واحد من هذا المجلس سيغير تاريخ الحجاز والشام والعرب جميعًا. في الداخل جلس الجميع في هدوء تام كان الكل يرقب قرار ذلك الشيخ الذي تصدر المجلس وأخذ يحرك عصاه يمينًا وشمالًا وكأنه يطلب منها أن تستقر على رأي ما. كان ابنه الأمير فيصل يدعو في قرارة نفسه أن يستجيب والده الشريف لرأيه في التريث في قرار خلع الطاعة عن الدولة العثمانية، وأنه الأولى لهم دعمها والحصول على عرفانها لاحقًا، أما أخوه الأمير عبد الله فقد كان يتمنى أن يستجيب والده لسكرتير الشرق في المفوضية البريطانية بمصر رونالد ستورز الذي وافق أخيرًا على مساندتهم في حال قرر الأشراف القيام بالثورة ضد بني عثمان، كان الأمير عبد الله قد حاول إقناع ستورز في كل زيارة يقوم بها للقاهرة وكل محاولاته باءت بالفشل، لكن قيام الحرب العالمية الأولى فرضت على الجميع واقعًا جديدًا يرى الأمير أنه من الواجب استغلاله للتخلص من البلاء الذي أصاب الخلافة منذ خلع السلطان عبد الحميد الثاني.

شخصت كل الأبصار تجاه الشيخ الذي رفع رأسه ترْقب قراره النهائي، قال بصوت رخيم ناظرًا إلى ابنه عبد الله، لنأجل رأيك هذا يا بني فالأصوب لنا في هذه المرحلة الوقوف مع بني عثمان فلا ندري ما الذي تخبئه لنا هذه الحرب. وقد خبرنا بني عثمان دهرًا وخبرنا حسنهم وإساءتهم فالأولى بنا أن نقف مع من خبرناه لا من لم نجربه لا في الحرب ولا في السلم.

انفض المجلس الذي دام ساعات طوال وتفرق السادة الحاضرون. وبلغ القرار مراد الذي تمنى لو استطاع أن يطير إلى الشام ليبلغهم بالخبر، قرر الشريف أن يرسل مع مراد إلى المدينة المقدسة دورية أولية تأكيدًا على القرار يترأسها فارس اسمه محمد. سار الشابان إلى المدينة المقدسة.

* * *

هناك في أحد الممرات الضيقة في أطراف مكة تسلل أحد الذين حضروا المجلس ناظرًا يمينًا وشمالًا مُحاولًا أن يتعرف على شخص ما بين المارة، بالكاد استطاع أن يرى ملامحهم في تلك الظلمة فكان يرسل سلامًا كلما مر أحدهم عله يتعرف عليه من صوته، وفجأة سمع صوتًا خلفه يسأله: ما الأخبار؟

ردّ بهمس: أين أنت يا رجل؟ انتظرتك طويلا.

- هيا، هات ما عندك قبل أن يكشف أمرنا.

قال الرجل ومازال نظره يتجول يمنة ويسرة: انطلق إلى سيدك بسرعة وأخبره بأن الفرس لم تنطلق.

* * *

رجل ملثم أشعث أغبر من طول السفر يدخل إلى مكتب المفوضية في القاهرة فيأمر المفوض فور رؤيته كل الجالسين بالخروج عدا نائبه.

قال الرسول بعد أن رفع لثامه: يخبرك سيدي بأن الفرس لم تنطلق.

تغير وجه المفوض وأمر الرسول بالخروج، ثم نظر إلى نائبه قائلًا: هكذا إذن فإن الشريف قد قرر الوقوف مع الدولة العثمانية ضدنا وقد كنت تقول لي بأنه مضمون الجانب.

رد النائب: سيدي لقد كان ابنه يصر على مساندتنا في كل زيارة له للقاهرة، موقفهم هذا سيقطع الطريق أمامنا إلى الشام.

نظر المفوض إلى نائبه وابتسم بخبث قائلًا: إذا كانت هذه الفرس لم تنطلق فهناك خيل جامحة غيرها تنتظر الانعتاق في كل لحظة، ونحن ما علينا إلا أن نساعدها على ذلك لتقطعهم قبل أن يقطعوا طريقنا إلى المدينة المقدسة.

* * *

زاد حماس القائد العثماني جمال باشا في إعادة قناة السويس أولًا ثم مصر كلها إلى حياض دولة بني عثمان خاصة بعد أن اطمأن إلى أن شريف مكة يقف إلى جانبه، كان حلم إعادة مصر إلى الدولة العثمانية يراود كل القادة الذين سبقوه لكنهم جميعًا لم يستطيعوا حتى أن يتجاوزوا خط القناة فآثروا الحفاظ على بلاد الشام بدل الدخول في معركة قد تفقد الدولة مصر والشام مرة واحدة. دخل الجندي على قائده ثم رفع التحية قائلًا سيدي قوات الأمير فيصل قد أخذت موقعها في العقبة لتأمين حركتنا يمكننا بداية التحرك.

ماهي إلا أيام وتحركت القوات جنوبًا نحو مصر، رغم الإنهاك الشديد إلا أن الأمل في النصر كان كبيرًا، سار الجيش نحو القناة ولكن عند الوصول إلى العقبة كانت الفاجعة، قوات الشريف لم تصل بعد، وتركت قوات الجيش العثماني مكشوفة أمام الإنجليز.

صاح جمال باشا في مراد: أين هي قوات الأمير فيصل التي تحدثت عنها، هل قام ذلك العربي بخيانة الدولة العلية.

ألجمت المفاجأة مراد فلم ينطق ببنت شفة. لكن صراخ جمال باشا مرة أخرى جعله ينتفض ويقول بصوت مرتعد: حسنًا سأتحرى الأمر يا سيدي.

تدخل أحد الضباط قائلا: ماذا سنفعل إذًا يا سيدي: هل نتراجع؟رد الباشا الذي كان يبني آمالًا كبيرة على هذه المعركة: لا يمكن ذلك سنواصل المسير، متى كان الجند العثماني يتراجع؟!

قال الشاب: ولكن يا سيدي، فقاطعه الباشا قبل أن يكمل: بدون لكن، هذا قرار قطعي لا يقبل النقاش.

تقدمت القوات العثمانية بروح منهزمة جدًا بعد وصول الخبر بما حل بقوات الشريف وفعلا كانت الهزيمة نكراء. قرر بعدها الباب العالي عزل جمال باشا من ولاية الشام. أما الصديقان مراد ومحمد فقد رجعا إلى الشام وتحصّنا في مدينة القدس لمواجهة قوات الإنجليز التي واصلت التقدم نحو المدينة بقيادة الجنرال إدموند ألنبي مدعومة بقوات مملكة نجد التي بسطت سيطرتها على كل مملكة الحجاز بعد دارت حربًا ضروسًا بينهما علم بها لاحقًا مراد وكانت السبب في عدم انضمام قوات الأمير فيصل لجمال باشا.

***

في صباح الحادي عشر من ديسمبر عام ١٩١٧، انسحبت الحامية العثمانية نهائيًا من مدينة القدس، وسلّمت المدينة تحت سماء ماطرة ملبدة بغيوم قاتمة وكأنها تنبأ أهلها بسنوات عجاف تستقبلهم في قادم الأيام. كان محمد ومراد اللذان رفضا الانسحاب مع الحامية رفقة مجموعة أخرى من الجند ينتظران دخول قوات الإنجليز إلى المدينة. جلسا جنبًا إلى جنب دون أن يقطع أحدها ذلك الصمت الحزين بكلمة، تنهد مراد ثم نظر إلى صاحبه قائلًا:

- سأقوم بمهاجمة قوات ألنبي عند دخولها إلى المدينة.

ردّ عليه محمد مبتسمًا: سنفعلها معا أيها التركي العنيد.

تحصن الشابان عند باب الخليل وعند إقتراب الإنجليز هما بالانقضاض على الجنرال لكن مفاجأة كانت في انتظارهما.

انطلقت الرصاصات تحصد الجنود الإنجليز الذين ألجمتهم المفاجأة، وحين أفاقوا منها كانت قوات الأمير فيصل بعد أن انضم لها العديد من سكان المدينة المقدسة وعلى رأسهم مراد ومحمد قد امتلكوا زمام الأمور. لقد حافظ الأمير فيصل على عهده مع العثمانيين ولم يتخل عنهم ولا عن القدس. يومها لم تسقط القدس كما كان مقدر لها وبدلًا من أن يتحول اليوم إلى مأتم توجت قوات الأمير فيصل مجهودها بالانتصار على الإنجليز وطردهم من القدس بعد استدعاء القوات العثمانية مرة أخرى والتحالف معها.

فراشات التاريخ

«دائما ما يقال أن فراشة لو عصفت جناحيها في البرازيل لتشكل إعصارٍ في تكساس، تتحدث النظريات عما يسمى بأثر الفراشة للدلالة على أن تغيرًا طفيفًا في المعطيات قد يؤدي إلى نتائج مختلفة تمامًا. يقول العلماء أن هذه النظرية صالحة للتطبيق في كافة المجالات. بدأت في التنبؤ بالأرصاد الجوية، لكنها امتدت بعد ذلك لتشمل الاقتصاد والسياسة وغيرها من نواحي الحياة.

كل منا يصادف أثر الفراشة في حياته اليومية. ماذا لو تأخرت قليلًا في الاستيقاظ صباحًا؟ كنت لتستقل قطارًا مختلفًا، ترى أشخاصًا جديدة، ربما تنجو من حادث أو تصادف زوجتك المستقبلية. ربما لا تعرف أبدًا المسار البديل الذي كنت لتسلكه لو استيقظت مبكرًا لكنه بالتأكيد مسار مغاير لما مر بك اليوم، مسار قادك إلى نتيجة ما بعد عشرين عامًا من الآن حتمًا لم تكن لتصل إليها لو أنك فقط استيقظت مبكرًا بضعة دقائق!

التاريخ يعج بملايين بل مليارات الأحداث التي كانت خفقة جناح فراشة كفيلة بتغييرها. ماذا لو لم يهزم هتلر في ستالينجراد؟ لو لم تدعم الولايات المتحدة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى؟ لو انتصر نابليون في واترلو؟ مئات الـ «ماذا لو» تراود الجميع؟ ملايين الفراشات التي لم تحرك جناحيها فوأدت بذلك الكثير من المسارات البديلة التي ربما كانت أفضل مما اختارته لنا فراشاتنا الصامتة الساكنة.

محاضرتنا اليوم انتهت، لكن خيالنا لن يتوقف. أطلقوا له العنان، ليبحر في كتب التاريخ فيأتي لنا بمسار أصلي، ثم يخلق فراشته الخاصة وأثرها الذي سيمحو هذا المسار ويستبدل به مسارًا بديلًا يبدو فيه أثر الفراشة واضحًا جليًا، نتيجة مغايرة تمامًا لما حدث ونهاية مختلفة عما أنبأتنا به كتب التاريخ."

أنهى المتحدث محاضرته بهذه الكلمات، وبدأ يهم بالانصراف حين استوقفته يدًا مرفوعة طالبة الإذن بالكلام.

تفضل، ما هو سؤالك؟

في الحقيقة هو ليس سؤالًا بقدر ما هو تعليقًا على ما طرحته واختلافًا معه.

انتبه المحاضر مع كلمات صاحب السؤال، وأعاد أدواته التي كان قد بدأ في جمعها استعدادًا للانصراف للطاولة مرة أخرى، ونظر إلى السائل قائلًا في اهتمام:

- بكل سرور، أنا أسمعك.

شعر السائل بجدية أستاذه، فاعتدل في وقفته، وعدّل من ملابسه ثم بدأ في الحديث:

- قرأت كثيرًا عن أثر الفراشة، ولا أخفيك أن النظرية لا غبار عليها ولا مجال لدحضها أو إثبات فشلها، لأن الحاضر لا يمنحنا إلا فرصة واحدة للمستقبل، فرصة لا نستطيع معها تجربة مسار آخر ومقارنته بالمسار الأصلي. لكن هذه الأسباب نفسها تجعل أيضًا إثبات صحة النظرية محل شك كبير.

تساءل الأستاذ وقد بدا على وجهه علامات التركيز والجدية:

- عذرًا لم أفهم كيف تكون هذه الأسباب هي عوامل شك في صحة النظرية. هل لك أن تشرح لي وجهة نظرك بمزيد من التفصيل.

- حسنًا، دعنا نضرب مثالًا لتكون الصورة أوضح. يقول العالم الأمريكي إدوارد لورنز في تجربته التي أجراها على التنبؤ بالأرصاد الجوية ومحاكاتها عن طريق الحاسب الآلي أن رقمًا صغيرًا بعد العلامة العشرية الرابعة أو الخامسة تغير في بياناته التي أدخلها للحاسب أنتجت نموذجًا مغايرًا تمامًا لنموذج التنبؤ بالطقس الأول، فقط حينما غير رقمًا صغيرًا جدًا من الممكن تقريبه أو إهماله. علميًا ونظريًا لا يمكن التشكيك في صحة هذه الفرضية، لكن هذه الفرضية لم تضع في اعتبارها إلا فراشة واحدة فقط.

- فراشة واحدة؟! نطقها الأستاذ متعجبًا.

- نعم فراشة واحدة، فقد افترض لورنز أن جناح هذه الفراشة سيقوم بتعديل بسيط على أحد المعطيات لينتج بعد ذلك نتيجة مختلفة، وتجاهل أن ربما تقوم فراشة أخرى بمعادلة هذا التأثير الطفيف وتقضي على المسار البديل في مهده، أو ربما تأتي فراشة أخرى بعد عدة دقائق لتخفق بجناحيها هي الأخرى لتقودنا من المسار البديل الثاني إلى مسارٍ ثالثٍ فرابعٍ إلى أن ينتهي بنا الحال لنفس النتيجة الأولى لكن عن طريق الولوج لمسارات بديلة عديدة.

بدا أن الأستاذ قد استوعب الفكرة، لكنه صمت قليلًا واحترم الجميع صمته، لحظات من الصمت والتفكير قطعها السائل مرة أخرى بمثال جديد وكأنه يريد أن يقضي على أي محاولة من أستاذه لنقد رؤيته.

تقول أن هتلر لو لم يهزم في ستالينجراد لكان قد حكم العالم، لكن ماذا لو كان انتصر هناك ثم هُزم في باريس؟ أو انتصر في باريس وأباد لندن ثم مات فجأة وهُزم

خليفته؟ أو جاءت الولايات المتحدة بقنابلها الذرية ودكت برلين بدلًا من هيروشيما؟ مئات المسارات البديلة المتداخلة التي ربما كانت لتقودنا إلى نفس النتيجة.

- لا بأس، الفكرة واضحة تمامًا لكنها تلعب على وتر الفرضيات والاحتمالات.

كذلك نظرية أثر الفراشة أيضا، فهي تضع فرضية أن الفراشة كانت لتحرك جناحها. لكن ماذا لو لم تحركه؟ ماذا لو حركت فراشتان أجنحتهما معًا؟ بالنهاية كلها احتمالات.

- لكن ما الذي يجعلك ترفض فكرة احتمال تغير التاريخ أو نتائجه إذا ما تغيرت البدايات؟

- إيماني بأن ما حدث كان دومًا هو الخيار الوحيد المتاح، نحن نمتلك ملايين الخيارات والمسارات المستقبلية لكن بمجرد اختيار أحدها يصبح لدينا مسارًا واحدًا سلكناه ونتيجة واحدة كتبها الله منذ بدء الخليقة. لو كنا نملك اختيار نتيجة أخرى كنا اخترنا خيارًا آخر. كنا نملك ذلك بالفعل قبل الاختيار لكننا لا نملكه بعدها أبدًا.

- التاريخ لا يسير في خطوط ومسارات متوازية وإنما يدور في حلقات متداخلة. أي شخص يستطيع أن يرسم آلاف السنياريوهات لأحداث تاريخية مضت وانقضت. بإمكانك أن ترسم مسارًا بديلًا يكون فيه سعد بن عبادة هو خليفة المسلمين الأول، ثم تكون الخلافة حكرًا على الأنصار، لكنني قادر على إفساد هذا المسار بعدها بعدة سنوات عن طريق الأمويين كمثال. تستطيع أن تنتصر العباسيين على المغول، وتهب الحياة لقطز. وترسم صورة وردية عن معركة بلاط الشهداء فينتصر المسلمون، وتذهب بالإسلام إلى فرنسا وبريطانيا، فيدخل ملوكهم الإسلام، لكنني قادر بعدها على إفساد نسلهم وارتدادهم. تستطيع ترجيح كفة الجزائريين في نفارين، لكنني سأظل قادرًا على منح ألف سبب للفرنسيين لاحتلالهم لاحقًا. وكما بدت الفرصة سانحة لمليارات الافتراضات في كل لحظة تمر على حدث ما، تظل نفس الفرصة سانحة لمليارات الخيارات العكسية التي تعود بالحدث لمساره الأصلي.

صمت الأستاذ مرة أخرى، وأطرق برأسه مفكرًا ثم استدار بعدها ليواجه الجالسين جميعًا قائلا:

- حسنًا، دعونا إذن نضفي المزيد من المتعة على بحثنا القادم. ستبقى مهمتكم كما هي، سيختار كل منكم لحظة تاريخية تحتاج إلى فراشة، وستتكفل أجنحة هذه الفراشة بتغيير مسار التاريخ. مهمتكم تتوقف عند هذه اللحظة لتبدأ مهمة صديقنا. سيأتي بفراشاته هو لتقنعنا بأن أثر الفراشة غير كافٍ لتغيير مجرى التاريخ، وأن فراشاته قادرة على إعادة الأمور لنصابها. موعدنا الشهر القادم، كل يحشد فراشاته ولنرَ أي فراشات ستنتصر، فراشات المسارات البديلة أم فراشات التاريخ.

المسار الأول

أبناء الحسين يرثون الحكم

بقلم عمرو يسري

بعد الانتهاء من دفن سالم، اجتمع كبار رجال الدولة لاختيار خليفةٍ لسالم من بين أفضل الولاة، فاستقر رأيهم على تولية زيد بن عليّ بن الحُسَين لحنكته السياسية والعسكرية، وأيضًا لدوره الكبير في القضاء على فتنة المتمردين، إلا أن زيدًا امتنع قائلًا: لقد أخذ جدي العهد على أبنائه ألا يتولى أحدٌ منهم الخلافة بعده. فقالوا له: لقد أخذ الحُسَين العهد على أبنائه فقط، ولم يأخذه على كل ذريته، وليس من المعقول أن ينصرف جميع نسله عن الأمر. وتحت إلحاح الناس لم يجد زيد إلا أن يتولى الخلافة، فتمت له البيعة في ذي الحجة بعد موسم الحج.

رأى زيد أن يستكمل حركة الفتوحات التي تباطأت وتيرتها في عهد سالم، فأخذ يتشاور مع كبار رجاله عن أنسب البلاد لاستئناف الفتوحات، اقترح البعض عليه فتح الصين إلا أنه قال: إني قد وصلت حدود الصين مع قتيبة، هي بلد حصونها منيعة يصعب اختراقها، أرضها شاسعة تحتاج لعدد كبير من الجنود لبسط النفوذ عليها، وقد حاصرها مصعب "رحمه الله" عامًا فلم يقدر عليها، إني أرى أن نفتح المغرب الأقصى في إفريقيا فيصير الساحل كله لنا. فوافق الحاضرون، وأرسل زيد جيشًا كبيرًا بقيادة عبيد الله بن الحبحاب إلى المغرب الأقصى، فلم يلبث إلا قليلًا حتى فتحها، وأصبح الساحل الإفريقي بالكامل تحت سيطرة المسلمين، إلا أن ابن الحبحاب قد لاحظ تحركاتٍ عسكريةٍ للروم وحشود في الجزر المقابلة لشاطئ المغرب وإفريقية، فأرسل إلى زيد يستشيره. فجمع زيد كبار القوم، واتفق رأيهم أن يتم حشد السفن من جميع الموانئ الإسلامية المطلة على بحر الروم، بحيث يخرج من كل ميناء عدد من السفن، وأن يهاجم الأسطول هذه الجزر بغرض تخويف الروم فقط ثم الارتداد إلى الموانئ الإسلامية؛ لأن هذه الجزر أقرب لبلاد الروم من بلاد المسلمين، وبالتالي سيكون من العسير استقرار المسلمين فيها طويلًا.

وبالفعل احتشدت السفن عند شواطئ إفريقية والمغرب، واشتعلت معركةٌ شديدةٌ بين الأسطولين، انتهت بانسحابهما إلى قواعدهما بعد خسارة عدد كبير من السفن والجنود، ورغم عدم تحقيق المسلمين للنصر في هذه المعركة البحرية إلا أنها قد أدت الغرض منها، حيث خشي الروم من مهاجمة سواحل المسلمين، وسحبوا حشودهم من الجزر، وارتدوا إلى بلادهم مرةً أخرى.

استمرت فتوحات زيد بعد ذلك في إفريقيا، فقد كان يرى أن هذا أفضل من محاولة فتح الصين؛ لأن إفريقيا أقرب إلى المدينة - مركز الخلافة -، وبالتالي يسهل متابعتها وإمدادها بالجيوش والمؤن، وأيضًا حتى يحدث توازن، فلا تتمدد الدولة كثيرًا في الشرق على حساب الغرب.

كانت الأمور تسير على ما يُرام خلال عهد زيد إلا أن هناك خطرًا لم ينتبه إليه أحد، بل لم يكن أحد يعلم بوجوده من الأساس، إنهم الخوارج. الخوارج الذين ظنَّ الجميع أنهم قد هلكوا في عهد الحُسَين، لكن استطاع بعضهم حينها الهروب إلى الدول المجاورة، وظلوا على عقيدتهم في بُغض عليّ بن أبي طالب وآله، وزاد من بغضهم له ما جرى لهم من تشريد على يد ابنه العبَّاس في زمن الحُسَين، لذلك فبمجرد علمهم بتولي أحد أحفاده الخلافة، فقد ثارت لديهم ثائرتهم القديمة، وأجمعوا أمرهم أن يقتلوه انتقامًا لأجدادهم الذين قُتلوا على يد عليّ في النهروان، وعلى يد الحُسَين والعبَّاس من بعده.

لكن الخوارج كانوا أذكياءً بحيث لم يعلنوا عن أنفسهم صراحةً، بل تسللوا عائدين إلى العراق مستغلين بُعدها عن المدينة، وانشغال زيد بالفتوحات في إفريقيا، وعاشوا هناك حياةً طبيعيةً في العلن، لكن في السر كانت لهم حياتهم الخاصة حيث كانوا يجتمعون ليدرسوا كيفية القضاء على زيد بن علي، وقد اتفقوا أن يتولى الضحاك بن قيس الشيباني قيادتهم لما يمتاز به من دهاءٍ وحُسن قيادة.

كانت خطة الضحاك طويلة الأمد تعتمد على كسب سمعة طيبة لدى الناس بحيث يُكوِّن قاعدة كبيرة يستطيع أن يستند عليها عند خروجه على زيد، فأمر أتباعه بالانتشار في الكوفة والبصرة وكربلاء، وأن يلتزموا بأداء الصلوات الخمس في المساجد الكبرى، والجلوس فيها طويلًا لتدارس القرآن؛ حتى يشيع ذكرهم بين الناس أنهم من أهل القرآن والذكر، وأمرهم أيضًا أن يتجنبوا الخلافات مع الناس على أي أساس، وأن يتجنبوا الخوض في النقاشات السياسية، وبالفعل التزم أتباعه بأوامره، وتدريجيًا بدأ صيتهم يذيع في مناطقهم، وعرفهم الناس أنهم أهل ذكرٍ وصلاح، وصار لهم أتباعٌ.

بعد فترةٍ من الوقت، وجد الضحَّاك أن الناس في العراق قد وثقوا بهم، وأنه حان الوقت لتصعيد الأمور قليلًا، فأمر أتباعه أن يزيدوا من عبادتهم فيُقيموا كل الليل، ويصوموا كل النهار؛ حتى يتبع الناس عبادتهم، ثم يبدأون في تقليبهم ضد ولاة زيد، ويتهمونهم بقلة عبادتهم، وانشغالهم بأمور السياسة والتجارة والزراعة عن العبادة. ورغم البطء الذي كانت تسير به حركة الخوارج إلا أنها آتت أكلها، فبدأ أتباعهم يهاجمون الولاة، ويرفضون الصلاة خلفهم، بل تولوا هم إمامة الناس في الكثير من المساجد.

أرسل ولاة العراق إلى زيد في المدينة يعلمونه بما جرى، فرأى أن يُرسِل إليهم من العلماء مَن ينصحهم، فأرسل وفدًا برئاسة أخيه مُحمد المعروف بالباقر ليناظرهم وينصحهم إلا أن الخوارج ثاروا ضد الوفد، واتهموهم بالمحاباة في دين الله، ومحاولة صرفهم عن العبادة بالقوة، وهو ما أثار أتباعهم، فهاجموا الوفد، وطردوهم من العراق، وامتد الأمر لمهاجمة دار الوالي وإحراقها، وعاثوا في العراق فسادًا إلى أن استطاعوا السيطرة عليها تمامًا.

هنا رأى الضحاك أن الفرصة صارت مناسبة ليس فقط لقتل زيد، بل لإعلان دولته، فأشاع في الناس أن زيدًا قد خالف وصية جده الحُسَين بعدم تولِّي أي من أبنائه

الخلافة من بعده، وفسَّر أن أحفاد الرجل يدخلون في أبنائه، وبذلك تكون ولاية زيد باطلة، فصعد منبر مسجد الكوفة، وأعلن خلع زيد، وأعلن العراق إمارة منفصلة وسمَّاها "إمارة المؤمنين" ، ودعا لنفسه بالبيعة، فبايعه أتباعه ومَن تأثَّر بهم، وأجبروا مَن امتنع أن يُبايع قسرًا.

ارتجَّت أركان الدولة لهذا الأمر، وتذكَّر الناس أيام حروب الفتن، ومما زاد الأمر خطرًا أن عددًا من الجنود قد انضموا للخوارج بأسلحتهم، لذلك فقد جهَّز زيدٌ جيشًا كبيرًا، وقرر أن يقوده بنفسه لقتال الخوارج رغم تحذير الكثيرين له من خطورة ذلك على حياته، لكنه رفض نصائحهم، وكان ممن اصطحبهم معه ابنه يحيى الشاب المعروف بالفروسية ودوره في فتوحات إفريقيا رغم صغر سنه.

علم الضحَّاك بمجيء زيد بجيشٍ كبيرٍ إليه، فأدرك أنه سيُهزم إن دخل معه في مواجهةٍ مباشرةٍ، كما أن لا قِبل له بحصارٍ طويلٍ، فرأى أن الخروج من هذا الموقف الصعب لن يتم إلا بخدعةٍ. اقتربت طلائع جيش زيد من حدود العراق، فخرج المؤيدون له لاستقباله بحفاوةٍ، عسكر الجيش عند النجف بالقرب من الكوفة، وبات زيد ليلته يُنظم صفوف جيشه ومع فجر اليوم التالي، انطلقت الأحجار من المجانيق تدق حصون الخوارج دكًّا، فهوت الكثير منها على الأرض، ثم اندفع الآلاف من الجنود إلى داخلها، لكنهم فوجئوا بشيء لم يخطر لهم ببالٍ، البيوت خلف الحصون خاويةٌ على عروشها، لا يوجد أحدٌ على الإطلاق. شعر زيدٌ بالقلق، وأيقن أن هذا فخٌ، لكنه لم يُرد أن يأمر جنوده بالتراجع؛ حتى لا يشعروا بالانهزام قبل بدء المعركة.

فجأة انطلقت المئات من كرات النار الملتهبة من داخل البيوت نحو الجنود فأمسكت النيران في أجسادهم، كان مشهد الجنود رهيبًا، وهم يركضون في كل اتجاه كالممسوسين، والنيران مشتعلة في أجسادهم، وصراخهم يمزق حناجرهم، لم يجد زيد بُدًا من سحب جنوده، فارتد الجنود بأقصى سرعةٍ نحو معسكرهم، والنار مشتعلة في الكثيرين منهم.

كانت الصدمة قوية ومفاجئة، فلم يتعرَّض المسلمون لمثل هذا الهجوم الحارق من قبل، ومما زاد الطين بلةً هو ركضهم مما زاد اشتعال النيران في أجسادهم. وسط هذه الفوضى العارمة، لم ينتبه أحدٌ للشاب الذي تسلل خارجًا من بيوت الخوارج، وانقضَّ على أحد جرحى جيش زيد فقتله، ثم خلع ملابس الجندي وارتداها، ولطخ وجهه بالطين ودماء القتيل حتى يبدو عليه أثر المعركة، ثم أسرع وسط جنود زيد المنسحبين. ظل هذا الشاب يتربَّص بزيدٍ الذي كان يساعد جنوده على الانسحاب غير منتبهٍ له، أمسك الشاب بخنجره بين طيات ملابسه، وفجأة انقضَّ على زيدٍ من الخلف، وحزَّ نحره بالخنجر.

صاح جندي من جيش زيدٍ: قُتِل أمير المؤمنين! انقضَّ جنود زيدٍ على القاتل فمزقوا جسده بسيوفهم، وحملوا جسد زيد على أعناقهم إلى أن انتهوا به إلى معسكرهم.

ضجَّ معسكر زيد وأهل العراق المؤيدين له بالبكاء، ووصل الخبر إلى الأمصار المجاورة الذين هبَّ أهلها، وأسرعوا بالانضمام لمعسكر زيد للانتقام من قتلته. أراد جنود زيد التمثيل بجثة قاتله إلا أن ابنه يحيى نهاهم، وقال لهم: لقد نهى رسول الله عن المثلة ولو بالكلب العقور.

قام يحيى بالصلاة على والده ومَن معه من الشهداء، ثم قاموا بدفنهم في مكانٍ صار الناس يعرفونه ب "المحرق" نسبةً للشهداء الذين ماتوا مُحترقين، وأحيانًا يُطلقون عليه "سيدي زيد" نسبةً لزيد بن عليّ المدفون بها، وهكذا انتهى عهد زيد بعد عشرين عامًا قضاها في الخلافة بين فتوحاتٍ وإصلاحاتٍ وجهادٍ.

ذُهِل الجميع لمقتل زيد؛ فهو أول خليفة يُقتَل منذ مقتل جده علي بن أبي طالب، واجتمع القادة سريعًا لاختيار أمير جديد للمؤمنين، فاتفقوا على مبايعة يحيى بن زيد الذي رفض بشدةٍ قائلًا:

- سيقول الناس أن بني هاشم يريدون أن يتوارثوا الحُكم، ينبغي أن نُرسل إلى المدينة وباقي الأمصار نستشيرهم في هذا الأمر.

لكن القادة احتجُّوا قائلين: يا يحيى، لا يوجد وقتٌ لهذا، فالخوارج قد يهجمون علينا في أي وقتٍ، وهذا قد يُغري الدول المجاورة بالهجوم علينا، ابسط يدك نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه والخلفاء الراشدين. لم يجد يحيى وسط هذه الظروف إلا أن يُبايع قادة الجيش إلى أن يعود إلى المدينة فينظر رأي كبار القوم.

***

نظر يحيى إلى الأوضاع الراهنة، فوجد أنه لا يمكنه الهجوم على الخوارج بنفس الطريقة التي حدثت؛ ليس فقط خوفًا من فخٍ آخر، لكن أيضًا حتى لا يُعيد للجنود ما حدث لإخوانهم خلال الهجوم الأول، فقرر أن يضرب حصارًا شديدًا على منطقة الخوارج مع قصفهم باستمرار بالمجانيق، بل استلهم منهم أيضًا فكرة كرات النار الملتهبة، فأمر بصنع كرات هائلة الحجم من المواد القابلة للاشتعال، وإشعال النار فيها وقذفها داخل حصونهم، وأمر بردم جميع آبار المياه التي يمكن أن تمد الخوارج بالمياه، باختصار قرر يحيى أن يدمرهم تمامًا قبل أن يقتحم الجنود ما تبقى من الحصون مرةً أخرى.

وعلى مدار شهرٍ كاملٍ استمر قصف الجيش للحصون بالحجارة والنيران، وكان الجنود يسمعون أصوات صرخات الخوارج بالداخل. نتيجة ذلك الحصار الشديد والقصف المتواصل، بدأت تعلو بعض الأصوات من داخل ما تبقَّى من حصون الخوارج

طلبًا للصلح، فأشار أحد جنود يحيى عليه بفكرةٍ ماكرةٍ، وهي أن يُنادي منادٍ من جيش يحيى في الخوارج أن مَن أراد الصُلح فليقتل صاحبه، ويخرج إلينا بجثته، وبهذا يدب الانقسام في صفوفهم ويقتلون أنفسهم بأيديهم.

أعجِب يحيى بالفكرة، وأمر بتنفيذها، وأمر جنوده أيضًا بعدم الغدر بأي شخص من الخوارج يُسلم نفسه قائلًا: نحن أهل بيتٍ لا يغدر. وبالفعل آتت هذه الفكرة الذكية أكلها، فعلى مدار الأيام التالية، كانت تتصاعد من فترةٍ لأخرى أصوات لشجارات وصرخات من داخل حصون الخوارج، وهو ما يُشير إلى أن بعضهم بالفعل حاول تسليم نفسه لعسكر يحيى، وفي أحد الأيام لمح الجنود رجلًا يخرج من بيوت الخوارج، وهو يحمل جثمانًا إلا أن سهمًا جاء من حصون الخوارج اخترق رأسه فأرداه قتيلًا.

أدرك يحيى انحدار معنويات الخوارج، فأراد أن يطرق الحديد وهو ساخن، فأمر جنوده أن يصيحوا جهة الخوارج قائلين كلامًا يُثبِّط من عزمهم، وعلى مدار الأيام التالية انطلقت حناجر الجنود بأعلى صوتٍ قائلين:

"أيها الفاشلون، لقد هُزمتهم تمامًا، ولم يعد بإمكانكم المقاومة أكثر من هذا".

"اقتلوا قائدكم وسلموه لنا؛ حتى نوافق على الصلح".

"هذا جزاء مَن يُحارب الله ورسوله، ويسعى في الأرض فسادًا".

وبهذا يُعتَبر يحيى أول مَن استخدم أسلوب "الحرب النفسية" بوضوح في تاريخ الإسلام. كان يحيى يُدرك تمامًا أن الخوارج لن يستطيعوا الصمود أكثر من هذا، وسيخرجون من حصونهم للقتال، فأمر جنوده بوضع أشواكٍ غليظةٍ خارج الحصون، وتغطيتها بطبقةٍ خفيفةٍ من الحشائش؛ حتى يتعثر فيها الخوارج أثناء اندفاعهم خارج الحصون.

وبالفعل، بعد حصارٍ دام أربعة أشهرٍ، ومع فجر أحد الأيام انطلق الخوارج من حصونهم باتجاه عسكر يحيى، لكنهم تعثروا بالأشواك، ودُميت أقدامهم، فانقضَّ عليهم جنود يحيى، وأشبعوهم قتلًا حتى أفنوهم تمامًا، وبذلك تمكَّن المسلمون من القضاء على هذه الفتنة التي كادت تعصف بالدولة الإسلامية بأكملها.

انتشرت أخبار الانتصار في أرجاء الدولة ففرح الناس بها، وعاد الجيشُ إلى المدينة فاستقبله أهلها استقبال المنتصرين، وقرر كبار القوم تثبيت يحيى في إمارة المؤمنين لما أبداه من شجاعةٍ وذكاءٍ خلال الحرب. لكن وسط هذه الفرحة والاحتفالات، كان البعض غير سعيد بتثبيت يحيى في الخلافة، وعلى رأس هؤلاء ثلاثة إخوة اجتمعوا في بيت كبيرهم في مدينة خراسان البعيدة عن المدينة، هؤلاء الثلاثة هم إبراهيم "وكنيته أبو إسحاق"، وعبد الله "وكنيته أبو جعفر"، وعبد الله "وكنيته أبو العبَّاس" أبناء محمد بن علي بن عبد الله بن العبَّاس.

بدأ الأمر عندما أرسل سالم بن عبد الله بن عُمَر أثناء خلافته وفدًا برئاسة علي بن عبد الله بن العبَّاس إلى خراسان لمواجهة الفتنة التي حدثت في البلاد، فانتقل عليّ إلى هناك بأسرته، وكان من بينهم ابنه محمد وأحفاده الثلاثة، وبعد أن أتمَّ علي مهمته عاد إلى المدينة، بينما فضَّل ابنه وأحفاده البقاء في البلاد.

كان الإخوة الثلاثة يشعرون بالضيق نتيجة عدم استخدامهم من قِبل الخلفاء المتعاقبين في أي أمرٍ من أمور المسلمين، لكنهم كانوا يحتفظون بضيقهم لأنفسهم إلا أن تثبيت يحيى بن زَيد في الخلافة كان هو الجذوة التي أشعلت نار غضبهم، فقد شعروا أن الأمر سيصبح متوارثًا في أبناء زيد وأحفاده.

لذلك فقد جمع إبراهيم أخويه، وقال لهم: لقد كان لأجدادنا دور كبير في تثبيت أركان هذه الدولة منذ بداية الفتنة بين علي ومعاوية، وها نحن بعد هذه السنين يتم تهميشنا، بينما يتوارث بنو الحُسَين الخلافة دوننا، وغدًا يضيع ذكر عبد الله بن العبَّاس ونسله بين الناس.

- فماذا ترى يا أبا إسحاق؟

- أرى أننا أحق بالخلافة من غيرنا، وطالما أن الخلافة صارت متوارثة في بني هاشم، فلماذا لا ينتقل الأمر لنا!

- صدقت يا أخي، فما رأيك أن ندعو لأنفسنا، وندعو الناس لمبايعتنا؟

- بالطبع لا، لأن الناس يحبون يحيى بعد انتصاره على الخوارج، وسيدافعون عنه، بل نبدأ الأمر بالحديث مع الناس سرًا عن خطورة توريث الخلافة، وأن هذا يُشبه ما حاول بنو أمية فعله قديمًا، فيميل الناس لنا، وبعد أن نجمع الأتباع ننشر الأمر في العلن، ثم ندعو لأنفسنا، وندعو الناس لمبايعتنا.

وبالفعل بدأ الإخوة الثلاثة في نشر دعوتهم أولًا سرًا، وقد وجدت دعوتهم صدى بين عدد من الناس؛ بسبب خوفهم من تكرار ما حدث من محاولة توريث للحكم في بني أمية، وكان من بين الملبين لدعوتهم رجلٌ يُدعى عبد الرحمن بن مسلم "وكنيته أبو مسلم" الخرساني، وقد كان هذا الرجل هو أكبر مكسب لدعوة الإخوة الثلاثة؛ فقد كان رجلًا عسكريًا كما أنه يحظى باحترام كبير من الفُرُس لاعتقادهم أنه من نسل آخر أكاسرتهم يزدجرد الثالث، وهؤلاء الفرس رغم دخول أغلبهم في الإسلام إلا أنهم لم ينسلخوا من أصلهم، وقد شاع فيهم أن يزدجرد الثالث هذا قد تنبأ قبل موته بعودة مُلكه من خلال أحد أحفاده، فتأمَّل الفرس أن يكون أبو مسلم هو المقصود بتلك النبوءة.

واستمرت دعوة الإخوة في الانتشار سرًا إلى أن وشى بهم أحد الأشخاص عند أمير

خراسان، فألقى القبض على إبراهيم الإمام الذي أخفى أمر إخوته، وقال أنه يقوم بهذه الدعوة وحده، وأوصى إلى أخويه باستمرار الدعوة، أرسل الأمير بإبراهيم إلى يحيى بن زيد الذي لام إبراهيم قائلًا: يا ابن العم، ما حملك على هذا!

فقال إبراهيم: لاستئثاركم بالأمر دون غيركم.

- إنما فعلتها لأنك أردتها لنفسك يا إبراهيم.

وأمر يحيى بسجن إبراهيم في المدينة الذي لم يلبث أن مات فيه بعد فترةٍ. لكن الأخوين عبد الله استمرَّا في دعوتهما، وقرَّرا أن يجهرا بالدعوة، وأثاروا الناس ضد

يحيى، وادّعوا أنه يريد الاستئثار بالخلافة وتوريثها لأبنائه من بعده، بل إنهم استطاعوا استثارة بعض بني هاشم -وخاصة بني العبَّاس بن عبد المطلب- ضده بدعوى أنه يريد أن يُقصي بني هاشم، ويحصر الخلافة في ذريته فقط، وهكذا ثارت النعرات القبلية مرةً أخرى بين المسلمين.

وفي اللحظة المناسبة، قام أبو مُسلم الخرساني -الذي كان عسكريًا بارعًا- بإيعاز من الأخوين بالوثوب على أمير خراسان وقتله، وسيطر بجيشه على خراسان وما حولها، ثم سيَّر الجيوش للسيطرة على جميع بلاد ما وراء النهر، بينما قاد الأخوان جيشًا آخرًا للسيطرة على العراق كما استغلت بلاد الشام الفرصة، وثارت أيضًا؛ فنتيجةً لتصاعُد النعرات القبلية في هذه الفترة، شعر بعض أهل الشام بالحنين لفترة حُكم الأمويين التي كانوا ينعمون فيها بالرخاء الكبير قبل أن يتشدد الخلفاء من بعدهم في محاسبتهم ماليًا، فثار أهل الشام على أميرهم وطردوه، وأعلنوا أنفسهم إمارةً منفصلة عن دولة الخلافة في المدينة. أرسل الأخوان جيشًا إلى الشام بقيادة عمهما عبد الله بن علي للسيطرة عليها؛ فهما لن يسمحا بظهور منافس جديدٍ لهما في هذه المرحلة، فاقتحمها وعاث فيها قتلًا وتشريدًا إلى أن أخضعها لسيطرته، وترك فيها حاميةً قويةً، وسار ببقية جيشه إلى أن التقى بجيش ابني أخيه القادم من العراق بعد أن سيطر عليها.

وصلت الأخبار إلى يحيى في المدينة الذي أصابه التردُّد لأول مرةٍ في حياته رغم شجاعته المعروفة؛ لأنه لم يُرِد أن يُقاتِل أبناء عمومته من بني العبَّاس، ومَن معهم من بني هاشم، وقد حاول التوصُّل من خلال وسطاء لحلٍ يُرضي الجميع إلا أن بني العبَّاس أبوا إلا تسليم الخلافة لهم، وعندما علم بمسير جيشٍ إليه في المدينة، لم يجد إلا أن يخرج لمواجهته خارج المدينة، حاول بعض قادته إقناعه بالتحصُّن في المدينة، وانتظار المدد من باقي الأمصار إلا أنه قال: لا والله، لا أجعل مدينة رسول الله ساحةً للقتال، إني أحرص منهم على حُرمة المدينة.

وقبل خروج يحيى مع الجيش إلى المدينة، ذهب إلى أهل بيته فقال لهم: يعلم الله أني كنت كارهًا لهذا الأمر منذ بدايته، وكنت أرغب في مصالحة بني العبَّاس لولا سفكهم للدماء في خراسان والشام والعراق، وإني خارج الآن لقتالهم، ولن أعود إلا منتصرًا أو مقتولًا، فإن وصلكم نبأ مصرعي، فاخرجوا من المدينة، "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ"، واركبوا البحر، واذهبوا إلى المغرب الأقصى فإنها بعيدةٌ عن المدينة، وكانت دومًا بعيدةً عن الفتن، واحذروا على أنفسكم، ولا تسعوا في طلب المُلك؛ إن المُلك آسرٌ. ثم خرج يحيى على رأس جيشه لملاقاة جيش بني العبَّاس خارج المدينة، فلما تلاقى الجيشان، خرج يحيى لهم صائحًا: اتقوا الله، ولا تسفكوا الدماء التي حرم الله إلا بالحق، ولا توقدوا نار الفتنة بعد إذ أطفأها الله، إن الله قد رزقنا بلدةً آمنةً مطمئنةً فلا تُلبسوها لباس الجوع والخوف. فصاح أبو العبَّاس:

- انزل على حكمنا، ولن ترى منَّا إلا ما تُحب.

فقال يحيى:

- لا والله، لا أنزل على حُكمكم كالذليل، ولا أفرُّ كالعبيد.

أيقن كلاهما أنه لا بديل عن المعركة، فانطلق الجيشان بكلِ قوةٍ، التحمت المسيرة بالميمنة، والميمنة بالميسرة، والقلب بالقلب، تبادل الجنود الضربات بقوةٍ وسرعةٍ كأنهم يريدون أن ينتهي

هذا الكابوس سريعًا، سقط العشرات ثم المئات على الأرض بين قتلى وجرحى، ارتفعت الشمس في كبد السماء فألهبت حرارتها الرؤوس، وتحوَّل لون الرمال إلى الأحمر القاني من كثرة ما أُريق من الدماء. كان زيدٌ يُقاتل بسيفين بينما يوجِّه الفرس بقدمه، كان يهدُّ بسيفه الجنود يمينًا ويسارًا حتى صار جنود بني العباس يخشون مواجهته، وأدرك أبو العبَّاس ذلك، فاشتبك بنفسه مع يحيى، كان اللقاء بينهما رهيبًا؛ كان يحيى يحمل سيفين في يديه، بينما أبو العبَّاس يحمل سيفًا في يمناه ودرعًا في يسراه، استمر الاشتباك بينهما طويلًا إلى أن جاء رجلٌ من بني العبَّاس فضرب ذراع يحيى اليُمنى فقطعها، وضرب السفَّاح عنقه فسقط على الأرض صريعًا.

ارتفعت التكبيرات من جيش بني العبَّاس وهتفوا: "قُتِل يحيى بن زيد" ، فأصاب الاضطراب جيش يحيى، ففرَّ منهم مُن فرَّ، بينما ثبت فريقٌ آخر، وصاح رجلٌ منهم: "إن كان يحيى قد مات، فلنمت على ما مات عليه" ، واندفعوا بخيولهم إلى قلب جيش بني العبَّاس إلى أن قُتلوا جميعًا معه. وبهذا انتهت دولة يحيى بن زيد التي لم تدم أكثر من ست سنوات، وتولّى أبو العبَّاس الخلافة، وتلقَّب بالسفَّاح فصار اسمه "أبا العبَّاس السفَّاح"، وجعل أخاه أبا جعفر -الذي تلقَّب بعد ذلك بالمنصور- وليًا للعهد ليبدأ العصر الذي عُرِف فيما بعد بـ "الدولة العبَّاسية".

المسار الثاني

الحجاج يعيد الأمويين

بقلم معتز حجازي

مرت السنوات في هدوء ورخاء بدون حرب وسعد الناس بحكم الزبير بن العوام لعدله. هرم الزبير شعر أن أجله قد اقترب ففضل أن يختار الناس من يخلفه وهو على قيد الحياة حتى لا يموت ثم تحدث أي فوضى في الاختيار من بعده. أشاع في البلاد أنه سيتنازل عن الخلافة لأحد من عماله العشرة الذين يقومون بأعمال البلاد المختلفة، وعلى الناس أن تقرر في مدة أقصاها ثلاثة أشهر من سيختارون لخلافته.

وضع الزبير نظامًا للاختيار فالناس زادت والأراضي اتسعت رقعتها ولا بد من وضع شكل جديد للمبايعة. كان الأمر جديدًا على كل الناس، فيتجمع العمال العشرة ويبدأون رحلتهم بصحبة مجموعة مكونة من خمسة رجال أمناء من اختيار الخليفة الزبير لتدوين من بويع بعدد أكبر، ويمكثون في كل مدينة أسبوعًا ثم ينتقلون لمدينة أخرى وهكذا حتى استقر بهم الأمر في النهاية في مكة لأخذ البيعة النهائية هناك ومنها يعلن تنصيب الخليفة الجديد.

و لكن الأمر لم يكن ليمر بهذه السهولة؛ فهناك في الشام التي رجعت لرونقها ورجع لها أهلها من جديد كان عبد الملك بن مروان الذي عزم على الانتقام وارجاع الحكم للأمويين بالتوارث مرة أخرى لأنه حق وسلب منهم بسبب خيانة معاوية. وكان يدبر الأمور في الخفاء ليظهر في الوقت المناسب.

***

في منزل عبد الله بن الزبير المتواضع للغاية جلس جلسته الشهيرة، كان قد شاخ وعم البياض شعره ولحيته، وما زال يجلس نفس جلسته التي يتلو فيها تسابيحه وأدعيته التي توارثها عن أمه عن أبيها وعن رسول الله ﷺ، وكما العادة كان يسكن للغاية حتى تأتي الطيور متراصة بجواره وعلى رأسه. دخل مساعده بهدوء شديد حتى لا يفزع الطير ثم وقف مكانه صامتًا منتظرًا أن يراه عبد الله بن الزبير الذي شعر به رافعًا يده منزلًا الطير من على رأسه واقفًا على كفه ثم قال لمساعده:

- أحسنت الدخول يا عامر... قل لي ماذا تحمل لي؟

قال عامر بجدية:

- لقد سرقت مخازن للأسلحة مرة ثانية في الشام واختفى خمسة من المنجنيق القديم.

انعقد حاجبا الزبير قائلًا:

- المؤامرة تتضح معالمها يومًا بعد يوم يا عامر وكان ذلك متوقعًا مع اقتراب موعد إعلان من سيخلفني، هناك من يتربص بنا جميعًا، زِد الحراسة على كل مخازن الأسلحة في كل الأمصار حتى لا يتكرر الأمر، وحث الناس أن يختاروا أحدًا يخلفني سريعًا، فمن يدبر يدبر لمنع أن يكمل الناس اختيارهم بالشورى.

***

كان الظلام دامسًا بلا صوت ولا همس، لا أعلى من صوت الأشجار التي ترتطم بها الرياح بين حين وآخر، والفئران تتحرك بحرية لخلو الطريق ليلًا وكان الجو يحمل صقيع نسمات باردة محببة للنفس. وقبل شق أول خط أبيض السماء السوداء خرج أحد الأشخاص من منزله سائرًا بهدوء بين البيوت الصغيرة حافظًا ترتيبها وطرقها يسارتها وأيمانها حتى وقف أمام الكعبة المشرفة، ثم صعدها بسلم لا يبرح مكانه أبدا، وقف فوق الكعبة ناظرًا للبيوت ووضع يده على فمه لتكبير صوته مناديًا:

- الله أكبر الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله.

أنهى الرجل الأذان، وخرج الناس جميعًا رجالًا ونساءً وأطفالًا وكأنه يوم عيد وليسوا خارجين لصلاة فجر يقيموها كل يوم، كان اليوم مبهجًا للغاية وكان الناس تنتظره منذ زمن مديد. لم يرجع الناس إلى بيوتهم بعد الصلاة ولكنهم ظلوا بالخارج منتظرين خروج العمال العشرة ليبايع كل منهم ما يرى فيه الصلاح.

خرج العمال العشرة المرشحين للخلافة على الناس وبدأ الناس في المبايعة. كان هذا حلمًا جميلًا يعيشه عبد الله بن الزبير بعد سنين خلت في الصراع على الحكم ثم أتى معاوية لخلق مشكلة جديدة وهي توارث الخلافة. حلم تشاركه هو كثير من صحابة وتابعين صالحين كانوا يرجون الشورى في الحكم وأن يكون الناس أحرارًا ورقباء على حكماهم وألا يكونوا عبيدًا جدد لنظام قديم يملك الناس والأرض بالتوارث ولكن باسم الإسلام. كان عبد الله بن الزبير سعيدًا للغاية ناظرًا للناس وهم يبايعون من يريدون. كان جالسًا أمام بيته جلسته المعتادة ناظرًا للسماء وزرقتها الذي اختلف لونها وأصبحت اليوم جميلة ولكن، ولكنه عقد حاجبيه فهناك في الأفق شيء لفت نظرة أو على الأحرى أغضبه. كان هناك في الأعلى ثلاثة صخور نارية كبيرة ضخمة طائرة تشق السماء آتية من ناحية جبل أبي قيس، نزلت الصخور مرتطمة بالبيوت مصطدمة بالناس تشعل ما تشعل وتقتل من تقتل. انتشرت الفوضى في أرجاء المكان وجرى كل لينقذ من ينقذ، دخل عامر مساعد عبد الله بن الزبير صائحًا:

- هناك جيش كبير متراص حول مكة كلها والمجانيق تدكنا، ماذا نفعل يا سيدي؟

نظر له الزبير مذعورًا غير قادر على التفكير، ولكن السهام التي تساقطت من السماء كالمطر لم تعطه فرصه لإلقاء أي أوامر، فلقد رُشق صدر عامر بسهم طائش فقتله على الفور، خرج عبد الله بن الزبير من منزله ليرى ما يحدث بالخارج وكان ما يراه لم يكن على باله.

* * *

في العادة، وإذا سارت الأمور في مسارها الطبيعي، وبعد توقف أول ضربه من الجيش المهاجم، يحاصر الجيش المهاجم تلك المدينة التي يهاجمها لفترة كبير حتى يستسلم قومها. ولكن ما حدث في مكة لم يكن شيئًا متعارفًا عليه على الإطلاق، فقد ظل ذلك الجيش يضرب من حديد بالسهام والمنجنيق لثلاثة أيام متواصلة ثم توقف الضرب تمامًا.

في مكة والغبار يعم الأجواء ويخفى وجوه جثث الرجال والنساء والأطفال ومن بقى حيًا دخل منزله مختبئًا. برز صوت طقطقة أقدام جياد تمشي ببطء بين الأزقة والطرق يسيرون فوق الجثث وفرسانها يبحثون عن شيء ما... ظلوا يقلبون الجثث ليتفحصوها باحثين عن شيء ما، حتى عثر فارس على مبتغاهم فنادى بصوت عالي:

- يا سيدي... ها هنا.

تجمع كل الفرسان الذين يمشون في المدينة بمنتهى الاطمئنان بعد أبادوا كل ما قد يثير قلقهم، ووقفوا عند جسد رجل كبير بالسن ملقى أرضًا وفي لحم كتفه سهم مغروس، يعلو صدره ببطء، نزل قائدهم من على فرسه ونزل على ذلك المسجى أرضًا وأمسكه من لحيته البيضاء ناظرًا لعينه ثم قال:

- أأنت عبد الله بن الزبير بن العوام؟

هز الرجل الكبير رأسه إيجابًا بوهن شديد وقال بصوت متحشرج:

- من أنتم؟

- نحن من وهبنا الله القوة لنرجع الحق المسلوب. أتدري ذلك الحق الذي سلبته منذ سنين بالغدر والخيانة؟ أتينا اليوم لنرجعه، أخبر صاحبك الحسين بن علي بن أبي طالب عندما تقابله أن عبد الملك بن مروان بن الحكم وقائد جيشه الحجاج ين يوسف الثقفي يرسلون لك تحياتهم، وأخبره أنك لم تصنع شيئًا فقد كنت سببًا لقتل المسلمين دون سبب، فكل الأمور سترجع لنصابها الصحيح ولن نذكر أبدًا أنك توليت خلافة المسلمين ولكن بعد يزيد أتى مروان بن الحكم ومن بعده أتى ابنه عبد الملك وسيرث الخلافة ابنه ثم ابنه ثم ابنه ثم ابنه.

ابتسم الحجاج في شماته ساحقة وهو ينظر لعبد الله بن الزبير الذي اتسعت عيناه مملوءة بالدموع وبرعب حقيقي وشعر بمدى فجيعة ما يسمع. أخرج الحجاج خنجره المسنون وشد رأس عبد الله لأعلى من لحيته ثم جز عنقه وجذب رأسه لأعلى ليفصلها عن جسده ويلقها أرضًا آمرا رجاله أن يعلقوا جسده عند الكعبة حتى يعلم من في مكة ما حاق بخليفتهم المزعوم.

المسار الثالث

العباسيون يحكمون بدون أبي مسلم

بقلم سحر نعمة الله

جاء مقتل أبو مسلم الخراساني ليربك حسابات العباسيين. لكنهم لم يتراجعوا. وقد كانت لهم جارية قد زرعوها منذ أشهر في قصر مروان توددت إلى زوجة مروان بالحيلة حتى صارت جاريتها المقربة التي تقوم على خدمتها على أكمل وجه، وقد عرفت من الأسرار والخفايا ما لم تعرفه جارية قبلها، فقد تملكت الغيرة والحقد من قلب ثريا زوجة مروان بسبب حبه وتعلقه الشديد بهند الفارسية، لدرجة أنه أهملها ولم يعد يرغب بها بسبب غبائها الشديد في تعاملها معه، وتذكيرها له دومًا فضل قبائلها اليمنية عليه، فلولاها ما استطاع التمكن من البيعة ونيل خلافة المسلمين، وتوطيد أركان حكمه، لكنه جحد جميلهم وهجر فراشها، ولم يعد يقدرها كزوجة لأمير المؤمنين، وراح يفضل عليها تلك الفارسية الأعجمية. وهنا كانت الثغرة التي وجد فيها أبو العباس المنصور فرصته في التحالف مع زوجة مروان، ثريا، بناء على توصية جاريتهم بذلك، فزوجته تكن له الكره والحقد، وشرعوا يسترقون السمع إلى أية معلومة تصلهم من جاريتهم الجاسوسة التي توددت لثريا زوجة مروان وتغلغلت إلى تفكيرها وعرفت ما يخفيه قلبها وذات يوم قالت لها بحذر:

- مولاتي... إنه من الظلم البين أن يفضل مولاي الخليفة عليك تلك الجارية الحمقاء، فكيف بابنة أشرف قبائل العرب تعامل هذه المعاملة من زوجها، وقد احتلت قلبه بدلا منها جارية فارسية لا قيمة لها.

تنهدت مولاتها بحسرة وهي تطيل النظر إلى حديقة القصر:

- وما عساي أن أفعل يا سليمة، لقد ابتليت بدهاء هذه الجارية، إنها ماكرة استطاعت أن تكون عقل الخليفة الذي تحركه كما تريد، إنها غيرت قلبه عني، ودست المكائد ضدي حتى لم أعد أشعر أنني زوجته، وددت لو أقتلها بيدي وأمزقها إربا إربا، لكنها كل مرة تفلت من تدبيري، يا لها من ملعونة!

- وإذا فعلت لك ما تريدين... قالتها الجارية بابتسامة ماكرة، التفتت إليها ثريا منتبهة وكأنها تنتظر ماذا ستخبرها.

- أجل يا مولاتي سأخلصك منها في أقرب فرصة، وسأهدِّئ قلبك هذا، وسأجعلك تطمئنين بالًا.

في الوقت الذي كان فيه أبو العباس بن محمد يدبر لتجنيد زوجة مروان، وضمها إلى دعوتهم بعلمها أو دون علمها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كان الخليفة يوطد ثقته بكل من يراه يستحق الثقة ويكون مخلصًا له، فأراد أن يبني في البلاد

إدارة قوية الأركان، متجذرة البناء، يقيم التحالفات هنا وهناك كي يخمد نار الفتن والمؤامرات

ضده أو بمعنى أدق قد هابه أعداؤه من كبار الشيعة والخوارج، إنهم يخشون بطشه وتنكيله بهم، فباتوا يتمنون إرضاءه والتودد إليه، علاوة على تأمين حدود الدولة الإسلامية بتمكين فرق عسكرية قوية تحيط بها من كل الثغرات التي يتوقع التسلل منها، يا له من ماكر لو استطاع أن يمد حكم بني أمية لسنوات قادمة، بل الأدهى أن يثبت الدعائم لمن يأتي من بعده من أولياء العهد، وبهذا يكون تحقيق غاية بني العباس صعب المنال، بل يصل إلى حد المستحيل، إنه من الصعب عليهم أن يتحاشوا مسؤولية أفعالهم السابقة، ومهما يكن فليس بالقطع ثمة أي عار شنيع في ارتكاب أخطاء غير متوقعة أو مدروسة بدقة وعناية، فالمعيب بحق هو العجز عن تداركها مرة أخرى، وقد علموا من مصادرهم أن مروان قد عين إبراهيم بن علي قائدًا للجند بعدما قطع رأس أبي مسلم وأتاه به، وأجزل له العطايا لقاء إخلاصه الشديد له، وكانت مهمة تكليفه برعاية الجيش وفرقه العسكرية مهمة عظيمة عالية المقام، لا تتأتى إلا لرجال أفذاذ ذوي بطش وقوة، وقد واتته الشجاعة والأمانة وتوفرت فيه سمات القائد الحق الذي يقدم على الحرب فلا يخرج منها إلا ظافرًا منتصرا.

هذا ما كان يتظاهر به هذا القائد أمام الخليفة واستطاع أن يخدعه، وقد ظل يمارس نفاقه الحقير سعيًا وراء مأربه، فإنه يمتلك قدرا بالغًا من المكر والخداع، فله طريقته وحسب للتفوق على الآخرين وتسيير الأمور على هواه، فالأشخاص ممن هم على شاكلته يتظاهرون بالأمانة والإخلاص وأيضا بقليل من السذاجة حتى يأمن من هم أمامهم فلا يعتريهم أي شك عنهم، وعلى عن أفعالهم. فإن بدا في أفعالهم شيء من قلق يحرك عقل من أمامهم، تظهر سذاجتهم المصطنعة فتوقف نمو هذا الشك.

ولم يكن يخفى هذا الأمر على أبي العباس، فكان يعلم أن المرء إذا ظهر على مسرح الأحداث فجأة فربما وراءه أمر ما، لذا كانت غايته النفاذ إلى نفسية هذا القائد ومعرفة مكنون نفسه الخفية.

قام بجس نبضه عن طريق صديق مقرب إليه أوصل إليه رسالة شفهية، فيما إذا كان يريد أن يقابل أبا العباس أم يرفض الأمر برمته، لأن الغرض مفهوم من مجرد ذكر اسم أبي العباس؟

- أبو العباس بن محمد يريد مقابلتك؟

رمقه إبراهيم بنظرة مستنكرة رافضة على نحو يفهم أنه يسيء الظن به، لكن نفسه تواقة، وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة: حسنا... سأذهب إليه حينما تسنح الفرصة.

- ليتها في أقرب وقت، فهو حريص كل الحرص على ذلك.

- بشره أني أجهز أمري وسأكون عنده سرًا في خلال شهرين، فأنا مرسل بمهمة إلى خراسان.

وقد أتت الفرصة الثانية لبني العباس ألا وهي تجنيد إبراهيم بن علي بعدما اعتلى منصب قائد الجند والفرق العسكرية لمروان، واتسعت دائرة الخيانة حول مروان، ولعل شوكة العباسيين قد قويت وكأن مقصلة الخليفة بدأت تعد للقضاء عليه، وجاء الموعد الذي حدده إبراهيم بن علي لمقابلة أبي العباس فبادر بالتحية والسلام متهيبًا شخصية هذا الرجل الذي سمع أقاويل كثيرة عن ذكائه وقوته:

- السلام والتحية على أميرنا المبجل.

- السلام والتحية أيها القائد الهمام، إنني بالأحرى فخور لأني أشهد لقاءً مع قائد مثلك.

في مستهل حديثهما لم يقل أبو العباس شيئًا يلمح به عن نواياه، بل ركز على ما فعله بنو أمية بالمسلمين ودولة الإسلام عامة، وأن أحداثا وقعت فيها قدر بالغ من الظلم والاستبداد، ولا يقل فعل مروان الآن عما فعله أسلافه من قبل، وصمت برهة واستطرد:

- أرى أن طموحك أكبر من المتوقع، فماذا لو عقدنا صفقة ولك كل ما تطلب؟

رنا إليه أبو العباس بشيء من الإجفال وكرر على مسامعه مرة أخرى حينما وجد وجهه مكفهرًا: ولك كل ما تتمنى وتطلب؟

وبدت ملامح إبراهيم بن علي شديدة الحماس قائلًا: لا بد على المرء أن يجازف، إننا درجنا على أن ننتزع حقوقنا بأيدينا، إن أشد الأمور تتعلق في القلوب حتى يتلاشى أثرها بعد ذلك، وإني أرى نجم آل العباس بدأ يبزغ، أوشكت أن تقع الخلافة في أيديهم.

علت ضحكة أبو العباس معقبًا: بعض القادة مثلك ماهرون، أجل... سننتزع حقنا في أن نسود، فالخلافة لنا.

اقترب إبراهيم منه هامسا بحذر: وماذا تريد مني إذن؟

- تروقني صراحتك أيها القائد، إننا نعرف عن مروان وما يدور في قصره أكثر مما يعرف هو، ولنا ثأر عنده... ثأر أبي مسلم الخراساني.

- انتفض إبراهيم فجأة وهب من مكانه مذهولًا ولم ينطق بكلمة.

- اجلس أيها الهمام إننا نعلم أنك من قطعت رأسه بأمر من مروان وتدبير جاريته هند، وحسابنا ليس معك بل مع جاريته أولًا ثم يأتي دور الخليفة.

تنهد إبراهيم بن علي ملتقطًا أنفاسه وجلس منتظرًا استكمال الحديث.

- دعنا نفترض أن الشيء بعيد الاحتمال سوف يحدث، صمت برهة محدقًا إليه: نريد رأس هند الفارسية، هذه بتلك هذه رسالتنا للخليفة.

- ماذا تقول؟! رأس هند! إنها عقل الخليفة وقلبه.

- نعلم ذلك، أنت تعرف حق المعرفة أننا لا نزن الأمور بتلك البساطة، هذه ضربتنا الأولى، هي ستضعف قواه لكن لن تميته، نريده حيا الآن.

- وماذا لو فعلتها؟

- سنمدك بالأموال والعطايا، ولك ما تطلب من جواري.

- أنت تعلم أن تعاوني معك أمامه رقبتي لو علم الخليفة بذلك.

- إذن ماذا تريد؟

- حكم العراق وخراسان. كي تشحذ همتي.

صمت أبو العباس لحظة يتدبر الأمر، فباغته إبراهيم بن علي:

- ليس عليك أن تهدر وقتا في التفكير.

- حسنا... لك ذلك.

* * *

بعد الصفقة التي تمت ما بين أبي العباس بن محمد وإبراهيم بن علي بشهر كاملٍ أرسلت رسالة إلى هند من قائد الجند، وكانت تعلم جيدًا أنه لو أرسل لها رسالة في وقت متأخر من الليل من قائد الجند، فمفادها أن الأمر خطير جدا، لم تخبر هند أي أحد حتى الخليفة وذهبت إلى حديقة القصر كما جاء في الرسالة، قضت ربع ساعة ولم يظهر أحد، وفجأة ترامى إلى سمعها صوت أقدام تتحرك ببطء تقترب منها، توجس قلبها وأحست أن الأمر فيه شيء مرتب لها، فهمت أن تهرب على الفور، لكن فاجأها رجل ملثم طعنها بالرمح ثم قطع رأسها بالسيف وترك رسالة موقعة باسم أبي العباس السفاح "هذه بتلك".

وحينما ضجت جلبة وفوضى في القصر، وقد عم خبر قتل هند كل أرجاء الشام والعراق، وعلم الخليفة مروان، ولما رأى رأس هند مفصولة عن جثتها رنا بنظرات ذات مغزى، وما انفك يتفرس وجه وزيره مذهولًا، وعليه نظرة فاقدة الحياة كما لو أن الصدمة قد شلت تفكيره تمامًا، بل أوقفت تنفسه للحظات، ثمة شيء في نظراته لا

يفسره صمته القاتل هذا، وما إن قرأ الرسالة حتى أدرك أن الخيانة قريبة منه، بل يشم رائحتها الآن حوله يكاد عفنها يخنقه، لكن الصدمة كانت عظيمة عليه، إن الخطب جلل حقا، عم الحزن أروقة القصر لمرض الخليفة إلا زوجته ثريا التي انتشت فرحًا لقتل هند، وما إن علمت من جاريتها المقربة بما فعله أبو العباس بن محمد حتى أرسلت معها رسالة امتنان لفعله الجليل، وقد يعتري المرء إحساس بالغيرة والحقد لكن ما أفظعه أن يصل إلى حد الخيانة والانتقام الشنيع!

تدهورت حالة مروان وظل لستة شهور لا يغادر السرير، تملك منه الحزن واحتل جسده، فكأنه زهد في الحياة وقد فتك به مقتل هند، ووقف بجواره وزيره سليمان

محاولًا تنبيهه بالتلميح لا بالتصريح لعدم وجود دلائل ضد قائد الجند تدينه على ما يفعله، وقبل أن يتنبه مروان للأمر، علم قائد الجند بما ينوي الوزير قوله، فخطط ودبر وقتل سليمان الوزير قبل أن يفشي بالأسرار التي علمها.

ما أن بزغ الصباح حتى ثاب مروان إلى رشده، استعاد صحته إلى حد ما، وكأن الأمور قد عادت إلى مجاريها المعهودة كما كان يظن، لكن العباسيين قد سيطروا من جهة القصر بحمق ثريا وحقدها، ومن جهة الجند بخيانة إبراهيم بن علي وطمعه، وكلما سيطر العباسيون على مدينة أو ثغر كانت الأخبار تصل إلى مروان على عكس ذلك أو ما يشبه التدليس والمراوغة.

وقد تغيرت نفوس الناس على الخليفة، فشعور الناس بالحاجة إلى التعبير وبصراحة وبقوة عن أفكارهم، عن سخطهم من تدهور حال البلاد وانتشار الفوضى، إنها ملاحظات حملت دلالات، فالكثير من العلل تتوارى وراء الترقب والقلق، ترى من اضطربت ضمائرهم من الرجال، وراحوا يساندون دعوة بني العباس، يناصرونهم ويؤيدون مذهبهم متخذين الحيطة والحذر، خوفًا من بطش أتباع الخليفة، يهيئون النفوس للدعوة الجديدة، بل الثورة القادمة بقيادة بني العباس دون تسمية أحد منهم، لقد نجح آل العباس في اتخاذ أتباع لهم في السر، يتحركون في سرية تامة تحت راية "آل البيت" على نهج وتخطيط متقن متخذين من الثغرات التي تراكمت في أثناء حكم الأمويين معول هدم يطرق في نفوس الناس مجمعين حولهم كل المتمردين والثائرين يلعبون على أوتار شعارات تنادي بالمساواة والإصلاح.

لقد قام قائد الجند في الوقت الذي وهن فيه الخليفة مستغلًا مرضه وبعده عن شئون الدولة بدور كثير الخطورة متحالفًا مع أقوى قوة آنذاك وهي العباسيون كي يغير من ولاء الجنود للخليفة، ويغير من عقيدتهم القتالية إلى التمرد والثورة حين تسنح الفرصة لذلك، لقد دس الفتنة في قلوب العامة ينتظر وقت إشعالها بضراوة.

واعتراه بعض الشك من تلك النفوس الموالية للخليفة ربما تفسد خطته إن هي واتتها الفرصة، وينقلب عمله ضده، لا بد أن يتخذ الحذر منهم، بل أن يتخلص منهم بالقتل حينًا، وإبعادهم عن ساحة التدريب والقتال حينًا آخر. وقد أخفى سرًا وراء انسحاب الفرق المدربة من أماكنها التي أوكل إليها الخليفة مهمة تأمين حدود البلاد

وجعلها تأتمر بأوامره هو وحسب. وبدأ يقحمها في فض الشغب بين الناس، وكذلك في محاربة المتمردين المعارضين كي ينشئ عداوة فاعلة وموقوتة ضدهم، استنادًا على غضب الناس منهم فلا يكون للخليفة سندًا منهم، فهذا لم يكن السبب وراء ذلك فحسب، بل هد قوتهم في نزاعات جانبية وحروب أهلية لا طائل منها إلا إضعافهم وتبديد قوتهم الجسدية والمعنوية.

طفقت الرسائل تبعث من الجانبين بين قائد الجند وأبي العباس، كان طريق التمكن ممهدًا أمام العباسيين لفرض سيطرتهم على البلاد وهذا بما كان يبث من شائعات عن قوتهم وبطشهم لمن يخالفهم ولا يقدم لهم فروض الطاعة والولاء.

تمكن أبو العباس من إقامة تحالف مع القبائل اليمنية التي أهمل ودها الخليفة واستفرد بالحكم وحده بعدما ساندوه وحالفوه، وكانت ثريا زوجة الخليفة تتابع ما يتم بينهما عن كثب إذعانًا لروح الانتقام من مروان التي تشتعل داخلها يومًا بعد يوم. بيد أن تحالفهم مع الفرس قد نشأ منذ سنوات، منذ أن شرع أبو مسلم الخراساني يحقق مأربهم إلى أن قتل تحالفهم مع كبار خراسان تحالف أقوى من القبائل اليمنية لأن قوتهم العقلية في تدبير الخطط بنجاح مكنت بني العباس من بسط سيطرتهم على معظم بلاد الشام والعراق.

في ذاك الوقت أدرك سليمان بن هشام بن عبد الملك، الخطورة التي تهدد ملك آبائه، فعزم على التمرد عن الخليفة وطلب المبايعة له من بعض القبائل وبعض المدن الصغيرة في الشام التي ساندته لتحقيق غايته، واستشكل الأمر على مروان فالانشقاق الذي تم في البيت الأموي يجعله في مأزق جلل، فبدلًا من التكاتف والتعاون معًا لصد زحف آل العباس، صار الأمر ينذر بشؤم عظيم ودمار قادم لا محالة.

كانت الأجواء محتدمة، شديدة القلق بما يدور في البلاد من شائعات وقلاقل هنا وهناك، وزاد عدد المتمردين الخارجين عن القانون ينهبون أموال الناس علانية بالبطش والقوة، مما دفع بالكثيرين من أصحاب الدكاكين إلى أن يستغيثوا بالموكلين بحمايتهم، لكنهم كانوا عاجزي الحيلة قصار اليد، فرؤساؤهم شغلهم اللهو عن متابعة ما يكرب الناس ويشغلهم، وصاروا كأداة تحركهم أيادي خفية.

وما كان من عامة المسلمين إلا أن تعلن الثورة العارمة، والتمرد على الخليفة، ونمت في نفوسهم دعوة العباسيين التي بدت تؤتي أكلها الآن، إنها الثورة التي دعت إلى العدل والمساواة والإصلاح، إنها دعوة آل بيت رسول الله ﷺ، دعوة الحق والسلام.

وتهيأت البلاد لثورة قادمة لا محالة بعدما استولى العباسيون على معظم بلاد الشام والعراق والحجاز بيد أن خراسان منذ البداية مناوئة للأمويين، فأعلنت ثورتها على الخليفة وتمردت عليه وكانت موالية ومتحالفة مع ثورة العباسيين، وهنا بدأت بسط الحكم تنساب من تحت قدمي مروان، وبدت الأمور أشد تعقيدا، فما كان من مفر من أن اجتمع جيش بني أمية بقيادة إبراهيم بن علي عند نهر الزاب في العراق يحارب جيش

العباسيين وذلك في شهر جمادى الآخرة لعام ١٣٢ من الهجرة، وكأن ما رسخه القائد في نفوس جنوده قد ظهر جليًا في ساحة الحرب، فالبعض فر هاربًا والبعض الآخر انضم إلى دعوة العباسيين، وبعض ليس بقليل فضل أن يحارب بقوة وشجاعة.

تأمل إبراهيم بن علي مهارته في تحاشي الحرب كي لا يفقد معظم عدته وجنوده، كانت تعتمل في ذهنه أكثر الخطط طموحًا. طغى على الخطة من طموح جارف،

وظنا منه أن طموحاته السياسية لن تتحقق في ظل حكم بني العباس، لذا أراد أن يغير دفة الخلافة لآل علي بن أبي طالب.

- لقد تعلمت طيلة هذه السنوات الماضية، تعلمت الكثير عن بطش الحكام وغدرهم ما إن يصلوا إلى السلطة والتمكين حتى ينكلوا بمن ساعدوهم، القوة الآن معي، بيد أن أتباع العلويين يناصرونني.

وما إن علم أبو العباس بتلك الخطة الجديدة حتى أمر أشد المخلصين لهذا القائد بقتله على الفور، وقد كان ذو نفوذ مهد السبيل لنهاية مفجعة.

كانت ساحة الحرب مكتظة عن آخرها بأكوام من القتلى من جيش الخليفة وحينما وصلت الأخبار للخليفة أن قائد الجند قد خانه، ومكن العباسيين من النصر، فلم تكن لديه أية فكرة عما يحاك في كواليس القصر من خطط ومؤامرات، وقد أدرك بما لا يدعو للشك أن الثقة أحيانًا أساس البلاء، فلا مكان لها في السلطة، وأنه اقترف خطأ عظيمًا حينما خدع بالتظاهر وبالولاء الزائد والطاعة العمياء وما هي إلا قناع لئيم يرصد فرصة للغدر، وفي لحظة محددة وثبت إلى ذهنه بأن أجله قد اقترب، وشل تفكيره ماذا يفعل الآن غير أن باغتته زوجته قائلة: ماذا بك يا خليفة المسلمين؟ وكانت عيناها تنطق بالشماتة والكره.

- أرى في عينيك خيانة وغدر.

- أجل سأقتلك كما قتلت محظيتك الحمقاء هند.

- أنتِ قتلتها؟

- لا... بل قتلها قائد جندك الخائن، وها هو أيضا قتل لخيانته معك ولآل العباس.

كان يتعثر في أذيال الارتباك، ولم يكن في استطاعته قول أي شيء، أو عمل أي شيء، وقبل أن يهم عن كرسي الحكم باغته حرس ملثم وضربه بالسيف ثم قُطع رأس مروان.

وقد وصل أبو العباس إلى قصر الخلافة، وتمت له البيعة فقد كان متوقعًا أن يتبدل الحال في السنوات الأخيرة غير ما فعله مروان محاولًا إعادة روح بني أمية إلى سالف

مجدهم، لكن يد الغدر والخيانة طالته وأنهت حقبة من زمن كانت.

أسطورة المسارات البديلة

بقلم: أيمن حويرة

• التاسع من أكتوبر عام ١٥٥٣

جلس السلطان على عرشه الذهبي والتف حوله الوزراء ورجال الدولة، بينما انحنى قائد الجيش الإنكشاري وجنوده في مشهد مهيب أقسموا فيه قسم الولاء والطاعة لسلطانهم الجديد. كانت الفرحة عارمة والسعادة طاغية بادية على وجوه الحضور جميعًا، صحيح أن موت السلطان سليمان كان مؤسفًا فسمح بقدر من الأسى والحزن أن يتسللا لقلوب محبيه، وصحيح أن مقتل أبنائه الأمراء الثلاثة كان ليزيد هذا الأسى خاصة مع وجود أمير شجاع بينهم، لكن كل هذا لم يعكر صفو هذه اللحظة التي انتظرها الجميع منذ سنوات عديدة، اللحظة التي يرتقي فيها أميرهم المفضل عرش الدولة العثمانية ويصبح سلطانها وسلطان العالم الجديد... السلطان مصطفى بن سليمان بن سليم.

لم يكن الأمير مصطفى راضيًا عما حدث في الأيام الثلاثة الفائتة، وبالرغم من توتر العلاقات بينه وبين أبيه في الفترة الأخيرة إلا أنه كان يرفض مواجهته حرصًا على مشاعر الحب التي يحملها له، لكن قائد جيوشه أكد له أن رسالة السلطان الأخيرة التي أمره فيها بالحضور لمعسكر الجيش المتوجه لإيران تحمل في طياتها حكما بالإعدام، بعدما وشى به الوشاة عند والده وعكروا صفو العلاقة. عارضهم كثيرا وأبى أن يجبر أباه على التنازل على العرش لكنهم أنبأوه بأن بقاء الدولة العلية واستعادتها لأمجاد الماضي يستلزم منه قرارًا حاسمًا يُنحي العاطفة جانبا ويستمع لصوت العقل.

تطورت الأمور بعد ذلك بعدما رفض السلطان وجنوده الاستسلام، ودارت معارك دامية راح ضحيتها السلطان، ومات على أثرها الأمير جيهان كير، المحبب والأكثر قربا من مصطفى. وحين استتب الأمر لمصطفى، أوعز إليه رجاله بقتل بايزيد وسليم حتى لا ينازعاه العرش فتغرق الدولة في صراعات داخلية تشغله عن إنفاذ الجيوش لدحر الأعداء المتربصين بالدولة، وتقف سدًا منيعًا أمام رحلة البناء التي يعتزم مصطفى السير فيها قُدما لإعادة الدولة لما كانت عليه في عهد أجداده.

عشرون عاما مرت منذ لحظة تولي مصطفى العرش، عشرون عاما أنجب فيها مصطفى خمسة من الذكور واثنتين من البنات، لم يكن أشد المتفائلين يتصور أن تصل الدولة في عهده لهذه المرتبة بين دول العالم، وأن يصبح عصره هو العصر الذهبي للإمبراطورية العثمانية بعدما حققه والده من إنجازات وفتوحات. انطلق مصطفى غازيا العالم شرقا وغربا ففتح فيينا التي استعصت على والده من قبل، وضم إيران كاملة تحت سلطة بني عثمان، حارب الروس مرتين وانتصر، ودحر

الأسبان من الشمال الأفريقي، حتى وافته المنية وهو يعد جيشه من أجل تحرير الأندلس. مات في

الخامس عشر من ديسمبر عام ١٥٧٤ في طنجة وأسطوله يمخر مياه المتوسط في طريقه إلى أرض طارق بن زياد.

كانت وفاة السلطان مصطفى مفاجئة، وكان رحمه الله سلطانًا عادلًا قويًا فلم يسمح للحريم بالتحكم في السلطة أو التخطيط لمستقبل السلطنة من بعده، كما أن أولاده كانوا أمراء أشداء تربوا تربية رشيدة وتلقوا تدريبات عسكرية ممتازة جعلتهم جميعا مؤهلين لاستلام العرش. لكن يبقى البشر بشرا مهما تربت النفوس وسمت الأخلاق، فبمجرد أن ارتقى الأمير محمد بن مصطفى العرش ونادى به الناس سلطانا، بدأت الصراعات وتصدرت الخلافات المشهد. نازعه أخيه عثمان الأمر في البداية، ثم انضم مراد إليهما وصار لكل منهم أنصاره ورجاله. أفتى شيخ الإسلام -كعادته- بجواز أن يتخلص السلطان محمد من إخوته لكن مراد كان أسرع، دس السم لمحمد وقتل إبراهيم وسليمان، وتبقى له عثمان الذي تولى العرش بعد مقتل محمد.

خمس سنوات كاملة من الصراع أتت على الأخضر واليابس، ثارت النمسا وأهلها وحرروا فيينا، وقاتل الصرب في بلجراد حتى استولوا عليها، وعاد الأسطول العثماني من طنجة خائبًا بعد أن قهره الأسبان فهزموه وطردوه واحتلوا كامل الشمال الإفريقي حتى وصلوا إلى بنغازي. في هذه الأثناء كانت أحوال الدولة الداخلية أسوأ حالا، اطلق السلطان عثمان يد الصدر الأعظم في البلاد لضبط الأمن فعاث فيها الفساد، عانى الرعية من كثرة الضرائب المفروضة بعد نفاذ خزينة الدولة نتيجة خروج الكثير من الأراضي من سيطرتها، وبعد توقف الفتوحات وانعدام الغنائم، وما ترتب على ذلك من تذمر الإنكشارية وتعديهم على أموال الشعب.

ثم جاءت رحمة الله ومات عثمان واستتب الأمر لأخيه مراد الذي استلم دولة متهالكة، حاول مراد في البداية أن يبث فيها الروح مرة أخرى فكان أن جهز الجيوش لاستعادة الأراضي المفقودة أملا منه في أن يكون ذلك ترياقًا للإمبراطورية التي صارت أوروبا تنعتها بالرجل المريض، حاول وبدا أنه قد نجح فعلا في التعافي مما ألم بها جراء صراعاته مع أخيه، لكن تأخر مراد في الإنجاب شكل حاجزً أمام الاستمرار في التعافي، فقد انصب كل تفكيره في الأعوام التالية على ضرورة إنجاب وليا للعهد يستكمل مسيرة بني عثمان التي بدأت قبل ثلاثة قرون. انهمك مراد في البحث عن ضالته في الحرملك وبدأ يهجر الديوان وأمور الدولة، ولما بدا له أن حلم ولي العهد صار صعب المنال انغمس في الشرب وأصبح لا يستيقظ إلا سويعات قليلة.

كانت هذه اللحظات من عمر الدولة بالطبع هي الأنسب لأي طامع في الانقضاض على العرش والفتك بإمبراطورية بني عثمان وهو ما قد كان. جهز محمد جيراي، أحد خانات القرم التابعة للدولة العثمانية، جيشا واتجه به إلى اسطنبول، لم يصمد

الإنكشاريون الذين ذبلت مهارتهم العسكرية بعد الابتعاد عن المعارك فترة طويلة وانهزموا هزيمة نكراء أمام تتار القرم. دخل جيراي قصر توبكابي في الثامن والعشرين من أغسطس ١٥٨٢ وقتل كل أفراد السلالة العثمانية، ونودي به سلطانًا على أراضي الدولة العلية.

***

● الثامن والعشرون من أغسطس عام ٢٠١٩

في ذكرى مرور ٤٣٧ عاما على سقوط الدولة العثمانية بعد ثلاثة قرونٍ كاملة سادت فيهم العالم، كتب أحدهم تدوينة على «الفيسبوك» قال فيها:

"ماذا لو لم يتول مصطفى بن سليمان الحكم؟ ماذا لو كان قد آثر السلامة ولم يواجه أبيه؟ ربما كان سليمان ليصفح عنه ويعود مصطفى بعدها إلى ولايته، أو ربما قتله واستمر سليمان بعدها في الحكم حتى مات، ربما عاش سليمان سنوات طويلة بعدها حتى توفى مثلا عام ١٥٦٦، ربما انتقل العرش إلى ابنه سليم، صحيح أن الكثير من المراجع التاريخية قالت بأن سليم كان سكيرا بعكس مصطفى ذي الأخلاق الحميدة، لكن ربما كان سليم ونسله سببًا في بقاء الدولة العثمانية عمرا أطول، ربما وصل العرش يوما إلى سلطان ينهي قانون قتل الإخوة فلا تعاني الدولة يوما من انقطاع نسلها، ربما عاشت الدولة بعدها كثيرًا حتى يومنا هذا، أو حتى قبل ذلك بعقود، ربما كان مسارا بديلا لمسار قتل مصطفى لوالده القانوني أفضل وأكثر رحمة بالدولة وبنا، ربما تغير التاريخ كله. لكن المسارات البديلة هي فقط مجرد أسطورة، ربما بدا أن مسارًا آخرًا فعلا قادرٌ على أن يغير التاريخ، لكن لو كان بإمكان أبطال هذا المسار أن يسلكوه لفعلوها. وما وصولنا لهذه اللحظة الحالية إلا لعجزهم عن السير في أي من المسارات المطروحة حينها إلا الذي ساروا فيه!".

ضجت القاعة بأصوات وهمهمات بدت غاضبة. كان المحاضر قد انتهى للتو من قراءة منشور لأحد الطلبة الحاضرين والذي لخص فيه تاريخ الدولة العثمانية منذ تولى شاهزادة مصطفى عرش الدولة العثمانية وحتى سقوط الدولة بعدها بتسعة عشر عاما فقط بعد أن ظن الجميع أن مصطفى هو خير من يتولى العرش بعد والده – وقد كان فعلا – وخير من يحافظ على عظمة الإمبراطورية واستمراريتها وهو ما لم يكن.

- أتظن حقًا أن تولي سليم بن سليمان القانوني ربما لكان أفضل للدولة من تولي أخيه مصطفى؟ وجه المحاضر سؤاله لصاحب المنشور والفرضية الواردة به.

- نعم، أظن أن اختلافًا طفيفًا في مجرى الأحداث ربما لكان له بالغ الأثر في تغيير مسار التاريخ بعدها بأكمله. يقول العالم الأمريكي إدوارد لورنز في تجربته التي أجراها على التنبؤ بالأرصاد الجوية ومحاكاتها عن طريق الحاسب الآلي أن رقما صغيرا بعد العلامة العشرية الرابعة أو الخامسة تغير في بياناته التي أدخلها للحاسب أنتجت نموذجًا مغايرًا تمامًا لنموذج التنبؤ بالطقس الأول، فقط حينما غير

رقمًا صغيرًا جدًا من الممكن تقريبه أو إهماله. لقد سميت هذه النظرية بنظرية «أثر الفراشة».

انبرى أحد الحضور متدخلًا في الحديث:

- لكن ما هو دليلك على صحة هذه النظرية؟ أعني أن لورنز في الحقيقة قام بتجربة لا يمكن محاكاتها أبدًا في الواقع. فقد استطاع - نظريا - تثبيت كافة المتغيرات والمدخلات المستخدمة في المحاكاة وتغيير رقم واحد فقط. هل نستطيع نحن أن نقوم بتجربة مشابهة وتغيير عامل واحد فقط من العوامل التي أثرت في أي من الأحداث التاريخية؟

علت الهمهمات مرة أخرى واضطر المحاضر للتدخل لإعادة الهدوء للقاعة. ثم توجه بسؤاله مخاطبًا صاحب المنشور:

- هل لك أن تذكر لنا مثالًا آخر كان التغيير فيه طفيفًا لدرجة تسمح باستيعاب نظرية أثر الفراشة.

انفرجت أسارير الشاب بعد أن لمح بوادر اقتناع على وجه أستاذه، وانطلق في حماس ساردا:

- هل لكم أن تتخيلوا جميعا أن مجرد انعطافة خاطئة لسيارة كانت السبب المباشر لسلسلة من الحروب والتغيرات العنيفة التي مر بها العالم على مدار العقود الماضية. مات الملايين جراء هذه الانعطافة، واشتعلت شرارة حربين عالميتين.

ظهر الاهتمام على وجه المحاضر. نظر الشاب لوجوه الحضور فإذا بتركيز وصمت تامين واهتمام لا يقل عن اهتمام أستاذهم يعلو الوجوه. شجعه كل هذا على الاسترسال قائلا:

- لقد نجا ولي عهد النمسا في الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤ من محاولة اغتيال أصيب فيها أحد حراسه. وبعد أن فشلت محاولة الاغتيال وأثناء عودة الأرشيدوق فرانز فرديناند وزوجته صوفي من زيارة الضابط المصاب في المستشفى ضل سائقهما الطريق، وتوجه إلى شارع تواجد فيه بالصدفة غافريلو برينسيب، أحد أعضاء فرقة الاغتيال، والذي أطلق عليه عدة رصاصات أردته قتيلا. هذه الصدفة أدت بعد ذلك إلى نشوب الحرب العالمية الأولى التي خلفت ملايين القتلى، وكانت السبب الرئيسي في انهيار امبراطوريات عتيدة مثل الدولة العثمانية، وإمبراطورية النمسا والمجر، والاتحاد السوفيتي وهزيمة ألمانيا، تلك الهزيمة التي صعد هتلر على أثرها لحكم البلاد بعد عقدين من الزمان، وأشعل فتيل حرب عالمية جديدة قُتل فيها خمسون مليون انسان.

وقد استغل الصهاينة ما جرى خلال هذه الحرب لتبرير احتلالهم لاحقا لفلسطين. ليس هذا وحسب، فانقسام العالم بعد ذلك إلى معسكرين شرقي وغربي قاد للعديد من الاضطرابات فصارت ألمانيا دولتين، وحارب شمال كوريا جنوبها، وغزت

الولايات المتحدة الأمريكية فيتنام وأفغانستان والعراق. كل تلك الكوارث كانت فقط بسبب انعطافة خاطئة من سيارة.

أنهى الشاب كلماته بصورة مسرحية فضجت القاعة بالتصفيق في تأييد وانبهار واضحين. وعلت الأصوات مرة أخرى وزادت الحوارات الجانبية الثنائية بغرض إما التأكيد على صحة ما ذكره الشاب أو ذكر أمثلة أخرى وربطها بانعطافة سيارة ولي عهد النمسا.

في وسط هذه الضجة خرجت طالبة من بين الحضور وسارت باتجاه المحاضر، وحين اقتربت منه استدارت لتواجه الحضور بعد أن طلبت الإذن من أستاذها بالكلام. أومأ المحاضر برأسه موافقا، ولوح بيديه في إشارة للجميع بالصمت حتى يتسنى لتلميذته أن تتحدث. خرج صوت الطالبة هادئا رزينا وانسابت الكلمات من بين شفتيها في نعومة لتجد طريقها إلى آذان الجميع:

- الحقيقة أن ما ذكره زميلي جدير جدا بالاهتمام والتفكير، لكنني أشفق على سائق سيارة ولي عهد النمسا الذي تحمل وزر عشرات – وربما مئات - الملايين الذين قضوا خلال العقود الماضية.

ضحك الجميع، وابتسم المحاضر وحتى صاحب نظرية الفراشة، لكن الطالبة استمرت في حديثها مما أجبر الجميع على الصمت مرة أخرى.

- لكن دعوني اسأل سؤالا يبدو في غاية الأهمية، ماذا لو لم ينحرف هذا السائق ويضل طريقه؟ هل كان هتلر ليخسر الانتخابات؟ هل كانت اليابان لتنتصر على الولايات المتحدة في الحرب؟ أم أن الحرب لم تكن لتشتعل بالأساس؟ هل يعني هذا أن العالم كان ليصبح جنة وأن الاتحاد السوفيتي كان ليسمح باستمرار الدولة العثمانية، والولايات المتحدة لتتخلى عن اسرائيل ومطامعها؟ هل كانت الدنيا ستصبح أكثر رومانسية مما عليه الآن؟ لا أظن. بل دعوني أكون أكثر تطرفا وأدعي أن هذا السائق لو لم ينحرف بالخطأ لهذا الشارع، لكان ولي عهد النمسا اغتيل بعدها بعدة أيام أو أسابيع. ولو لم يتم اغتياله، لكانت صربيا أغارت على النمسا دون سبب، أو حاربت اليونان العثمانيين، أو دكت ألمانيا لندن فقط لتشبع غرورها. لم يكن العالم ليتوقف عند محاولة اغتيال فاشلة، ولم يكن الشر لينتهي لأن فراشة لم تحرك جناحيها.

كانت كلمات الفتاة منطقية مما دعي الجميع للصمت طويلا مفكرين فيما سمعوه، ومحاولين تحليله ومقارنته بما ذكره الشاب الآخر قبلها. لكنها لم تكتف بما قالت واستمرت في شرحها وكأنها تبتغي القضاء على أي محاولة لإحياء والتعاطف مع نظرية أثر الفراشة.

- أنا لا أنكر صحة النظرية التي ذكرها زميلي، لكنني أظن أنها أكثر ملائمة للتجارب العلمية والمعملية. تلك التجارب التي يمكن فيها توفير نفس البيئة والظروف عشرات بل مئات المرات، والمقارنة بين النتائج. لكننا لا نمتلك هذه

الرفاهية في تقصي أحداث التاريخ والحكم عليها. لا يمكننا إعادة انتاج هذه الأحداث ولا الحكم على مساراتها

البديلة. لا يمكننا الجزم من الأساس بوجود هذه المسارات البديلة. فما أدرانا بأن هذه المسارات المتعددة في خيالنا ليست في الحقيقة إلا مسارا واحدًا بعدة مداخل، من أدرانا بأن سائق الأرشيدوق كان مضطرا للانعطاف في هذا الطريق، وأنه لو لم ينعطف لجاء غافريلو إليه في الطريق الآخر، أو لانتظره في اليوم التالي، أو لاغتاله شخص آخر. إن هذا البناء الجميل الذي رسمته في مخيلتك لا يمكن أن يغير من الحقيقة شيئا. فواقع الحال هو أننا تجاوزنا هذه الأحداث بالفعل ولا يمكننا أن نختلقُ أحداثا مغايرة، نرمم بها نكبات التاريخ التي هي بالضرورة واقعة وإن اختلف الزمان أو المكان.

لو كان لهذه المسارات البديلة أن توجد، ولو كان لنا أو لمن حضروها حينها أن يختاروا مسارا غير الذي سلكوه لكانوا قد سلكوه حينها بالفعل، ولكان التاريخ قد سار في مسار آخر - مسارا واحدا فقط باتجاه المستقبل لا عودة فيه – لتصبح المسارات البديلة حينها أسطورة، أسطورة يناقش أحدهم حينها أستاذه في فلسفتها ويتجادل مع زملائه في صحة أثر الفراشة مثلما نفعل نحن الآن ليصل في النهاية لنفس اللحظة التي نعيشها الآن.

الجمعة، الثالث عشر من ديسمبر ٢٠١٩

" تم الكتاب بحمد الله"

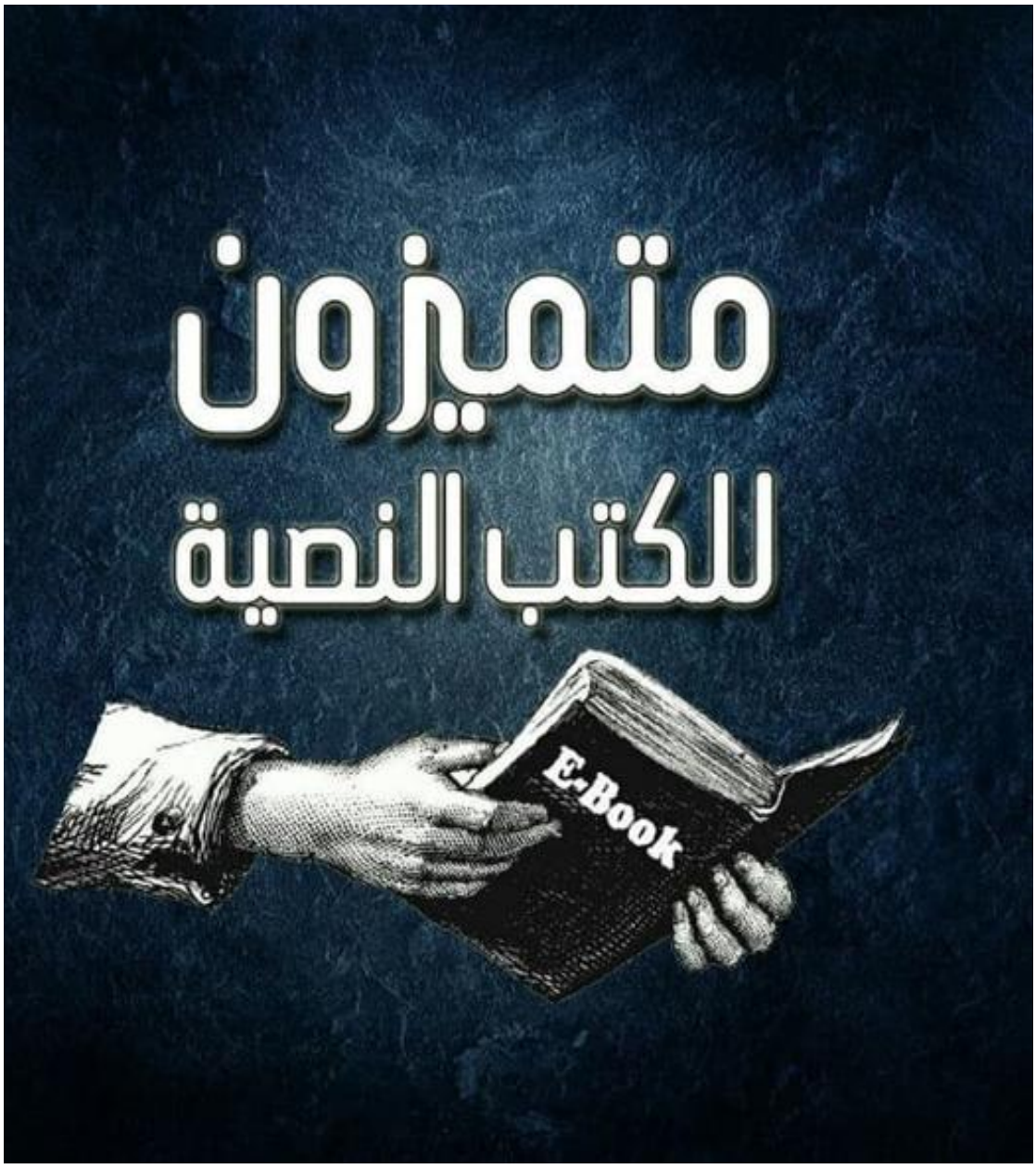
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات..

نبذة عن الكتاب..

إهداء

مقدمة

المسار الأول

بقلم: عمرو يسري

المسار الثاني

بقلم: معتز حجازي

المسار الثالث

بقلم: سحر نعمة الله

المسار الأول

بقلم: لمياء عبد السلام

المسار الثاني

بقلم: عائشة عادل

المسار الثالث

بقلم: رباب أشرف

المسار الرابع

بقلم: نهى عودة

المسار الخامس

بقلم: سامية بو بكر

المسار الأول

أبناء الحسين يرثون الحكم

بقلم عمرو يسري

المسار الثاني

الحجاج يعيد الأمويين

بقلم معتز حجازي

المسار الثالث

العباسيون يحكمون بدون أبي مسلم

بقلم سحر نعمة الله

أسطورة المسارات البديلة

بقلم: أيمن حويرة

الملاحظات

[←1]

"1" لم تحدث هذه المعركة بين الحسين – رضي الله عنه - والأمويين في المدينة، وإنما خرج الحسين إلى الكوفة بدعوة من شيعته وقاتل في كربلاء واستشهد واستتب الأمر ليزيد

[←2]

"2" لم يعرض الحصين على عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - التفاوض مع معاوية بن يزيد، ولم يتنازل معاوية وإنما حكم عدة أشهر، ثم مات وتولى بعده مروان بن الحكم. في الوقت نفسه أخذ ابن الزبير البيعة في الحجاز والعراق وحارب مروان ومن بعده ابنه عبد الملك حتى هُزم واستشهد واستتب الأمر للأمويين.

[←3]

"3" لم يرض مروان باغتيال الوليد وطالب يزيد بدمه لاحقا، ثم تصالح معه. وحين مات يزيد وتولى بعده إبراهيم بن الوليد والذي خلعه مروان لاحقا. تقلد مروان الخلافة بعدها ونقل عاصمتها إلى حران ثم ظهرت الدعوة العباسية واستطاع أبو مسلم الخراساني إنهاء خلافة مروان ودولة الأمويين كاملة وانتصر العباسيون في معركة الزاب وتولى الخلافة أبو العباس السفاح ومن بعده أبو جعفر المنصور الذي قتل أبو مسلم الخراساني خوفا من بزوغ ن